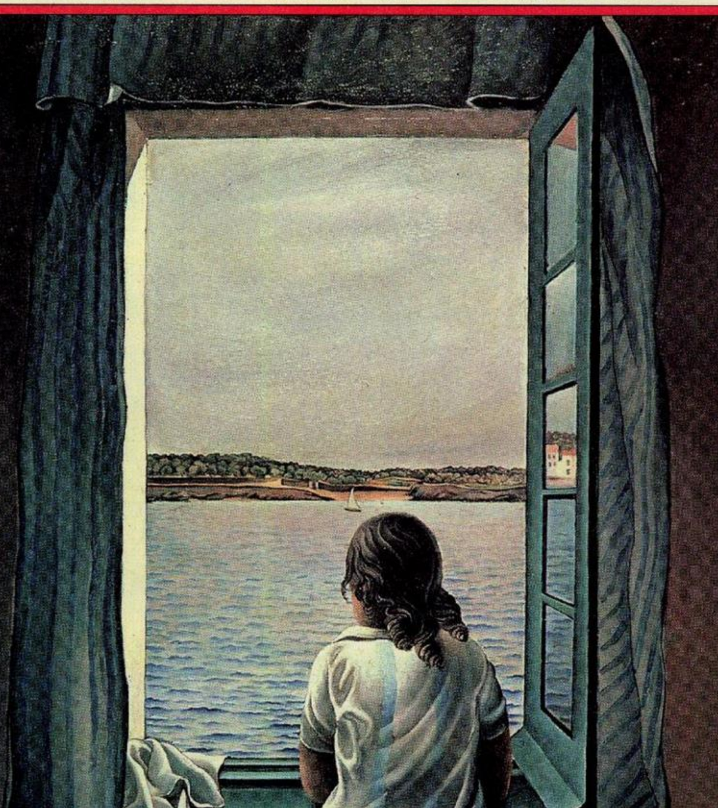
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 99 - April 2007

مجلة شهرية . العدد التاسع والتسعون . السنة التاسعة . إبريل ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات



هل هم حقا سادة العالم؟!

ربّات القصاص!

سياسة الموالد!

انسحاب الدولة ليس حلّا!

”دالى الدينامو!“

السنة التاسعة

العدد التاسع والتسعون

أبريل ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:

الشركة المصرية

للنشر

العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى

مدير التحرير

أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أنا ماديوف.. باحثة جغرافية مهتمة بالدراسات الاجتماعية فى العالم العربى.
- باقر ياسين العزيز.. مفكر سياسى عراقى.
- تونى جوت.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بكلية الألسن.
- سانفورد شفارتز.. أكاديمى متخصص فى الثقافة الأمريكية.
- صلاح العمروسى.. باحث اقتصادى.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- كوفى أنان.. أمين عام الأمم المتحدة السابق.
- لينين الرملى.. كاتب ومسرحى مصرى.
- مصطفى المرابط.. باحث بمركز الجزيرة للدراسات - الدوحة - قطر.
- وليام فاف.. كاتب صحفى أمريكى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - Daryl Cagle - Mitt Priggee

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٣٩٢٠٤٩٠، ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر

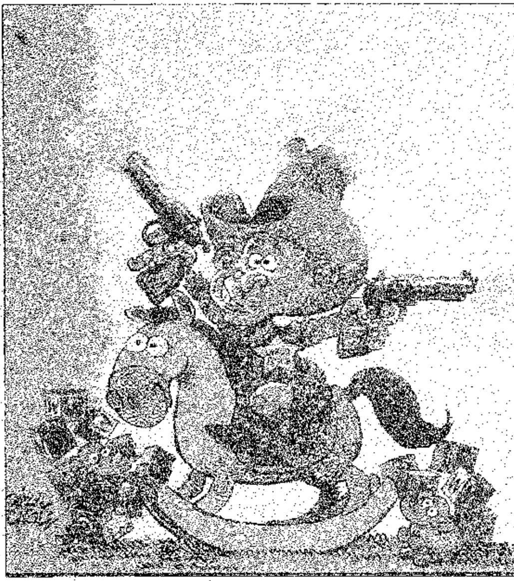
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهمًا - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سورية ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



هل هم سادة العالم حقاً!؟

ويليام فاف

السياسات الاقتصادية والسياسية الأمريكية الحالية تعتمد على ادعاء -غير مستحق- بالامتياز، وهو «الإيمان بالاستثنائية الأمريكية التي ترى الغالبية من غير الأمريكيين -ببساطة- عدم مصداقيتها»

❊❊ قرر الرئيس جورج بوش ألا يلقى اهتماما للرسالة السياسية التى تضمنتها الانتخابات النصفية عام ٢٠٠٦ وضغوط الكونجرس من أجل نهاية قريبة للتورط الأمريكى فى العراق، وكذلك مقترحات لجنة «بيكر- هاملتون Baker-Hamilton». وتتعرض قرارات الرئيس لمعارضة قوية، ولكن تلك المعارضة لن تصمد طويلا على ما يبدو. فقد عجز خصوم بوش عن اقتراح خطة للانسحاب لا تعد اعترافا سياسيا محرما بهزيمة أمريكا ولا تغامر بمزيد من العواقب الوخيمة فى العراق وربما فى المنطقة كلها، حتى لو أدى تأخير الانسحاب إلى الأسوأ على كافة الأصعدة. إن معظم منتقدى بوش فى الكونجرس والصحافة والتليفزيون وأوساط السياسة الخارجية هم رهائن مساندتهم السابقة لسياسته وإخفاقهم فى تحليل الفرضيات السياسية والفكرية التى قامت عليها.

إن هذا الوضع هو نتيجة لفشل فكرى أكبر. فلعدة سنوات لم يكن هناك تحليل نقدى يذكر للأسباب والكيفية التى مكنت السياسة الأمريكية المحدودة والمحددة والناجحة فى النهاية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتى عرفت بـ«الاحتواء الصبور اليقظ الحازم للنزعات التوسعية السوفيتية، والضغط على المؤسسات الحرة فى العالم الغربى» (كما صاغها «جورج كينان George Kennan» آنذاك)، من التحول عبر ستة عقود إلى مشروع هائل لـ«القضاء على الاستبداد فى العالم».

إن إدارة بوش تدافع عن شعبها لتحقيق هدف غير مضمون، وذلك عن طريق هجمات وقائية أحادية الجانب لا تتمتع بالشرعية الدولية ضد بلدان أخرى، مع اعتقالات عشوائية وممارسة للتعذيب والادعاء بأن الولايات المتحدة تتمتع بمنزلة استثنائية بين الأمم تفرض عليها مسئوليات عالمية خاصة وامتيازات استثنائية للوفاء بتلك المسئوليات.

هنا تكمن المشكلة. لقد قام بنفس الادعاء زعماء أمريكيون آخرون قبل جورج بوش، وفى قضايا أقل أهمية. إن الأمر أشبه بهراء وطنى لو افترضنا أن الولايات المتحدة لا تتمتع بمكانة أخلاقية فريدة تخولها أن تلعب دورا محوريا فى تاريخ الأمم وبالتالى فى شئون العالم المعاصر. فى الواقع أن ذلك الافتراض صحيح.

إن هذا الوهم الوطنى هو النتيجة المنطقية للمعتقدات الدينية لمستعمرى «نيو إنجلاند» الأوائل (المنشقين عن مذهب الكالفينية (نسبة إلى المصلح الدينى الفرنسى الكاثوليكى «جون كالفن John Calvin»، ١٥٠٩-١٥٦٤، المترجم) والذين تحركهم الطموحات الألفية ومبادئ الحاكمية الدينية) والتى أقنعتهم أن مستوطناتهم المتقشفة فى البرية تمثل بداية جديدة لقصة البشرية. مع ذلك، كانت المستوطنات الأولى فى «فيرجينيا» تجارية مثلما كانت مستوطنات الهولنديين، بينما كانت المستعمرات الممنوحة فى «بنسيلفانيا» و«ماريلاند» تابعة لجمعية الأصدقاء (Quakers) (جماعة دينية نشأت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، المترجم) والكاثوليك، ولم تكن لديهم مثل تلك الأفكار. وعلى نفس المنوال كانت المستعمرات الأولى للأسبان فى «فلوريدا» و«الجنوب الغربى»، والفرنسيين عند «البحيرات العظمى» والـ«ميسيسيبى».

إن نبالة المداولات الدستورية للمستعمرات فى أعقاب «حرب الاستقلال»، وصياغة الفكر الجديد للتنوير فى مؤسسات الحكم التى أنشأتها، قد ساهما فى الإيمان بالتفرد القومى. ذكر «توماس بين Thomas Paine» (مفكر ثورى بريطانى هاجر إلى أمريكا، ١٧٣٧-١٨٠٩، المترجم) فى كتاباته أن وضع أمريكا وظروفها يتشابهان مع بداية العالم. وليست لدينا الفرصة للتنقيب عن المعلومات فى العالم الغامض للأزمنة الغابرة، أو للمجازفة بالتخمين. فنحن كأنما نعيش فى بداية الزمان.

بل إن واحدا من المحافظين الجدد العائدين مثل «فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama» (كاتب ومفكر

The Case for Goliath: How America Acts as the World's Government in the Twenty-first Century
(حالة العملاق: كيف تتصرف أمريكا كحكومة للعالم فى القرن الحادى والعشرين)
Michael Mandelbaum
(PublicAffairs, 2005.

The New American Militarism: How Americans Are Seduced by War
(العسكرية الأمريكية الجديدة: كيف تغرى الحرب الأمريكيين)
Andrew J. Bacevich
Oxford University Press, 2005

بترتيب مع:
The New York Review Of Books

ترجمة: عادل فتحى

أمريكي معاصر من أصول يابانية تقترب أفكاره من المحافظين الجدد (المترجم) اعترف في أحد كتبه الأخيرة أن السياسات الاقتصادية والسياسية الأمريكية الحالية تعتمد على ادعاء - غير مستحق - بالامتياز، وهو «الإيمان الأمريكي بالاستثنائية الأمريكية التي ترى الغالبية من غير الأمريكيين - ببساطة - عدم مصداقيتها». يضيف «فوكوياما» أن هذا الادعاء لا يمكن أيضا الدفاع عنه حيث إنه «يفترض مسبقا مستوى عالياً جدا من الجدارة، لا تبرهن عليه أحوال البلاد».

ومع ذلك فإن هذا الاعتقاد قديم وقوي للغاية. وقد كتب الناقد «إدموند ويلسون Edmond Wilson» (١٨٩٥ - ١٩٧٢) قبيل نهاية حياته الطويلة، وهو بالكاد يعد «شوفينيا» (مغالياً في الوطنية، المترجم)، كتب من منطلق الحنين للوطن عن «الفكرة القديمة لأمة مختارة تؤدي عمل الله في الأرض» على الرغم من أنه استنكر فسادها في زمانه بسبب «الانحراف الخلقي». إن الأمريكيين - بإنشائهم الجمهورية - جعلوا من أنفسهم بالفعل خلفاء للممالك الحاكمة في أوروبا (رغم أن الجمهورية الهولندية والاتحاد السويسري قد سبقانا). أما الادعاء بأن الله قد ساهم في ذلك ورشحنا كشعبه المختار وائتمننا على رسالة أرضية، فإن ذلك ما زال يحتاج لمزيد من التفسير، وقد يرى عالم لاهوت منصف في هذا الادعاء إثما خطيرا نظرا لغطرسته.

إن الادعاء بفضيلة سياسية متفوقة هو ادعاء بالسلطة، وهو مطلب قد تتنازل عنه دول أخرى طواعية في سبيل تحقيق ما تعتبره واشنطون مصالح عالمية. منذ العام ١٩٨٩، عندما أصبحت الولايات المتحدة «القوة العظمى الوحيدة» بعد انتهاء الحرب الباردة، ترددت مثل تلك الأفكار كثيرا ونوقشت فكرة «السطوة أو الإمبراطورية الأمريكية العالمية الكريمة (أو حتى الحتمية)، أي سلاماً أمريكياً (بعد الحروب العالمية، المترجم) يرث السلام البريطاني (بعد معركة واترلو عام ١٨١٥، المترجم). ورغم أن مثل تلك الأفكار لم ترد صراحة في الخطاب الرسمي، إلا أنها تبدو أمرا مسلما به بصورة أو بأخرى - في الدوائر السياسية العالمية.

في صيف عام ٢٠٠٣ قدمت «كوندوليزا رايس»، وكانت وقتئذ تشغل منصب مستشار الرئيس بوش للأمن القومي، أكثر التفسيرات الرسمية اتساقا وقبولا لمثل هذا المنطق، أثناء حديثها في لندن في الاجتماع السنوي للمعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية. فقد ذكرت أن الوقت قد حان للتخلي عن مبدأ توازن القوى بين الدول ذات السيادة والذي أرسته «معاهدة ويستفاليا Treaty of Westphalia» عام ١٦٤٨، وأن اتفاق «ويستفاليا» أنهى الحروب الدينية بإقرار مبادئ التسامح الديني والسيادة المطلقة للدولة. وأن الأمم المتحدة هي تجسيد معيب للسلطة الدولية لأنها عبارة عن تجمع عشوائي لكل دول العالم، ويجب - كما تقول - استبدالها بائتلاف أو تحالف للديمقراطيات يكون هو السلطة الدولية المطلقة. هذا هو التيار السائد الآن في الدوائر المحافظة في واشنطون.

ذكرت «رايس» أيضا لأعضاء المعهد أن الوقت قد حان لشجب أفكار تعدد الأقطاب وتوازن القوى في العلاقات الدولية. وكانت تلك إشارة إلى الفرنسيين والحجج الأخرى المؤيدة لنظام دولي تعمل فيه عدد من الدول أو مجموعات الدول (مثل السوق الأوروبية) باستقلالية لتحقيق التوازن مع القوة الأمريكية. وكان ذلك في أعقاب الجدل الدائر في ذلك الوقت بشأن إخفاق مجلس الأمن في تأييد الغزو الأمريكي للعراق. قالت «رايس» إن توازن القوى في الماضي ربما «أبقى الحرب غائبة، ولكنه لم يحقق سلاما دائما». وأضافت إن «تعدد الأقطاب هو نظرية للمنافسة والمصالح المتعارضة و- على الأسوأ - القيم المتضاربة. لقد حاولنا ذلك في الماضي، مما أدى إلى الحروب العالمية».

من المؤكد إن السياسات الخارجية القائمة على توازن القوى كانت رد فعل لنشوء الدول-الأمم ذات القوى والطموحات المتباينة، والتي لم يكن لديها بديل - لحماية استقلالها والحفاظ على مصالحها الوطنية - سوى السياسات التي «وازنت» علاقاتها وتحالفاتها مع الآخرين لاحتواء المصالح المنافسة والطموحات المتصارعة. إن البديل الوحيد الواضح لتلك السياسة هو خضوع الجميع لقوة مهيمنة. إن الثقة البادية لـ «رايس» بأن تلك الصراعات والمنافسات لن تخلق مشاكل في أي تنظيم دولي جديد للديمقراطيات قد تبدو مفرطة في التفاؤل. ومع ذلك، يبدو عموما أن الأوساط الاحترافية للسياسة الخارجية والرأي العام الأمريكي يعتبرون أن النظام الدولي يتم توجيهه «طبيعيا» نحو تحالف حتمي تقوده أمريكا للهيمنة الديمقراطية على الشئون العالمية.

أثناء المائة والخمسين عاما الأولى من تاريخ الولايات المتحدة كان تأثير الأسطورة الوطنية للاصطفاء والتكليف الإلهي غير ضار عموما باعتباره وهما مطمئنا ملهما. وقد بقيت البلاد خلال تلك الفترة منعزلة إلى حد كبير عن الشئون الدولية. وقد انعكست الأسطورة في فكرة «التوسع الاستعماري» في أراضي القارة، بما في ذلك ضم الأراضي المكسيكية شمال «ريو جراند» دون الحاجة لذريعة التفويض الإلهي.

ولكن كل ذلك تغير مع «وودرو ويلسون Woodrow Wilson» (الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة، ١٨٥٦-١٩٢٤، المترجم). فقد تحولت الأسطورة الوطنية إلى فلسفة للعمل الدولي وبقيت كذلك. وأثناء الأزمة الكبرى للحرب العالمية الأولى تولت الولايات المتحدة و«ويلسون» شخصيا مهام عالمية تشبه العناية الإلهية. فقد صرح «ويلسون» بأنه آمن أن الله قد اختاره لقيادة أمريكا لإرشاد «أمم العالم لكيفية سلوك طريق الحرية». وقد قوضت مذابح وعبث الحرب بدرجة كبيرة النظام الأوروبي القائم وزعزعت الثقة في الحضارة الأوروبية. وقد رحب الحلفاء الأوروبيون بحماس بالتدخل الأمريكي عام ١٩١٧ والذي قلب الميزان العسكري، كما لقيت خطة ويلسون للسلام ذات النقاط الأربع عشرة قبولا لدى كل من شعوب قوى المحور والحلفاء والمحايدين.

وعلى أية حال فإن خطة «ويلسون» لم تثبت نجاحا. فالمبدأ الشامل بحق كل دولة في تقرير مصيرها لم يحل مشاكل أوروبا وإنما زادها تعقيدا، حيث خلق مآسي عرقية وإقليمية جديدة استغلتها لاحقا القوى الفاشية. وقد اعتبر «هارولد نيكولسون Harold Nicolson» الدبلوماسي البريطاني وأحد شهود مفاوضات «فرساي»، «ويلسون» رجلا «يستحوذ عليه ويسيطر عليه الإيمان بأن ميثاق عصبة الأمم هو رؤياه الشخصية والخلاص لكل مشاكل البشرية». وقد أدى إخفاق مجلس الشيوخ الأمريكي في التصديق على معاهدة عصبة الأمم (التي تخيلها «ويلسون» كأول حكومة عالمية) إلى اقتناع غالبية الأمريكيين بفضيلة العزلة الوطنية والتي واصل الرأي العام الأمريكي - في معظمه - تأييده لها حتى وقعت معركة «بيرل هاربر».

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان الانحياز للعزلة ما زال باقيا، وكانت السياسة الخارجية إحدى قضايا انتخابات عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨. وفي عام ١٩٤٩ اعترض السيناتور «روبرت أ. تافت Robert A. Taft» أحد رموز الحزب الجمهوري على معاهدة «منظمة حلف شمال الأطلنطي NATO»، حيث قال إنها تتضمن التزامات لا يمكن التكهن بها (لا يسعنا الآن سوى أن نتصور ماذا سيكون رد فعله تجاهها في أفغانستان اليوم). ومن جهة أخرى كان «تافت» مؤيدا لـ «قانون دولي يحدد واجبات والتزامات الأمم، ومحكمة دولية، وقوة عسكرية مشتركة تطبق القانون وقرارات تلك المحكمة». وقد شعر بأن الأمم المتحدة لم تحقق هذا الهدف حتى الآن «وإن كانت قد خطت خطوات كبيرة في هذا الاتجاه».

إن هذا الوضع المتناقض ظاهريا يعكس بالفعل تضارب المشاعر الأمريكية تجاه العلاقات الخارجية: فهي - من جهة - متوجسة خشية التورط في «سياسات قوة» دولية، ومن جهة أخرى ترحب بالإصلاح المثالي بشرط تأكيد المكانة الخاصة التي طالما ادعتها الولايات المتحدة. ورغم تحفظاته بشأن الالتزامات العسكرية للولايات المتحدة في الخارج وغريزته الانعزالية، فقد أقر «تافت» الرؤى المثالية العالمية لـ «ويلسون» و«فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt».

وقد وفرت الحرب الكورية والمواجهة السياسية المتزايدة مع روسيا السوفيتية في أوروبا مبررا إضافيا للانخراط الأمريكي عالميا، كما يتضح من العبارات شبه اللاهوتية لـ «جون فوستر دالاس John Foster Dulles»، وزير خارجية «دوايت د. أيزنهاور Dwight D. Eisenhower»، وهو محام ورئيس كنيسة كهنوتي (وكالفيني مثلما كان «ويلسون» والمهاجرون التطهريون). لقد أدرج مفهوم الولايات المتحدة كأمة للعناية الإلهية ضمن السياسة الخارجية الأمريكية أثناء خدمة «دالاس»، حتى أن «جورج دبليو بوش» فسر - تلقائيا - عام ٢٠٠١ حربه العالمية على الإرهاب بمحاكاة مفهوم «دالاس» للحرب الباردة (حتى بالتصوير الآني لإرهابيي الحادي عشر من سبتمبر كعملاء لتهديد عالمي منظم ضد الحرية). وقد لقيت تلك الصياغة قبولا غير متحفظ في معظم الدوائر السياسية والصحفية وغالبية الأوساط السياسية الاحترافية.

إن سياسة إدارة بوش ما زالت تعكس تأثير عقيدة الحرب الباردة، والتي كشفت في حالة «دالاس» تأثير كل من الفكر التاريخي العالمي للعدو الماركسي والافتراضات الدينية الشخصية حول معنى التاريخ. وبالنسبة للتأثير الفكري المحافظ الجديد (الويلسونية الجديدة) على طريقة تفكير بوش، بأن مسار التاريخ يتجه نحو



ديمقراطية عالمية، فقد تأكد هذا التأثير في لقائه عام ٢٠٠٤ مع «ناتان شارانسكي Natan Sharansky» المنشق السوفيتي السابق. إن تأكيد «شارانسكي» على أن التوازن الدولي لن يتحقق إلا تحت حكم الديمقراطية انعكس في خطاب تنصيب «بوش» لولايته الرئاسية الثانية حيث أعلن أن هدف السياسة الخارجية الأمريكية قد أصبح «القضاء على الاستبداد في العالم». ويمثل ذلك تشبيها ساذجا بما أطلق عليه الفيلسوف السياسي البريطاني-النمساوي «كارل بوبر Karl Popper» «الوثوقية التاريخية historicism» والتي تعني الإيمان بـ «القوانين» الشاملة للتطور التاريخي. إن بوش يرى صراعا هائلا بين الديمقراطية ومسعى «الإرهابيين» لإقامة خلافة إسلامية قمعية على نطاق عالمي (إن الكيفية التي سيحققون بها ذلك رغم معارضة الغرب الصناعي وآسيا غير المسلمة تحتاج لمزيد من التفسير المقنع).

وهكذا فإن إدارة بوش والمتعاطفين معها يعتقدون أنهم يدعمون القوة المهيمنة في تطور التاريخ. فإذا كان المسار الطبيعي للتاريخ هو في اتجاه الديمقراطية، فإن سياسة الولايات المتحدة - ببساطة - سوف تعجل المحتوم. وإذا اتضح أن الأمر ليس بذلك القدر من البساطة - كما حدث في العراق - فمن الممكن استدعاء بديل سياسي لنظرية الاقتصادي «جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter» حول «الدمار الخلاق» والتي تقول بأن الدمار - في ظروف معينة - يمهد الطريق للتقدم. إن «شومبيتر» هنا يصف آلية لاقتصاد السوق، ولكن عند تطبيقها على تطور المجتمع الإنساني فإنها تنحدر لمجرد إيمان علماني بالتقدم، وذلك أمر يتعلق بالإيمان وليس البرهان.

إن الولايات المتحدة تعتبر اليوم - بكثير من المعايير التقليدية، إن لم يكن معظمها - القوة العالمية الرائدة، وبحيازتها لأقوى اقتصاد في العالم وأكبر ترسانة أسلحة وأكثرها تطورا، فإنها تعتبر كذلك وتمارس نفوذا واسعا تبعا لذلك. ومع ذلك، فمن طبيعة العلاقات السياسية أن يؤدي السعي لترجمة منزلة للتفوق المادي إلى تفوق على الآخرين، إلى إثارة المقاومة وربما يحقق فشلا قد يكون مكلفا. وفي حالتنا الراهنة فإن ذلك يشير إلى إخضاع الآخرين وخاصة الديمقراطيات الأخرى التي يتوقع أن تقبل بزعامة الولايات المتحدة لنظام عالمي جديد، وربما تكون هناك مقاومة لذلك للعديد من الأسباب الوجيهة. في الماضي نجحت المجتمعات الأكثر تطورا من ناحية التنظيم السياسي والاجتماعي، أو القدرة الاقتصادية أو العسكرية، أو حتى في مجالات ضيقة كالملاحة البحرية، نجحت في إقامة إمبراطوريات. ولكن في العصور الوسطى وبدايات العصور الحديثة لم تكن القوى الإمبراطورية بالضرورة متفوقة تكنولوجيا أو عسكريا على الدول الخاضعة لها. فإمبراطورية «هابسبيرج Hapsburg» (أسرة حكمت النمسا بين عامي ١٥٢٦-١٩١٨، المترجم) كانت نتيجة للزواج الملكي والتحالفات الدينية.

أما اليوم، فإن الديمقراطيات الرئيسية كلها مجتمعات متقدمة، ويكون ذلك أحيانا طبقا للمعايير الاجتماعية والتوزيع العادل للثروة وفرص التقدم وتأمين الرعاية الصحية الشاملة والتعليم المجاني أو الرخيص وبعض التقنيات والصناعات، والكثير من تلك المجتمعات أكثر تقدما من الولايات المتحدة نفسها. وتلك المجتمعات على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة في مجالات الاهتمام المشترك - كما كان الحال طوال نصف قرن - ولكن ليس للخضوع لواشنطون. وهم يدركون أن جهود الإدارة الأمريكية الحالية لإقامة نظام يضم الدول التابعة لها في وسط آسيا والشرق الأوسط (الشرق الأوسط الكبير) قد أسفرت بالفعل عن حربين مدمرتين مستمرتين وزادت الأوضاع سوءا في لبنان وغزة والمناطق الفلسطينية وإسرائيل.

وقد تساءل «مايكل ماندلباوم Michael Mandelbaum» مدير البرنامج الأمريكي للسياسة الخارجية في جامعة «جونز هوبكنز Johns Hopkins» مؤخرا عن السبب في غياب أي جهد لإقامة حلف عسكري: «إذا كانت الأمم الأخرى تعارض فعلا الجهود الأمريكية لإقامة سطوة عالمية جديدة، فلماذا لا توجد محاولات لبناء تحالف عسكري يقاوم ذلك؟». يصف «ماندلباوم» الولايات المتحدة بأنها تهيمن على العالم فعلا، مثلما يهيمن الفيل (في مقارنة رقيقة) على أراضي السافانا العشبية في أفريقيا: إن العملاق العشبي الهادئ يبقي الحيوانات المفترسة على مسافة ملائمة، بينما يعيل «أنواعا عديدة من الكائنات الأخرى مثل الثدييات الأصغر حجما والطيور والحشرات، بتوفير التغذية لها أثناء قيامه بتغذية نفسه». يضيف «ماندلباوم» أن الجميع يعلمون أن الولايات المتحدة ليست قوة مفترسة ولذلك فإنهم يستفيدون من الاستقرار الذي يحققه الفيل على حساب دافع الضرائب الأمريكي.

من المعلوم عن الأفيال أيضا أنها تطأ الناس وتتلف المحاصيل والحدائق وتطيح بالأشجار والمنازل وتصاب بالجنون في بعض الأحيان (مثل «الدول المارقة»). بل إن الأمريكيين في الحقيقة مفترسون. لقد اعتدت الإدارة الأمريكية على النظام العالمي القائم برفض المعاهدات والاتفاقيات التي لا تناسبها واستعادة التعذيب والاعتقال العشوائي وغير محدد المدة إلى الحضارة الحديثة. أين الاستقرار الذي يخبرنا «ماندلباوم» أن تلك التعبئة العسكرية والسياسية الأمريكية قد حققته؟ إن الحرب الاختيارية المأسوية والمدمرة في العراق، والفوضى المستمرة والمتصاعدة في أفغانستان عقب حرب أخرى مشابهة، والحرب بين إسرائيل وحزب الله في لبنان، وبين إسرائيل وحماس في غزة، وكذلك بين حماس وفتح، مع استمرار الأزمات في فلسطين، وهواجس حروب أمريكية اختيارية جديدة ضد إيران أو سوريا، وظهور كوريا شمالية نووية - كل ذلك يكشف عن اضطراب دولي خطير.

أثناء المائة والخمسين عاما الأولى من تاريخ الولايات المتحدة كان تأثير الأسطورة الوطنية للاصطفاء والتكليف الإلهي غير ضار عموما باعتباره وهماً مطمئناً ملهماً

إن الجهود الأمريكية لتحرير الاقتصاد العالمي وتسويق العولمة - مهما كانت فوائدها - كانت أعظم قوة مسببة للخلل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي عرفها العالم منذ الحرب العالمية الثانية، حيث أدت إلى ما يشبه كثيرا «الثورية المستمرة للإنتاج، والإخلال الدائم بكل الظروف الاجتماعية، والشك والاضطراب الأبديين» الذي تكهن به «ماركس Marx» و«إنجلز Engels» في «البيان الشيوعي The Communist Manifesto».

إن تساؤل «مايكل ماندلباوم» عن إمكانية استخدام التحالفات العسكرية لاحتواء القوة الأمريكية يبدو وكأنه من عصر آخر. لقد اختلفت جدوى التحالفات العسكرية عما كانت عليه في السابق، وهو ما تدركه الولايات المتحدة تماما. لا يمكن لعاقل اليوم أن يعتبر الحرب التقليدية مع الولايات المتحدة رداً مفيدا - أو مطروحا - ضد القوة الأمريكية، على الرغم من أن كوريا الشمالية وإيران - وغيرهما بالتأكيد - قد توصلوا إلى أن الردع النووي ضد ما يعتبرونه تهديدا من الولايات المتحدة هو استثمار مفيد.

إن العسكرية الأمريكية الجديدة - كما يصفها «أندرو باسيفيتش Aandrew Bacevich» (أستاذ العلاقات الدولية بجامعة بوسطون) تدعو لتبني مفاهيم بالية بشأن القوة القائمة على التفوق العسكري الكمي. إن القوة تأتي الآن - أساسا - من المقومات والهيمنة الاقتصادية والمالية والصناعية والسياسية والثقافية، علما أن تلك المقومات في الولايات المتحدة لا تحقق لها المناعة. وإذا ما كانت السطوة الأمريكية العالمية تشكل تهديدا، فلدى المجتمع الدولي من الوسائل السياسية والاقتصادية ما يكبحها، ناهيك عن الصور غير التقليدية للمقاومة العسكرية والتي تم توظيفها بنجاح في العراق، وفي لبنان في الصيف الماضي، وقبل ذلك بوقت طويل في فيتنام.

إن ما يسبب الحروب الآن هو القومية والمذاهب الدينية أو السياسية، وتبقى القومية والكوميونية (نظرية تقول بأن الدولة عبارة عن اتحاد بين كوميونات (وحدات إدارية صغيرة) مستقلة، المترجم) المدافعتان عن هوية واستقلال المجتمع قوى سياسية مؤثرة بارزة، كما كان الأمر في فيتنام منذ عقود ثلاثة. إن التطورات الأخيرة في لبنان والعراق والشيشان والانتفاضة الفلسطينية والدول غير المستقرة وذكرى حرب فيتنام وشبح حيازة الدول المارقة لأسلحة نووية، كل ذلك يجعل من التدخلات العسكرية في العالم غير الغربي احتمالا غير جذاب.

هل هناك من سياسة بديلة؟ عند



وفاة «جورج كينان» عام ٢٠٠٥، كان الكثير قد تحقق بالفعل نتيجة لسياسة الاحتواء - التي كان هو مهندسها - إبان الحرب الباردة، والتي ثبت نجاحها - كما توقع - بانهيار الاتحاد السوفيتي بسبب التعفن الداخلي. لم يكتب الكثير عن رؤية «كينان» لطبيعة العلاقات بين الدول والتي كانت تتناقض جوهريا مع سياسات وافتراضات الحكومة الأمريكية الحالية وخاصة فيما يتعلق بسياسة واشنطون الخارجية. لقد ضم كتاب «كينان» عن خواطر سيرته الذاتية «حول التل الوعر Around the Cragged Hill» والذى نشر عام ١٩٩٣ عندما كان فى التاسعة والثمانين، ضم خواطره الحكيمة حول الموضوع، وكذلك أفكاره تجاه السياسة الخارجية الأمريكية.

لم يعتقد «كينان» أن الديمقراطية عبر حدود أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية يمكن أن تسود عالميا. يقول «كينان»: «لتحقيق حكم ذاتى حقيقى، يجب أن يفهم الشعب ماذا يعنى ذلك وأن يريده وأن يكون مستعدا للتضحية فى سبيله. إن كثيرا من أنظمة الحكم غير الديمقراطية غير مستقرة بطبيعة الحال. ولكن ماذا فى ذلك؟ نحن لسنا - ولن تكون أبدا - أوصياء عليهم (لم يقل أننا قد نحاول يوما أن نكون). اقترح «كينان» ترك المجتمعات غير الديمقراطية كى تحكم أو تسىء حكمها وفقا للعادات والتقاليد، وأن نطلب من زمرائهم الحاكمة فقط أن يحافظوا - من خلال علاقاتهم الثنائية معنا ومع بقية المجتمع العالمى - على الحد الأدنى من العلاقات الدبلوماسية المتحضرة».

مع انتهاء الحرب الباردة، لم ير «كينان» حاجة لاستمرار أى وجود للقوات الأمريكية فى أوروبا، مع الحاجة للقليل منها فى آسيا بما يتناسب مع المتطلبات الأمنية لليابان المتحالفة مع الولايات المتحدة من خلال معاهدة. وقد استهجن «كينان» غزارة البرامج الاقتصادية والعسكرية وتعقيداتها «والتى تتجاوز مجرد السهو الرسمى والخاص». وتساءل عن السبب فى قيام الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ بتقديم مساعدات عسكرية لعدد ٤٣ دولة أفريقية و٢٢ - من أصل ٢٤ - دولة فى أمريكا اللاتينية: «ضد من يمكن أن تستخدم تلك الأسلحة؟ من المفترض أنها ستستخدم ضد جيرانهم أو - فى الصراعات الأهلية - ضد أنفسهم. هل من واجبنا أن نعلمهم لذلك؟».

فى أواخر الخمسينيات، دخلت أنا وزميلى الراحل «إدموند ستيلمان Edmund Stillman» (المدير السابق للقسم الأوروبى فى معهد هدسون بباريس، المترجم) فى مناقشة تحولت فى النهاية إلى مقال فى مجلة ثم كتاب، تشير إلى أن الهاجس الأمريكى تجاه النفوذ الشيوعى السوفيتى كان يحول الولايات المتحدة إلى نسخة أمريكية من الوثوقية التاريخية الماركسية واليسوعية الفكرية. لقد ذكرنا أن واشنطون وقعت تحت تأثير السياسات الفكرية للثلاثينيات والخماسنة المعنوية للحرب العالمية الثانية، عندما افترضت أننا كنا نتصارع مع روسيا السوفيتية - إذا جاز القول - حول جوهر هذا العالم.

كنا نرى أن العكس تماما هو الصحيح. وذكرنا أن المنطق السليم بالنسبة لطبيعة المصالح الحقيقية لروسيا والصين يشير إلى أن الوقت ليس فى صالحهم، وأن سياسة «كينان» لاحتواء القوى الشيوعية الرئيسية إلى أن يؤدى إلى تقويضها ما كان يمكن أن يطلق عليه «ماركس» تناقضاتهم الداخلية، كانت هى السياسة السليمة. إن مصلحة الصين الأساسية كانت فى إضعاف الاستقواء السوفيتى فى العالم الشيوعى. كانت روسيا نفسها فى حالة انحدار مادى، كما خبت يسوعيتها. وكانت حيوية أوروبا الغربية واليابان وأمم آسيوية أخرى فى ازدياد، وربما تطالب باستعادة نفوذ ما قبل الحرب. وقد توصلنا إلى أن الخمسينيات كانت بالفعل زمن مراكز القوى العديدة والمصالح المتعددة، وهو نظام يعبر فيه ممثلو الدول المستقلة - أكثر من الماضى - عن النفوذ والطموحات الدولية، نظام تستطيع من خلاله الولايات المتحدة أن تزدهر بينما لن يستطع الاتحاد السوفيتى ذلك على المدى الطويل. وكان اقتراحنا فى النهاية هو التحلى بالصبر.

كان ذلك يتعارض مع كثير من أفكار ذلك الزمان، وإذا ما استمددنا تطور الأحداث، فتلك هى حكاية الخاسر الذى يصف طريقا لم يسلكه أحد، وربما لا يبدو ذلك قليل الأهمية الآن لو أن التوجه الذى تم انتهاجه لم يثبت فشله الذريع كما حدث بالفعل. ربما يبدو من الفزع تصور أن الإدارة الأمريكية الحالية تستطيع التحول عن السياسات العسكرية والسياسية التدخلية التى استمرت طوال العقود السابقة، ناهيك عن النسخة العدائية جدا من تلك السياسات منذ عام ٢٠٠١، إلا إذا اضطرت لذلك عند وقوع كارثة فى الشرق الأوسط، وهو أمر محتمل جدا. والسؤال المطروح الآن هو: هل ستقوم الإدارة الأمريكية الجديدة القادمة بعد عامين بالتحول عن تلك السياسات؟

مع ذلك، لا توجد الكثير من الدلائل على وجود تحد فى السياسة الخارجية الأمريكية يناقش مبادئ وافتراضات التدخلية الدولية التى يدعو إليها الإيمان برسالة وطنية خاصة. ربما تجد البلاد نفسها عام ٢٠٠٩ تحت إدارة جديدة تتبنى نسخة أقل خشونة وأكثر لياقة من سياسة السعى الأمريكى نحو التسلط على العالم، ولكن مثل تلك السياسة سيكون مقضيا عليها حتما باستحالة النجاح.

سيكون من العسير التراجع عن الالتزامات الفكرية والمادية الناتجة عن الاستثمارات الأمريكية العسكرية والإدارية والفكرية فى التدخلية العالمية طوال نصف القرن الماضى. إن الطبقة السياسية فى واشنطون على قناعة تامة بأن الولايات المتحدة توفر البنية الضرورية للأمن الدولى، وأن انسحاب القوات الأمريكية من شبكة القواعد العسكرية عبر البحار والتى تزداد انتشارا، أو التراجع عن التدخلات الأمريكية الحالية - فى شئون العشرات من دول العالم، سوف يخل بالنظام العالمى ويؤدى إلى عواقب غير مقبولة للأمن القومى الأمريكى. ونادرا ما يفسر لنا أحد لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا.

ما هو التهديد الذى تواجهه أمريكا؟ إن الصين وروسيا لا تمثلان تهديدا مباشرا لمصالح الأمن الغربى، على الأقل فى رأى معظم الحكومات عدا واشنطون. ومن الواضح أن لكل الأمم الكبرى احتياجات للطاقة والموارد الأخرى ولديها مصالح متقاطعة ومتصارعة، ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن كل ذلك وغيره من المشاكل المتوقعة غير قابل للتفاوض. إن الأفكار الثأرية من النوع الذى نسمعه أحيانا عندما يتحدث المحافظون الأمريكيون عن الصين أو روسيا - ناهيك عن إيران - هو نتيجة لفكر الهيمنة على العالم، وهو ضار بالمصالح الأمريكية الحقيقية. إن حرب أمريكا المزعومة ضد الإرهاب لم تنقذ حلفاءها من العنف. إن أوروبا تنظر لمشكلة الإرهاب عموما باعتبارها تخص النظام الاجتماعى المحلى واندماج المهاجرين - وهو أمر يحتاج معالجة سياسية واحتياطات أمنية - وتتعلق بأزمة دينية وسياسية داخل الثقافة الإسلامية المعاصرة لا تستجيب لأى علاج أجنبى. لا ينظر الكثير من الزعماء خارج الولايات المتحدة - باستثناء تونى بلير - إلى تهديد الإرهاب باعتباره مؤامرة عالمية من قبل من «يكرهون الحرية» - وهو قول صبيانى - أو يؤمنون بنجاح رد الفعل العسكرى الحالى له. لقد كانت النتائج الإيجابية ضئيلة، بينما كانت العواقب السلبية للعلاقات مع الدول الإسلامية كارثية. لقد أصبح منهج الولايات المتحدة - فى نظر الكثيرين - حربا ضد «القومية» الإسلامية باعتبارها إعادة تأكيد للهوية - والانفصالية الثقافية والسياسية التى تبنتها - مثل معظم القوميات - المنظمات الإرهابية المقاتلة، مثلما فعلت قومية أخرى بلا أمة - وقتها - وهى الصهيونية.

إن البديل غير التدخلى للسياسات المتبعة فى الولايات المتحدة منذ الخمسينيات هو الإقلال - إلى الحد الأدنى - من التدخل فى شئون المجتمعات الأخرى وقبول وجود نظام عالمى لتعددية من القوى والمصالح المشروعة والمتعددة. قد يظن المرء أن مسئولية الأمم عن نفسها وأن التدخل العسكرى الأمريكى فى شئونها غالبا ما يعقد المشاكل بدلا من حلها: هى رؤية قد تروق لجمهور أمريكى يؤمن بالمسئولية الفردية واستقلال السوق، ويعتبر نفسه معاديا لعقيدة سياسية معينة - رغم أنه لا يعى تماما عقيدته هو - ويرضى أن يحكمه نظام دستورى ومذهب براجماتى (عملى/ذرائعى) وأسلوب الحلول الوسط.

إن سياسة عدم التدخل تتجنب المذاهب الفكرية وتركز بدلا من ذلك على الآراء

الجهود الأمريكية لتحرير الاقتصاد العالمى وتسويق العولمة - مهما كانت فوائدها - كانت أعظم قوة مسببة للخلل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى عرفها العالم منذ الحرب العالمية الثانية



البراجماتية والاستقراتية لمصالح واحتياجات هذه الأمة وغيرها، مع الاعتماد على الدبلوماسية والاستخبارات التحليلية والاهتمام خصوصا بالتاريخ، حيث إن معظم المشاكل الخطيرة بين الأمم هي متكررة أو تتضمن عناصر متكررة هامة. إن كل الأزمات الحالية في أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين-إسرائيل وإيران، تعود جذورها للحقبة الاستعمارية أو ما بعدها، وهو ما يتجاهله الجدل السياسى والإعلامى الأمريكى.

إن سياسة عدم التدخل تلك تعتمد أساسا على التجارة والسوق لتوفير الموارد والطاقة لاحتياجات الولايات المتحدة بدلا من السيطرة الإقليمية أو الإرهاب العسكرى. إن العمل السياسى والدبلوماسى سيكون هو الأداة الأساسية والضرورية للعلاقات والمفاوضات الدولية، بينما يأتى العمل العسكرى فى المرتبة الأخيرة والأسوأ كدليل على الإخفاق السياسى. وسوف يعاد التفكير فى الانتشار العسكرى بالخارج مع الاهتمام الخاص بإمكانية أن يؤدى بالفعل إلى وضع العراقيل أمام حل الصراعات أو زيادة تشدد الحراك المعقد للعلاقات بين الأمم مثل الكوريتين والصين وتايوان واليابان، حيث لا يمكن الوصول لحلول نهائية سوى عن طريق التسويات السياسية بين الغرماء.

لو اتبعت سياسة عدم التدخل فى الستينيات لما وقعت الحرب الأمريكية فى الهند الصينية. كان الصراع هناك - كما تأكد بالفعل - سينظر إليه باعتباره ذا دوافع قومية وغير قابل للعلاج القادم من الخارج ومحدودا بطبيعته فى عواقبه الدولية مهما كانت. ولم تكن الولايات المتحدة ستلقى أبدا الهزيمة أو يتعرض جيشها لفساد الخلق أو يتجه طلابها للتطرف. ولم يكن ليكون هناك غزو أمريكى لكمبوديا. والذى عجل بعمليات الإبادة التى قامت بها قوات الخمير الحمر. ولما وقعت - غالبا - المحن التى تعرض لها أفراد القبائل فى لاوس.

لم تكن الولايات المتحدة لتعانى التبعات الكارثية لما كان فى الأصل أزمة داخلية فى إيران عام ١٩٧٩، والتى ما زالت تسمم شئون الشرقين الأدنى والأوسط، لولا الاستثمار الأمريكى الهائل والاستفزازى فى نظام الشاه باعتباره «الشرطى» الأمريكى فى المنطقة، مما أدى إلى التضحية بالشاه والتعجيل بالانقلاب الأصولى ضد حركته التحديثية العلمانية.

وبدون الدخول أكثر فيما يمكن أن يتحول سريعا إلى جدل عقيم لما كان «ممكنا» أو «غير ممكن» فى نصف القرن الماضى، يمكننا بالتأكيد أن نجادل بأن «ولايات متحدة» لا تتدخل فى شئون الغير لم تكن لتصبح فى حالة حرب بالعراق الآن. ورغم الاهتمام الواضح لواشنطون بالتدفق الحر لنفط الشرق الأوسط، كان بإمكانها الافتراض أن الدول المستهلكة للنفط ستشترى بترولها من السوق وأن منتجى النفط سيتوجب عليهم البيع حيث لا يوجد أمامهم ما يفعلونه ببترولهم غير ذلك، وأن التدخل على أساس سياسى فى السوق من قبل منتجى النفط سيكون مصيره الفشل على المدى المتوسط والطويل، مثلما حدث بعد ارتفاع أسعار نفط الأوبك عام ١٩٧٣.

إن إسرائيل - بأسلحتها التقليدية وغير التقليدية - قادرة على ضمان الدفاع عن نفسها ضد العدوان الخارجى، وإن كانت قد اكتشفت مؤخرا محدودية قدرتها على قتال القوات غير النظامية. وهى لا يمكن أن تتوقع أمنا كاملا بدون حل سياسى للقضية الفلسطينية، وهى مشكلة لا يمكن حلها سوى بالانسحاب من المناطق الفلسطينية - بالتفاوض - إلى ما يقترب من حدود ١٩٦٧. والمشاركة الدولية - عن طيب خاطر - ستكون بالتأكيد ضرورية للوصول لحل. إن أربعين عاما من التدخل الأمريكى قد ساعدت أساسا - للأسف - فى السماح لإسرائيل بتجنب مواجهة الحقائق، مما ساهم فى تطرف المجتمع الإسلامى.

ربما أخذت واشنطون فى الاعتبار أيضا - ولها مبرراتها - أن ضحايا الطغاة المحليين، مثل العراقيين قبل ٢٠٠٣، مسئولون عن إيجاد حلول لأنفسهم وقادرون عادة على القيام بالثورة إذا أرادوا ذلك حقا. فالعراق لم تحتله قوة أجنبية وتفرض ديكتاتورية صدام حسين. إن التمرد العراقى الحالى ضد الاحتلال العسكرى والحكومة المفروضة أمريكيا، مع تزايد الصراع الطائفى، يضعفان الآن التماسك الهش بالفعل للقوات الأرضية الأمريكية هناك. من الأفضل ترك «تغيير النظام» للشعب نفسه الذى يعرف ماذا يريد ومن الذى سيستفيد أو يعانى من عواقب التغيير.

إن النظرية العملية لمسئولية الشعب نفسه ربما تبدو غير مقبولة عندما يشاهد جمهور الـ«سى إن إن CNN» المذابح الجماعية فى دارفور وسيراليون وليبيريا ورواندا والبوسنة. فرغم أن سياسة خارجية تدخلية تتدخل بموجبها الولايات المتحدة بعدوانية فى الدول الأخرى لترتيب شئونها وفقا للمصلحة والعقيدة الأمريكية، فإن ذلك لا يشبه إطلاقا اتخاذ إجراءات تجاه الجرائم الفظيعة ضد الإنسانية.

قد يبدو التعامل مع الأمر الأخير أكثر بساطة نسبيا. مثل حالة «تشارلز تايلور Charles Taylor»، الذى كان رئيس ليبيريا فى الماضى (بين عامى ١٩٩٧-٢٠٠٣) والمسئول عن العديد من الصراعات الدموية البشعة فى غرب أفريقيا، والذى تجرى الآن محاكمته فى «لاهاى» بتهمة ارتكاب جرائم حرب. بالمثل، كان التدخل البريطانى الحكيم الذى أنهى الاضطرابات والصراعات المدنية فى سيراليون خدمة للإنسانية، مثلما كان إحلال السلام فى ليبيريا.

هناك حدود لإمكانيات التدخل الإنسانى. فمن الممكن أن يخلق مشاكله الخاصة، مثلما تعترف الآن الجماعات غير الحكومية. فجهودهم وجهود الأمم المتحدة لإطعام ومساعدة اللاجئين قد تفسح الطريق - بإبعادها الضحايا عن متناول المعتدى - للعدوان، مثلما حدث فى بداية التدخل فى يوغوسلافيا، عندما حدد مجلس الأمن مهمة قوات الأمم المتحدة بـ «حماية» المدنيين بينما كانت تدور رحى حرب طائفية وإقليمية هناك. وفى النهاية، أدى التدخل العسكرى إلى التوصل لاتفاق «دايتون Dayton» الذى - رغم ذلك - ترك كوسوفو والموقف المتوتر للشتات الإقليمى فى «الباتيا» بلا حل.

إن الأزمات الإنسانية هى فى العادة انعكاس معاصر لمحن تاريخية مستحكمة، مثلما كان الحال فى يوغوسلافيا السابقة وفى رواندا حيث فرض الـ«توتسى Tutsi»، وهم فى الأصل رعاة ماشية «حاميون» (نسبة إلى «حام» أحد أبناء «نوح» المترجم) هاجروا منذ قرابة أربعة قرون إلى منطقة بحيرة «كيفو» قادمين - فى الغالب - من أثيوبيا، حكما ملكيا أرستوقراطيا على الـ«هوتو Hutu» المتحدثين لغة الـ«بانتو Bantu» رغم أنهم (الهوتو) يشكلون الغالبية العظمى من السكان. وقد تركت السلطات الاستعمارية الألمانية والبلجيكية الوضع كما وجدته، واستمر الحال على ما هو عليه حتى تحقق الاستقلال فى الستينيات عندما أدى سعى الـ«هوتو» لإقامة حكم ديمقراطى إلى اندلاع الصراعات فيما بعد، مما أدى فى النهاية لوقوع إبادات عام ١٩٩٤ ضد الـ«توتسى» والتى انتهت بعودتهم مرة أخرى إلى سدة الحكم.

عادة ما تزداد حدة تلك الأزمات بسبب التطورات المادية، مثل نوبات الجفاف التى ضربت الساحل الأفريقى شبه القاحل فى السنوات الأخيرة، والمنطقة الجغرافية المناخية من السنغال إلى أثيوبيا والتى تفصل الصحارى الساحلية الأفريقية عن المناطق العشبية فى الجنوب. ومعظم قاطنى تلك المنطقة هم من الرعاة الرحل المعروفين باسم «العرب»، بخلاف الفلاحين السود الذين يزرعون الجنوب الأكثر خصوبة. وقد انخفضت مساحة الأراضى الصالحة للزراعة مما أدى إلى وقوع صراعات ونزوح للسكان واضطرابات سياسية فى تلك الدول الهشة. والضحايا فى دارفور هم لاجئون من الصراع السياسى فى السودان، وقد انتقلت محنتهم إلى تشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى، مما يهدد بوقوع اضطرابات فى أماكن أخرى.

من الواضح أن موقفا كهذا لا يمكن علاجه عن طريق التدخل العسكرى الأجنبى. ومع ذلك، فإن الجيش الأمريكى يسعى لإقامة قيادة أفريقية جديدة تتخذ - ربما - من جيبوتى قاعدة لها، مع «قوات متقدمة» مستعدة للتعامل مع «صعود أفريقيا كحقيقة إستراتيجية»، كما ذكر فى ديسمبر الماضى الجنرال «جيمس جونز James Jones»، القائد السابق للقوات الأمريكية فى أوروبا. ويحدد الإعلان الإستراتيجى الأمنى القومى الأمريكى «الدول المضطربة» فى أفريقيا وكذلك «الدول المارقة» باعتبارها تمثل تهديدا للمصالح الأمريكية.

يشير الدعم الأمريكى للتدخل الأثيوبى فى الصومال والذى أطاح

لا ينظر الكثير من الزعماء خارج الولايات المتحدة، باستثناء تونى بلير، إلى تهديد الإرهاب باعتباره مؤامرة عالمية من قبل من «يكرهون الحرية». إنه قول صبيانى!

بالحكم الإسلامى فى تلك الدولة المضطربة، وكذلك المطالبات فى الولايات المتحدة وأوروبا بالتدخل العسكرى ضد «العرب» المسلمين المسئولين عن لاجئى دارفور، إلى أن الدوائر الحكومية والرأى العام أصبحوا يخلطون بين الأزمات الإنسانية الأفريقية وبين الحرب الأمريكية الأكبر على الإرهاب أو باعتبارها جزءا منها. إن هذا خطأ فادح ويمهد بوضع الولايات المتحدة على طريق من التدخلات العسكرية العقيمة التى لا نهاية لها ضد المحن الأفريقية - «حرب طويلة» فعلا.

لقد أصبح انتشار الأسلحة النووية الآن - بعد المزاعم النووية الأخيرة لكوريا الشمالية - هاجسا أمريكيا أكثر من أى وقت مضى. إن أهم حافز لدى كوريا الشمالية وغيرها للحصول على أسلحة نووية هو ردع التدخل العسكرى الأمريكى (أو الإسرائيلى فى الحالة الإيرانية). إن الميزة التى يوفرها امتلاك مثل تلك الأسلحة هى ردع الدول المجاورة ومنع التدخل الأجنبى. ومن جهة أخرى -- وكما هى الحال فى إيران -- فإن السعى لامتلاك أسلحة نووية قد يمثل دعوة لهجوم أجنبى وقائى، ولذلك فإن خيار الانتشار النووى يحمل مخاطره الخاصة.

وفى واشنطون، ينظر إلى امتلاك إيران أسلحة نووية عادة باعتباره تهديدا لإسرائيل أو للقواعد أو المصالح الأمريكية فى المنطقة أو حتى لأوروبا. وبالنظر إلى قدرة كل تلك الدول على الثأر سواء بالوسائل التقليدية أو النووية، فلا يبدو مقنعا أو حتى معقولا أن تبادر إيران بمثل هذا الهجوم، أو حتى أن تتصور تحقيق أى عائد من ورائه.

إن حيازة الأسلحة النووية توفر - أساسا - قوة رمزية، حيث إن استخدام تلك الأسلحة ينطوى على عواقب غير متوقعة ولا يمكن السيطرة عليها، وفى الوقت نفسه يساهم ذلك الشك فى زيادة تأثيرها الرادع. إن صناعة واختبار سلاح نووى يجعل أى دولة أكثر أهمية ظاهريا، أو أسوأ سمعة وأكثر مهابة على الساحتين العالمية والإقليمية، ولكن الاستغلال الإيجابى للوضع النووى - ولو بهدف الابتزاز - ليس بالأمر الهين.

إن التهديد النووى ليس بالأمر الذى يمكن تصديقه تلقائيا، حيث إن تنفيذه لا يتناسب أبدا مع أى استفزاز يمكن تصوره. ومهما كانت الدوافع، فإن أى هجوم نووى ضد دولة غير نووية لا تملك أى وسيلة للردع أو الانتقام سوف يثير هياجا وقلقا دوليا هائلا ويدعو إلى تدخل إحدى - أو كل - الدول النووية القديمة وكذلك الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى ويجلب عارا دوليا هائلا على الدولة المستخدمة للسلاح النووى، وسيوحى ذلك بالتأكيد لأى حكومة فى المنطقة تشعر بأنها يمكن أن تتعرض للتهديد أن تسعى للحصول على رادعها النووى.

هل - على سبيل المثال - ستستفيد الولايات المتحدة أو إسرائيل شيئا من استخدام أسلحة اختراق نووية ضد المنشآت النووية الإيرانية، مخترقة بذلك الهدنة النووية التى استمرت منذ هيروشيما وناجازاكى؟ هل سيضيف ذلك إلى الدوافع التى قد تشعر بها السعودية وسوريا ومصر وتركيا وربما دول فى الخليج الفارسى ودول أخرى معينة فى الشرق الأقصى، للسعى نحو الرادع النووى؟ ألن يوفر ذلك مبررا للأوروبيين لإعادة النظر جديا فى موقفهم؟

وكما تشير الدراسات الإستراتيجية النووية خلال الأعوام الستين الماضية، فإن قيمة تلك الأسلحة لأى غرض آخر غير الردع تبدو ضئيلة. وهناك شك كبير فيما يتعلق باستخدامها للإكراه أو الابتزاز، ما لم يكن هناك ضمان بإمكانية توجيه ضربة ثانية لردع الثأر من النوع الذى كان بحوزة الدول النووية إبان الحرب الباردة، وذلك خارج إمكانيات الدول المرشحة الآن للنادى النووى.

إن التاريخ لا يوفر للأمم أمنا دائما، وحتى عندما يبدو أنه يقدم سطوة مهيمنة فذلك فقط - فى العادة - كى يأخذها ثانية وبطرق غير سارة غالبا. لقد حالف الحظ الولايات المتحدة عندما تمتعت بعزلتها النسبية لوقت طويل. إن قناعة الأمريكيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأن وطنهم كان بمأمن من المصير الشائع. تلاها فى القرن الحادى والعشرين إصرار أمريكى على الحرب (أو «النصر» كما يؤكد الرئيس) ضد ظروف الحياة التى يوفرها التاريخ الآن بالفعل. وذلك يضع أمامهم وهما لطيفا بأن القوة سوف تسود دائما، رغم أن ذلك غير صحيح بالتأكيد.

علق «شومبيتر» عام ١٩١٩ بأن الحركة الاستعمارية تنطوى بالضرورة على عداء لا تكمن أسبابه الحقيقية فى الأهداف المؤقتة المنشودة، بل عداء من أجل العداء، مثلما انعكس فى مصطلحات مثل «السطوة» و«الهيمنة على العالم» و«توسع من أجل التوسع»، وغير ذلك. يقول «شومبيتر»: «إن هذا التصميم لا يمكن تفسيره بأى من الذرائع المقدمة، أو بأى من الأهداف التى يبدو أنه كان يكافح فى سبيلها. إن الهدف من ذلك التوسع لم يكن سوى التوسع».

ربما ينطبق ذلك على الحالة الأمريكية، وقد تجاوزنا الإيمان بالاستثناء الوطنى لإنشاء مذهب للتقدم والزعامة العالمية ضمن تبريرنا الأخلاقى لسياسة القوى التوسعية. وفى تلك الحالة فإننا قد دخلنا إلى منطق تاريخى انتهى فى الماضى دائما بمأساة.

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

مونتسكيو

مونتسكيو من أبرز فلاسفة عصر التنوير فى فرنسا، فقد أسهم مع غيره من فلاسفة هذا العصر، أمثال فولتير وروسو، فى إحداث ثورة عقلية وفكرية وأدبية وفنية، تجسدت فى أول دائرة معارف عرفتها فرنسا. وهى التى أسهم مونتسكيو فى كتابتها.

ويعد كتاب رسائل فارسية من أهم كتاباته، إذ جمع أهم العناصر التى تميز بها القرن الثامن عشر فى فرنسا، فهو ينقد المجتمع الفرنسى فى هذا العصر نقداً لاذعًا، يستوى فى ذلك نقده للحكومة والسياسة والدين، أو لعادات المجتمع نفسه من نفاق وتفاهة وتناقض واحتقار لكل ما هو أجنبى. وعلى المستوى الفنى، تناول النقد الجدل الأدبى السفسطائى والتسرع فى الحكم على الأشياء والسخرية من الشعراء والأدباء المدعين. ويتجسد هذا النقد اللاذع عبر أسلوب مونتسكيو الساخر ولجوئه للتهكم الذى تشوبه المرارة أحيانًا.

ولم يكن لجوء مونتسكيو للإطار الفارسى مجرد إسقاط للنيل من حكم لويس الرابع عشر الشمولى وستارًا لنقد المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت، بل أراد أيضًا أن ينفتح على عوالم ومجتمعات أخرى غير أوروبية كنوع من الاعتراف بالآخر واحترامه والاستفادة منه، والتأكيد أن الحضارة الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ليست هى النموذج الأمثل الذى يستوجب التعالى على الآخرين. لذلك يعد كتاب رسائل فارسية لمونتسيكو من أهم معالم القرن الثامن عشر فى فرنسا. وقد ترجم الكتاب إلى العربية أحمد كمال يونس ونشرته دار سعاد الصباح وهذه مقتطفات من طبعته الثانية التى صدرت ١٩٩٢.

الأمم المتحدة لحظة كسوف!

هل مصير الأمم المتحدة هو الفشل، لتلقى بالتالى مصير عصبة الأمم المتحدة التى أساءوا إليها بدون وجه حق؟ ربما لا يكون الأمر كذلك

تونى جوت



لا [illegible] الأمم المتحدة موضوع مثير للنزاع والاختلاف على نحو غريب. وما إن يذكر اسمها فى الولايات المتحدة (وبالأخص فى واشنطن) حتى تُحال على الأرجح

The UN Exposed: How The United Nations Sabotages America's Security and Fails the World
(كيف خربت الأمم المتحدة الأمن الأمريكى وأفشلت العالم)
by Eric Shawn

The Parliament of Man: The Past, Present, and Future of the United Nations
(برلمان البشرية)
by Paul Kennedy

The Best Intentions: Kofi Annan and the UN in the Era of American World Power
(النوايا الأفضل.. كوفى أنان والأمم المتحدة فى عصر الهيمنة الأمريكية)
by James Traub

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

إلى «الفضيحة» و«التبديد» و«الفشل»، وإلى الصورة الشعبية الخاصة بالزائدة الدولية باهظة التكلفة، ومنبت الجمود، والمناصب التى لا يستحق شاغلوها ما يحصلون عليه من أجر، والانتهازيين، والعقبة التى تقف فى سبيل السعى النشط لتحقيق المصالح القومية الأمريكية. والأمم المتحدة داخل تلك الدوائر، فى أفضل الأحوال، فكرة جيدة ضلت الطريق إلى حد كبير.

غير أنه من المرجح كذلك أن يذكروك فى أماكن أخرى بمدى نفوذ الأمم المتحدة: فمن خلال وكالاتها العديدة فى مجالات السكان والبيئة والزراعة والتنمية والتعليم والطب ورعاية اللاجئين، بالإضافة إلى أشياء كثيرة أخرى، تعالج الأمم المتحدة المشكلات والتحديات التى لا يمكن لمعظم أهل الغرب أن يبدأوا فى تصورها. ثم إن هناك حفظ السلام؛ فبين جنودها ذوى البيريهات الزرقاء، ومراقبى الحدود التابعين لها، ومدربى أفراد الشرطة، ومراقبى الانتخابات، ومفتشى الأسلحة، وغيرهم، تحشد الأمم المتحدة قوة تحقيق سلام وحفظ سلام ليست أصغر بكثير من مجموع القوات العسكرية الأمريكية فى العراق. وعند النظر إليها من هذه الزاوية سيبدو العالم حتماً مكاناً أسوأ بكثير لو لم تكن الأمم المتحدة موجودة.

وربما كان مؤسسو الأمم المتحدة، خاصة الأمريكيين منهم سيفاجأون من الجدل المثار حولها حالياً. وإذا عدنا إلى عام ١٩٤٥ لوجدنا أنه كان هناك حماس شديد للمشروع الذى بدت أغراضه والمبرر من إنشائه جلية لا تحتاج إلى توضيح. وكان حجم الكارثة التى جلبتها الدول القومية فى العالم على أنفسها هو الذى مهد الأرض للتفاؤل؛ فمن المؤكد أنه سيكون لدى الحكومات والشعوب من المعرفة ما يجعلها لا تسمح بحدوث ذلك مرة أخرى. وسوف تكون الأمم المتحدة وميثاقها ووكالاتها الوسيلة المختارة للوقاية. وسوف تعالج أوجه القصور الخاصة بعصبة الأمم: وسوف تعمل الدول القوية ذات السيادة من خلال الأمم المتحدة ولن تتحايل عليها أو تعمل ضدها.

من المؤكد أن الأمم المتحدة تعانى من المشاكل بعد ستة عقود. وإحدى هذه المشاكل موجودة منذ البداية. ففى أعقاب سقوط النازية التى حوكم قادتها الذين بقوا على قيد الحياة فى نورمبرج لارتكابهم جريمة «التخطيط لحرب عدوانية والإعداد لها والشروع فيها وشنها»، أكد مؤسسو الأمم المتحدة على تأمين الدول ذات السيادة ضد التدخل الخارجى. بما فى ذلك تدخل الأمم المتحدة نفسها، إلا فى الظروف غير العادية إلى حد كبير. وينص البند السابع من المادة الثانية على أنه «ليس فى هذا الميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما».

غير أن الأمم المتحدة كانت تعتزم كذلك أن تكون أكثر استباقاً من عصبة الأمم حين يتعلق الأمر بمنع الحكام والحكومات من الإساءة إلى المواطنين وغيرهم من الأشخاص داخل حدودهم. وبمرور الوقت ظهرت توقعات ملحة فيما يتعلق بحقوق الإنسان ومعاملة الأقليات، التى يمكن أن تكون الإساءة إليها دافعاً للتدخل الدولى. وتفاقم هذا التناقض الواضح بين السيادة والنزعة الدولية مع تزايد عدد الدول، التى يسئ الكثير منها إلى رعاياه بطبيعة الحال؛ وكذلك مع زيادة عدد الدول الفاشلة، حيث تصبح طبيعة السيادة نفسها غير واضحة.

فى تسعينيات القرن العشرين فى هايتى والصومال والبوسنة ورواندا، واليوم فى العراق والسودان، من الذى ينبغى على الأمم المتحدة أن تتعامل معه فى الواقع؟ مع الزعيم المحلى المجرم؟ أم مع النظام نفسه المسئول عن الأزمة فى البداية؟ فى عصر العولمة، ومع ظهور الشركات متعددة الجنسيات وغيرها من الكيانات الاقتصادية التى ليست دولاً

بحال من الأحوال ولكنها فاقت الكثير من الدول في الثروة والنفوذ، وحين تكون أشد الإساءات في الغالب من صنع الجهات الفاعلة التي ليست دولاً، تصبح الوظائف الجوهرية للدولة التقليدية مضطربة ويكون من غير الواضح من الذي ينبغي عليه القيام بتلك الوظائف، وكيف يقوم بها. في تلك الفترات، ما دور الأمم المتحدة، باعتبارها فكرة ومؤسسة متأصلة الجذور كما يوحي اسمها، في عصر الدول القومية؟

مقارنةً بتلك المآزق الطارئة، قد تفترضون أن المشاكل التي واجهتها الأمم المتحدة وتواجهها باستمرار (شأنها في ذلك شأن أية بيروقراطية ضخمة الحجم)، عند العمل بكفاءة والقضاء على المحسوبية والرشوة، لن تسيطر على الجدل الدائر بشأن دور المنظمة في العالم. ولكنكم قد تكونون مخطئين في افتراضكم هذا. فمنذ حكم ماكارثي على الأمم المتحدة بأنها عميل للنفوذ الشيوعي وهناك من المعلقين الأمريكيين من يجد سعادة شديدة في تلطيخ سمعة هذه المؤسسة. وصاحب أحدث وأسوأ هجوم ضمن سلسلة الهجمات هذه هو إيريك شون الذي يدعي لنفسه صفة «الصحفي».

يزعم شون، شأنه في ذلك شأن الكثير من منتقدي الأمم المتحدة العنيدين، أنه يتمنى الخير لهذا المكان: «إنني أنضم إلى كثيرين في تحررهم إلى حد كبير جداً من الوهم، ذلك أن النموذج المثالي النبيل تحول إلى معقل للغطرسة، وفي أحيان كثيرة مرتعاً للكسل والتراخي». ولكن هذا الهراء الملطف سرعان ما يحل محله «تحقيق» لاذع حول سجل جرائم الأمم المتحدة. فالأمم المتحدة «تزخر بالعجز الشديد»، ويتمتع سفراء الأمم المتحدة وهيئة العاملين فيها بأساليب الحياة الفخمة والمعفاة من الضرائب في مانهاتن وغير ذلك من الامتيازات، وهناك اهتمام شهواني بأخبار «صانعي السلام... الذين يغتصبون الفتيات اللائي في الثانية عشرة من أعمارهن ويمارسون الجنس معهن». وقد لُخص ذلك على «جاكت» الكتاب على هذا النحو: «كيف أحال العاملون بالأمم المتحدة مراراً وتكراراً الأطفال إلى فرائس جنسية لهم». وهناك نبرة ازدراء في كل إشارة إلى كوفي أنان «رئيس عصابة عالم الأمم المتحدة».

غير أن وراء هذا الكلام المطوَّل الممل، الذي تعيد نبرته وبإخلاص فوكس نيوز التي يعمل بها مستر شون، غرضاً خطيراً، والأمر الذي يمقته شون وزملاؤه بشأن الأمم المتحدة هو العقبة التي مثلتها أمام الأهداف الأمريكية، وعلى رأسها غزو العراق. ذلك أن أية دولة أو مجموعة من الدول تجرؤ على معارضة اتجاه أمريكا نحو الحرب يغضب مستر شون. ويثير غضبه كذلك أن يصبح من الواجب على عضو مفين من أعضاء مجلس الأمن، فرنسا، أن يعترض على جهود واشنطن التي توقع المجتمع الدولي في مأزق؛ فرفض فرنسا ودول أخرى إرسال ١٠٠ ألف جندي آخرين «لمساعدة العراق على تحقيق الاستقرار التام» يعد «خيانة للشعب العراقي»، كما أنه «أوضح مثال على عدم التناسب الأخلاقي والسياسي مع ما تمثله الأمم المتحدة».

لا يقتصر الأمر على الفرنسيين بطبيعة الحال. ذلك أنه حسبما يقوله شون، فإن الأمم المتحدة بكاملها مجيزة على أساس الحصول على الأموال الأمريكية في الوقت الذي تدعم فيه أعداء أمريكا وتضر بمصالحها. فكبار موظفي الأمم المتحدة معادون بالفطرة لأمريكا. والأدلة المؤيدة التي سيقت في حالة الإنجليزي مارك مالوك براون، نائب الأمين العام للأمم المتحدة، توضح بدقة منهج المؤلف. ففي عام ١٩٨٣ وقف مالوك براون (دون أن يوفَّق) مرشحاً لعضوية البرلمان عن الحزب الديمقراطي الاجتماعي. وبعد عشرين عاماً، في عام ٢٠٠٣، صوت الحزب الديمقراطي الليبرالي البريطاني، خليفة الحزب الديمقراطي الاجتماعي الذي حل، ضد قرار توني بلير الخاص بإرسال قوات إلى العراق. فقد كان المكان يعج بكثيرين على شاكلة مالوك براون لديهم ماض ملوث مماثل:

«لا ينبغي أن نغفر للأمم المتحدة بسبب دورها في الحرب لمجرد أن الانتخابات الديمقراطية أجريت مؤخراً في العراق. فمن حق الأمريكيين تلقي الإجابات من شاغلي ذلك المبنى المستطيل المطل على النهر الشرقي في مدينة نيويورك».

تظهر كراسة شون حاملةً مظاهر الجدارة بالاحترام؛ فهي منشورة بدعم من كتب بنجوين، وتحمل تقريظاً بقلم رودولف جيولياني عمدة نيويورك السابق. ويفخر المؤلف بذكر صلاته برجال مثل تشارلز هيل، الدبلوماسي المتقاعد المقيم بجامعة يل ومصدر بعض عبارات شون المقتضبة الأكثر حقداً. ولكن «فضح الأمم المتحدة» هو في واقع الأمر مجرد ممارسة لاغتيال الشخصية والغل المتنكر في صورة صحافة. فلو كان إيريك شون جاداً بشأن بحث مشاكل الأمم المتحدة لشغل نفسه على نحو أكثر فائدة بالحديث مع بول كنيدي بدلاً من جيولياني عند زيارته لنيو هافين.





لحظة كسوف

أحدث كتب بول كنيدى وعنوانه «برلمان البشرية» مقدمة شاملة ويسهل فهمها لتاريخ الأمم المتحدة ومهامها ومآزقها. وهو دراسة جذابة وجادة بقلم باحث لم يغب نظره عن الحقيقة الأكبر التى تتضمنها عباراته الختامية: بالرغم من تجميعه لأحزان المنظمة. فهو يقول إن «الأمم المتحدة جلبت منافع عظيمة لجيلنا، وسوف تجلب المنافع كذلك لأجيال أبنائنا وأحفادنا. وبالعزم والسماحة المدنيين من جانبنا نحن جميعاً الذين يمكننا الإسهام بالمزيد فى عملها».

الانطباع الأول الذى يخرج به المرء من قراءته لكتاب كنيدى، وكذلك من رواية جيمس ترواب الممتازة لما وقع فى السنوات الأخيرة من فترة تولى أنان لمنصبه هو أن كبار موظفى الأمم المتحدة خدموها خدمة جيدة على نحو لا يخفى على أحد. وفى السنوات القليلة الماضية قلت جودة المناصب الكبرى فى الخدمة المدنية والمعينين فى مناصب دبلوماسية فى كثير من الدول الغربية، حيث تغرى الرواتب وفرص العمل فى القطاع الخاص الشباب والشابات بالانصراف عن الوظائف العامة؛ ومع ذلك فقد ظلت الأمم المتحدة تعتمد على موظفى الخدمة المدنية الذين هم على قدر غير عادى من الموهبة والالتزام. وكان ذلك صحيحاً فى أيامها الأولى، حين كان يديرها ساسة من قبيل داج همرشلد ورالف بانش وكانت تجتذب أصحاب النزعة المثالية كبرايان أوركهارت وكان أول ضابط بريطانى يدخل بيرجن بيلسن وهو معسكر الاعتقال الذى أقامه النازيون جنوب مدينة هامبورج الألمانية ورينيه كاسان (القاضى الفرنسى الذى وضع مسودة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان).

وما زال ذلك يصدق على وقتنا هذا. فالأمناء العامون أنفسهم معينون سياسيون من نوعيات مختلفة (لم يصنع أى من كورت فالدهايم أو بطرس بطرس غالى لنفسه مجداً)، ولكن أية حكومة يمكنها التباهى بخدمات الأخضر الإبراهيمى (رئيس مهمة الأمم المتحدة فى أفغانستان فى الفترة من أكتوبر ٢٠٠١ حتى يناير ٢٠٠٥)، أو محمد البرادعى (المدير العام لوكالة الطاقة الذرية منذ عام ١٩٩٧)، أو مارى روبنسون (المفوضة السامية لحقوق الإنسان، ١٩٩٧-٢٠٠٢)، أو لويز أربو (خليفتها وكبيرة المحققين السابقة فى المحكمة الجنائية الدولية ليوجوسلافيا السابقة ورواندا)، أو الراحل سيرجيو فييرا دى ميللو، أو جان مارى جيهينو (رئيس عمليات حفظ السلام منذ أكتوبر عام ٢٠٠٠). أو فى الواقع كوفى أنان نفسه، أكثر الأمناء العامين إثارة للإعجاب منذ داج همرشلد.

فما الذى أنجزته الأمم المتحدة؟ أول ما أنجزته الأمم المتحدة هو أنها بقيت على قيد الحياة. ففكرة الوكالة الدولية الخاصة بحل الصراعات ومعالجة المشاكل فكرة قديمة؛ حيث تعود جذورها إلى أحلام القرن الثامن عشر الكانطية الخاصة بالسلام الأبدى. وكانت التجسيدات المبكرة والجزئية. جمعية الصليب الأحمر الدولية (تأسست عام ١٨٦٤)، ومؤتمر لاهاى للسلام فى عامى ١٨٩٩ و١٩٠٧ واتفاقيات جنيف التى أدى المؤتمر إلى ظهورها؛ وعصبة الأمم نفسها. تفتقر إلى الشرعية والقدرة على التنفيذ فى عالم من الدول القومية المتحاربة. فى المقابل استفادت الأمم المتحدة من تعادل القوى خلال عقود الحرب الباردة وعصر إنهاء الاستعمار، حيث كان كل منها ساحة ومنتدى طبيعياً للجدل حول القضايا الدولية؛ وكانت تباركها منذ البداية وحتى وقت قريب مساندة الولايات المتحدة.

استفادت الأمم المتحدة كذلك، إن صح التعبير، من الزيادة المطردة فى حجم المسئوليات الدولية التى لم يرغب سواها فى تحملها. أو كما يقول كنيدى «كانوا يلقون بالأطفال اللقطاء على باب الأمم المتحدة فى وسط الليل»: من الكونغو فى عام ١٩٦٠ مروراً بالصومال وكمبوديا ورواندا والبوسنة فى التسعينيات وصولاً إلى سيراليون وإثيوبيا-إريتريا، والكونغو (مرة ثانية) فى الوقت الراهن. وقد فشل الكثير من تلك المهام، وتكلفت جميعها الكثير من المال. ولكنها تذكارات حية للسبب الذى وراء ضرورة وجود منظمة دولية من نوع ما. وهى تمثل أكثر مشروعات الأمم المتحدة وضوحاً فحسب.

نظراً لوجود أكثر من أمم متحدة فى واقع الأمر، فإن فروعها السياسية والعسكرية (الجمعية العامة، ومجلس الأمن، وعمليات حفظ السلام) هى وحدها الأكثر شهرة. وهذه بعض الفروع الأخرى فحسب: اليونيسكو (منظمة التعليم والعلوم والثقافة التى تأسست فى عام ١٩٤٥)، واليونيسيف (صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة، ١٩٤٦)، ومنظمة الصحة العالمية (١٩٤٨)، والأونروا (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، ١٩٤٩)، والمفوضية السامية للاجئين (١٩٥٠)، والأونكتاد (مؤتمر التجارة والتنمية، ١٩٦٣)، والمحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوجوسلافيا السابقة (١٩٩٣). ولا تشمل هذه الوحدات المتعدية للقوميات البرامج البيحكومية التى تُدار تحت رعاية الأمم المتحدة، كما أنها لا تغطى الكثير من الوكالات الميدانية التى أُنشئت لمعالجة أزمات بعينها. والنجوماب (وهى مهمة المساعى الحميدة فى أفغانستان وباكستان التى أشرفت بنجاح على الانسحاب السوفيتى من هناك؛ والأونامسيل (مهمة سيراليون، ١٩٩٩)؛ والأونميك (مهمة كوسوفو، ١٩٩٩)؛ والكثير من المهام السابقة واللاحقة لها.

جزء كبير من العمل الذى تؤديه تلك الوحدات عمل روتينى. والمهام «اللينة» التى تقوم بها الأمم المتحدة. معالجة مشكلات الصحة والبيئة ومساعدة النساء والأطفال الذين يعانون من أزمات، وتثقيف المزارعين، وتدريب المعلمين، وتوفير القروض الصغيرة، ومراقبة انتهاك الحقوق. تؤديها فى بعض الأحيان على نفس القدر من الجودة الوكالات القومية أو غير الحكومية؛ وإن كان ذلك لا يجرى إلا بتحريض من الأمم المتحدة وفى أعقاب مبادرة برعاية من المنظمة الدولية. غير أنه فى عالم تفقد فيه الدول المبادرة لصالحة الكيانات الفاعلة من غير الدول كالاتحاد الأوروبى والشركات متعددة الجنسيات، هناك أشياء كثيرة لن تحدث بالمرة ما لم تقم بها الأمم المتحدة أو ممثلوها. اتفاقية حقوق الطفل التى ترعاها اليونيسيف فى هذه الحالة. وبينما تكلف هذه المنظمات المال، ينبغى أن نتذكر أن ميزانية اليونسيف، على سبيل المثال، أقل كثيراً من ميزانية العديد من الشركات الدولية.

وتعمل الأمم المتحدة كأحسن ما يكون عندما يعترف الجميع بمشروعية دورها. فعند مراقبة الانتخابات أو الهدنة أو الإشراف عليها، على سبيل المثال، غالباً ما تكون الأمم المتحدة المحاور الخارجى الوحيد الذى تعترف الأطراف المتصارعة جميعها بنواياه الحسنة وسلطته الشرعية. وحيثما لا يكون الحال كذلك. كما فى سريبرنتسا فى عام ١٩٩٥، على سبيل المثال. تكون النتيجة مفجعة؛ حيث لا يمكن لقوات الأمم المتحدة استخدام السلاح للدفاع عن نفسها ولا تستطيع التدخل لحماية الآخرين. وبذلك فإن شهرة الأمم المتحدة فيما يتعلق بالنزاهة وحسن النية هى أهم أصولها طويلة المدى. وبدونها تصبح المنظمة مجرد أداة أخرى من أدوات دولة أو أكثر من الدول القوية. وكانت ستثير الاستياء على ذلك النحو. وهكذا فقد حال رفض مجلس الأمن فى عام ٢٠٠٣ التصريح بالحرب المفجعة على العراق الأمم المتحدة دون فقدان الثقة المحتمل فى المنظمة الدولية بشكل نهائى فى أعين جزء كبير من سائر العالم.

من السهل حصر المشاكل العملية التى تواجهها الأمم المتحدة فى تحقيق التوقعات المنتظرة. فكل شىء تفعله يكلف مالاً، ولا يكون لدى الأمم المتحدة مال إلا عندما تقدمه الدول الأعضاء. ولا بد أن نتذكر أن الأمين العام وهيئة العاملين معه لا ينشدون إلا رغبات الأعضاء فحسب. وليس لدى الأمم المتحدة جيش أو قوات شرطة خاصة بها. وفى الماضى كانت هولندا واسكندنافيا وكندا («الشمال المهموم»)، إلى جانب حفنة من الدول الأخرى مثل بولندا وإيطاليا والبرازيل والهند، تمد الأمم المتحدة بالجنود المدربين والمجهزين لتحقيق أغراضها. أما فى الوقت الراهن

منذ حكم ماكارثى على الأمم المتحدة بأنها عميل للنفوذ الشيوعى وهناك من المعلقين الأمريكيين من يجد سعادة شديدة فى تلطيخ سمعة هذه المؤسسة

لحظة كسوف

فإن القوة العسكرية التابعة للأمم المتحدة توفرها على الأرجح دول فقيرة من إفريقيا أو آسيا بحاجة إلى أموال الأمم المتحدة، غير أن جنودها يفتقرون إلى الخبرة والنظام ودائماً لا يحسب لهم حساب على نحو جيد من جانب هؤلاء الذين أتوا لحفظ سلامهم. وبطبيعة الحال لا بد من جمع قوة عسكرية جديدة لكل أزمة.

ومن الواضح أنه إذا كان لا بد للأمم المتحدة من ممارسة «مسئولية الحماية» الطارئة الخاصة بها، التى لم تكن جزءاً من تصميمها الأصلى، فهى بحاجة إلى جيش خاص بها (وهو ما اقترحه برايان أوركهارت وآخرون). وتبعاً لما عليه الحال فى الوقت الراهن، حتى عندما يوافق مجلس الأمن على السماح بمهمة عسكرية: لا بد للأمين العام من بدء جولة لا تنتهى من المفاوضات والتزلف من أجل الحصول المال والجنود وقوات الشرطة والمرضات والسلاح والشاحنات والإمدادات. فبدون هذه المساعدة الإضافية تصبح المنظمة لا حول لها ولا قوة. وقد حدث فى عام ١٩٩٣ أن تعدت مصاريف حفظ السلام وحدها ميزانية الأمم المتحدة السنوية بالكامل بنسبة تزيد على ٢٠٠ بالمائة، ولذلك فسوف تظل تدخلات الدولة الواحدة (الفرنسيون فى كوت ديفوار أو تشاد، والبريطانيون فى سيراليون)، أو التحالف البديل للأمم المتحدة، كهجوم الناتو على صربيا فى عام ١٩٩٩، الحلول الأسرع والأكثر فاعلية فى الأزمات من الأمم المتحدة.

مجلس الأمن، وهو اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة، هو نفسه إحدى المشاكل التى تستعصى على الحل. فمعظم الدول الأعضاء تتناوب على عضويته، ولكن هناك خمسة أعضاء دائمون لم يتغيروا منذ عام ١٩٤٥. والوضع الخاص للولايات المتحدة والصين وروسيا (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سابقاً) يثير الاستياء ولكنه ليس موضع شك فى واقع الأمر. غير أن دولاً كثيرة تعبر فى الوقت الراهن عن ضيقها من المزايا التى لا تزال بريطانيا العظمى وفرنسا تتمتعان بها. فلم لا تكون ألمانيا بدلاً منهما؟ أو لم لا يكون هناك مجرد مقعد «أوروبى» تتناوب عليه الدول؟ ألا ينبغى أن يكون هناك عضو جديد واحد على الأقل، على سبيل المثال البرازيل أو الهند أو نيجيريا، مما يعكس التغيرات التى طرأت على العالم منذ عام ١٩٤٥؟ لقد اكتسب الفرنسيون لأنفسهم مهلة مؤقتة بفضل موقفهم الذى يحظى بشعبية على المستوى الدولى ضد الحرب العراقية، ولكن هذه الشكاوى لن تختفى

ولأن الاتفاق على إصلاح مجلس الأمن أمر يصعب التوصل إليه، فلا أحد يريد التخلى عن حق النقض (الفيتو)، كما أن إضافة أعضاء جدد يتمتعون بحق النقض سوف يجعل الأمور أشد سوءاً. فإن هناك بعض المشاكل المتوطنة. فما دامت الصين (وأحياناً روسيا) تختار حماية حقوق «السيادة» الخاصة بالأنظمة المثيرة للجدل كالسودان الذى تقوم بينها وبينه أعمال تجارية، فسوف تعجز الولايات المتحدة عن التدخل لمنع أعمال الإبادة الجماعية فى دارفور. وما دامت الولايات المتحدة تمارس حق النقض على قرارات مجلس الأمن التى فيها إحراج لإسرائيل، فسوف تكون الأمم المتحدة عاجزة فى الشرق الأوسط. بل إنه عندما يصوت مجلس الأمن بالإجماع .كما فعل فى شهر أغسطس الماضى فى دعوته إلى وقف إطلاق النار فى لبنان. فإن رفض عضو قوى واحد (هو الولايات المتحدة فى هذه الحالة) لإجبار الدولة التابعة له على الإذعان للقرار يكفى لإضعاف إرادة المجتمع الدولى كله.

سوف يرد منتقدون كثيرون بأن ذلك مرجعه إلى أنه ليس هناك مجتمع دولى، فآليات مجلس الأمن والجمعية العامة (برلمان الأمم المتحدة)، حسبما يقول جيمس تراوب المتعاطف بصفة عامة، «مشلولة». ذلك أن ممثلى دول العالم يأتون إلى نيويورك كى يعلنوا ويعرضوا، ولكنهم لا يشكلون «مجتمعاً» ذا مصالح وأهداف مشتركة! وحتى إذا شكلوا ذلك «المجتمع» فإن الأمم المتحدة ستكون عاجزة عن تحقيق تلك المصالح والأهداف المشتركة. ومن ثم تتزايد الدعوة إلى «الإصلاح». ولكن ما الذى يعنيه ذلك؟ إن ما يعنيه هو أن الأمم المتحدة بحاجة إلى أشياء كثيرة. فلا بد لها من امتلاك قدرات خاصة بها لتجميع المعلومات الاستخباراتية، إذ من المؤكد أنه من الأفضل لها توقع حدوث

الأزمات وتحليلها. ولا بد أن تصبح أكثر كفاءة فى اتخاذ القرارات وتنفيذها، ويمكنها الحد من لجانها وبرامجها المتداخلة، وترشيد لوائحها وتشريعاتها ومؤتمراتها وإنفاقها. ولا بد أن تكون أكثر وعيا مما هى عليه حتى الآن بالعجز والفساد. وكما اعترف كوفى أنان نفسه، فإن إدارة الأمم المتحدة «مشكلة... بحاجة إلى إصلاح».

ولكن إصلاح ممارسات الأمم المتحدة سوف يعنى إصلاح سلوك الدول الأعضاء فيها. فالكل ابتداء من الولايات المتحدة حتى أصغر دويلة فى إفريقيا جنوب الصحراء لها أجندتها ومصلحتها الثابتة، وقليل من الأعضاء من سيضحى بما له من مزايا من أجل الأهداف للمجتمع بعمومه. وهكذا فإن التأكيد الدائم على «التوزيع الجغرافى العادل» (وليس القدرة) عند تحديد عضوية اللجان أمر له مزاياه: فهو يساعد على حماية الدول الصغيرة الهامشية من استبعاد الدول الغنية وتحالفات القوى لها. ولكنه أفرز كذلك لجنة حقوق إنسان تضم السودان باعتباره عضواً من حقه التصويت، وأتى بإعلان اليونيسكو الشهير فى عام ١٩٧٨ الداعى إلى فرض قيود على حرية الصحافة. وحذر كوفى أنان نفسه مؤخراً من أن مجلس حقوق الإنسان (الذى يضم حالياً من بين أعضائه أذربيجان وكوبا والمملكة العربية السعودية) سوف يشوه سمعته على الفور إن هو ركز بشكل كبير على انتهاكات إسرائيل للحقوق بينما يتجاهل «الانتهاكات الخطيرة التى تقوم بها دول أخرى كذلك»، ولكن العقبات تظل قائمة.

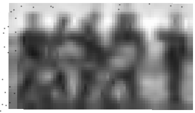
من المحزن أن كبرى العقبات جميعاً هى الدولة الأقوى فى الأمم المتحدة

تعمل الأمم المتحدة كأحسن ما يكون
عندما يعترف الجميع بمشروعية دورها.
فعند مراقبة الانتخابات أو الهدنة أو الإشراف
عليها، غالباً ما تكون هى المحاور الخارجى
الوحيد الذى تقدره جميع الأطراف

والممول الرئيسى لها، أى الولايات المتحدة. وكان هناك اهتمام كبير فى السنة الماضية بالشخصية غير المتعاطفة على نحو كبير للمندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة جون بولتون الذى تخلى الرئيس بوش على مضض عن محاولة تجديد تعيينه المؤقت، وكان بولتون عقبة كبيرة فى سبيل عمل الأمم المتحدة بسهولة ويسر على مستويات عدة. وكما يوضح جيمس تراوب، فإن الجهود المخلصة من أجل الإصلاح المؤسسى والإجرائى على امتداد العامين الماضيين كان يقضى عليها بولتون والفريق الذى يعمل معه، حيث كان يطالب بإصلاح إدارى ضخم، فى حين أنه كان يحول دون التوصل إلى أية تسويات قد تحقق ذلك بالفعل.

الواقع أن بولتون كون تحالفاً فعلياً مع زيمبابوى وروسيا البيضاء وغيرهما من الدول التى لها أسبابها الخاصة لبقاء الأمم المتحدة غير فعالة وبعيدة عن شئونها الداخلية. ولأن الولايات المتحدة رفضت التنازل قيد أنملة فى المفاوضات الأخيرة بشأن إصلاح مجلس حقوق الإنسان، أو إنشاء لجان بناء السلام، أو النظام الدولى الجديد لنزع السلاح، فلم تجد الدول التى كان من الممكن أن تتراجع عن موقفها لولا ذلك (إيران وباكستان على وجه الخصوص) أية غضاضة فى رفض القيود الأشد صرامة على انتشار الأسلحة النووية. على سبيل المثال. أما الدول الأعضاء (الأوروبية فى الغالب) التى كانت تبحث عن سبل لمبادلة السيادة القومية بنظام قانونى دولى أكثر فاعلية أو مجموعة من القواعد القابلة للتطبيق الخاصة بالعمل الجماعى فقد وجدت نفسها ضمن أقلية دائمة.

لم يعارض بولتون الإصلاح الفعال للأمم المتحدة فحسب، بل انتهز كل فرصة لازدراء المؤسسة نفسها، حيث وصفها مراراً بأنها «عاجزة» و«لا تتناسب مع مقتضى الحال». وقد وضع بذلك بلده ضمن صحبة غريبة بلا شك. فبعد أن صوتت الولايات المتحدة فى ديسمبر من عام ٢٠٠٦ على قرار مجلس الأمم الذى يدين إسرائيل لقتلها تسعة عشر مدنياً فلسطينياً فى بيت حانون، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة (حيث لا وجود فيها لحق النقض) على نص يعبر عن «الأسف» على تلك الوفيات. ولكن الولايات المتحدة عارضت حتى تلك الخطوة، حيث انضم إليها فى ذلك حلفاؤها المعتادون. إسرائيل وبالاو وجزر مارشال، وأستراليا فى تلك المرة. وفى وقت حق من ذلك العام، عندما وصلت فى آخر



لحظة كسوف

المطاف المقترحات الخاصة بإصلاح مجلس حقوق الإنسان إلى قاعة الجمعية العامة، صوتت ١٨٨ دولة لصلحة تنفيذها. وكانت هناك أربعة أصوات ضدها، وهى إسرائيل وجزر مارشال والولايات المتحدة، وروسيا البيضاء.

ربما كان أسلوب بولتون الشخصى مميزاً، ولكن تصويته كان يجرى نيابة عن رؤسائه فى واشنطن. وقد سرت لبعض الوقت شائعة تقول إن كره بولتون الشديد للأمم المتحدة لا يمثل فى واقع الأمر الرأى الأمريكى الرسمى؛ فكوندوليزا رايس «ركنت» بولتون على شاطئ النهر الشرقى بنيويورك لمنعه من إحداث دمار فى واشنطن. ولكن حتى إذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يبين فحسب أن وزيرة الخارجية الأمريكية وزملاءها أقل احتراماً للأمم المتحدة مما كان يفترض من قبل؛ ذلك أن تعيين بولتون فيها فُسر على نطاق واسع باعتباره تعبيراً ينم عن الاحتقار.

والواقع أن بولتون لم يكن المشكلة ذاتها، بل كان أحد أعراضها فحسب. ذلك أن «السلوك العدائى الاستباقى» التى اتسم به، ووصفه للأمم المتحدة بأنها «منطقة الغسق»، وعادته الخاصة بتسمية المعاهدات «الالتزامات السياسية» بدلاً من الالتزامات القانونية، على سبيل المثال، قد لا تبدو سوى استفزازات خطابية يتفوه بها بلطجى محترف؛ ولكن الواقع أنها تعكس تغيراً مزلزلاً فى علاقات أمريكا مع سائر العالم. إذ كان الرؤساء الأمريكيون منذ ترومان حتى كلينتون يقدرون بصورة عامة أن بإمكان الولايات المتحدة الحصول على الكثير جداً من الأمم المتحدة. الدعم السياسى، والإذعان الدولى، والتغطية القانونية. مقابل ذلك القدر اليسير الذى تتحمله من الأموال والحلول الوسط. أما اليوم فنحن نعارض أدنى حد من التنازل. وهذا أمر مستجد. وإذا ما عدنا إلى الحرب الباردة سنجد أن خروشوف دق بحذائه على طاولة الأمم المتحدة؛ فقد كانت موسكو هى التى تفرض القيود على كل مبادرة من مبادرات الأمم المتحدة وتعارض بشدة أية قيود على «الحقوق» السيادية الخاصة بها. أما الآن فواشنطن هى التى تقوم بهذا الدور. وهو مؤشر دال ليس على القوة وإنما (كما فى الحالة السوفيتية) على الضعف.

إن دولة مشاكسة مثل الولايات المتحدة تتوقع من الأمم المتحدة إزالة آثار ما أحدثته وعمل المعجزات الدولية بصورة عامة ولكنها تعارض بشدة تزويدها بالوسائل التى تمكنها من ذلك وتعقد النية على تقويض مصداقيتها فى كل منحى من المناحى، لهى عقبة كأداء ومصدر أساسى لكل العيوب التى يستهجنها المعلقون الأمريكيون فى الوقت الراهن. وفضائح الأمم المتحدة التى فاحت رائحتها فى الماضى القريب، وبالأخص فضيحة «النفط مقابل الغذاء»، تافهة ولا أهمية لها؛ فمن المؤكد أنها أحدثت ضرراً أقل (وحققت قدراً أقل بكثير من المكاسب الخفية) من أى عدد فضائح الشركات الكبرى فى الولايات المتحدة وأستراليا وأماكن أخرى؛ ناهيك عما لم يتم حسابه بعد من فساد وسرقة نشأت عن حرب العراق وما أعقبها. أما الفضائح الكبرى، معالجة الأمم المتحدة الرعناء لمأساة البوسنة، وعجزها فى رواندا، وعدم اتخاذها أى إجراء بشأن دارفور، فيمكن إرجاعها جميعاً على نحو مباشر إلى التردد (أو ما هو أسوأ من ذلك) الذى تتسم به الدول الكبرى، ومنها الولايات المتحدة.

فهل مصير الأمم المتحدة هو الفشل، لتلقى بالتالى مصير عصبة الأمم المتحدة التى أساءوا إليها بدون وجه حق؟ ربما لا يكون الأمر كذلك. غير أن مصير عصبة الأمم يذكرنا بتردد الولايات المتحدة المستمر فى استيعاب دروس المائة سنة الأخيرة من التاريخ. وعلى أية حال، فإن القرن العشرين مضى فى مصلحة الولايات المتحدة إلى حد كبير. وعادة افتراض أن ما نجح فى الماضى سوف يستمر نجاحه فى المستقبل عادة مغروسة بعمق فى التفكير الأمريكى. وفى المقابل فليس من قبيل المصادفة أن حلفاءنا الأوروبيين، الذين كان القرن العشرون بالنسبة لهم فاجعة أحدثت فى نفوسهم صدمة مروعة، مجبولون على قبول أن التعاون، وليس الصراع، هو الظرف الضرورى للبقاء، حتى ولو كان ذلك على حساب بعض من استقلال السيادة الرسمى. فقد فاقت الخسائر العسكرية البريطانية فى معركة باشنديل التى وقعت فى عام ١٩١٧ وحدها خسائر الولايات المتحدة فى الحربين العالميتين الأولى والثانية معاً، وخسر الجيش الفرنسى فى قتال استمر ستة أسابيع فحسب فى عام ١٩٤٠ ضعف ما خسرته الولايات المتحدة فى فيتنام من القتلى. وفقدت بولندا وألمانيا وروسيا كلها عدداً من الجنود والمدنيين فى الحرب العالمية الأولى، ثم مرة ثانية فى الحرب العالمية الثانية يزيد على ما خسرته الولايات المتحدة فى كل حروبها الخارجية مجتمعة (فى حالة روسيا كان العدد عشرة أضعاف فى كل من الحربين). ومثل هذه التناقضات هى التى تجعل طريقتكم فى رؤية العالم مختلفة إلى حد كبير.

وهكذا فإننا الآن فقط يمكن أن نلمح دبلوماسياً أمريكياً وهو يقول، أو حتى يظن، أن «العالم مكان يتسم بالفوضى ولا بد لشخص ما من تنظيفه»، كما قالت السيدة رايس. أما الإجماع الدولى الأوسع فهو يرى على وجه الدقة أنه بما أن «العالم مكان يتسم بالفوضى»، وبفضل التجارب المرعبة مع من عينوا أنفسهم «منظفين»، فكلما كان ما تنشره من شبكات الأمان أكثر ومن المكانس الجديدة أقل، كانت فرص البقاء أفضل. وكانت تلك فى يوم من الأيام كذلك رؤية النخبة الدبلوماسية الأمريكية. جيل جورج كينان ودين آتشسون وتشارلز بولن[*]، التى كانت على معرفة بالواقع الدولى والرؤى الأجنبية على نحو يفوق ما يعرفه الرجال والنساء الذين يديرون السياسة الخارجية فى الوقت الراهن.

لقد فهم أنان ومعاصروه أمراً فات على من خلفوهم. ففى عالم ترى فيه معظم الدول والشعوب، أغلب الوقت، فائدة فى الامتثال للقوانين والاتفاقيات الدولية، فإن من يحتقرون القوانين أو ينتهكونها قد تكون لهم ميزة عابرة، حيث يفعلون ما لا يفعله غيرهم. ولكنهم يعانون من خسارة بعيدة المدى؛ فهم يصبحون منبوذين أو، كما فى حالة الولايات المتحدة، مكروهين بشدة ولا يثق فيهم أحد حتى ولو كان وجودهم أمراً لا يمكن تحاشيه. وبذلك يتلاشى نفوذهم، سواء داخل المؤسسات الدولية التى يؤثرون فيها أو يتجاهلونها أو خارج تلك المؤسسات، مما لا يبقى لهم شيئاً سوى القوة التى يقنعون بها منتقديهم.

إذا كان لا بد من إعادة الولايات المتحدة إلى رشدها. وإذا كان لا بد من استعادة الولايات المتحدة لقيادة المجتمع العالمى التى فقدتها، كما قال كوفى أنان فى كلمة الوداع التى ألقاها فى مكتبة ترومان بإندبندانس بولاية ميزورى، فحينئذ لا بد لها من البدء بالاعتراف، حسب كلمات أيزنهاور، بأنه «رغم كل العيوب، ورغم كل مرات الفشل التى يمكننا تسجيلها ضدها، لا تزال الأمم المتحدة تمثل أفضل أمل منظم للبشر فى الاستعاضة عن ميدان المعركة بطاولة المؤتمرات». ففى أوروبا، لم يتأصل هذا الإدراك إلا بعد أن أمضى الأوروبيون ثلاثين سنة فى تعذيب وقتل عشرات الملايين من الأوروبيين الآخرين؛ أما عندما كانوا يعذبون «السكان الأصليين» فى المستعمرات فحسب ويقتلونهم فلم تكن المواقف تتغير كثيراً.

هنا فى الولايات المتحدة، أثناء كتابة هذا الكلام، ترك مقتل أكثر من ثلاثة آلاف جندى أمريكى فى العراق أثره على الجمهور؛ ولكن قتل مئات الآلاف من العراقيين لم يترك أى أثر بالمرة. والواقع أن أحدث قول مبتذل لحفظ ماء الوجه فى واشنطن هو أن ذنب الكارثة التى استشرت فى العراق يقع على العراقيين أنفسهم؛ فنحن فعلنا ما فى وسعنا ولكنهم خذلونا. وبينما تستمر الولايات المتحدة (بموافقة الكونجرس التامة) فى «تسليم» المشتبه فيهم فى «الحرب ضد الإرهاب» وتعذيبهم، فمن غير المرجح أن نغير آراءنا بشأن قيم المحكمة الدولية أو سيادة القانون الدولى.

إذا أخذنا هذا كله فى الاعتبار، فحينئذ يبدو من غير المرجح أن تغير حتى هزيمة حرب العراق المهينة آراء الكثير من الأمريكيين بشأن مزايا التعاون الدولى. ولكن شيئاً آخر هو وحده الذى قد يغير آراءهم. ذلك أن هناك تجربة دولية مشتركة خاصة بالقرن الحادى والعشرين لا يمكن للمواطنين والساسة الأمريكيين تحاشى مشاركة سائر الأرض فيها، مهما قل ما يعرفونه عن العالم الخارجى، ومهما كانت آراؤهم المتراكمة والمتحيزة بشأنه. وخلال فترة حياة الكثيرين من قراء هذا المقال، سوف ينحدر العالم على نحو أسرع من أى وقت مضى إلى كارثة بيئية.

وليس من قبيل المصادفة أن الدولتين المسئولتين أكثر من غيرهما عن هذا الاحتمال، وهما الصين والولايات المتحدة، هما كذلك عضوا مجلس الأمن الأقل استجابة للعمل الجماعى بصورة عامة؛ كما أنه ليس من المستغرب أن الرجل الذى اختاراه ليخلف كوفى أنان أميناً عاماً للأمم المتحدة هو بان كى مون الكورى الجنوبى، وهو حتى الآن ليس شخصاً معروفاً بالأجندات الملحة التى يصعب تحقيقها أو يتكلم كلاماً لا يتناسب مع المقام. ولم تكن تصريحاته الأولى، وخاصة الكلام الملتبس الذى قاله بشأن لياقة إعدام صدام حسين، تبعث على الاطمئنان، ولكننا فى العقود المقبلة سوف نواجه كوارث «طبيعية»، وجفافاً، ومجاعات، وفيضانات، وحروباً على الموارد، وتنقلات للسكان، وأزمات اقتصادية، وأوبئة إقليمية على نطاق لم نعهده من قبل.

لن يكون لدى الدول منفردة الوسيلة ولا السلطة الفعلية، بسبب العولمة، كى تحد من الضرر أو تعوض الخسائر. وسوف تكون الجهات الفاعلة ما دون

الدول، كالصليب الأحمر وأطباء بلا حدود، الأفضل قدرة على تقديم الإسعافات الأولية. ولن يكون «العمل مع الآخرين»، التعويذة التى ستظهر بعد بوش، كافياً على الإطلاق؛ فسوف تكون تحالفات الراغبين (أو الخاضعين) لا حول لها ولا قوة. وسوف تضطر إلى الاعتراف بسلطة وتوجيه هؤلاء الذين يعرفون ما يجب عمله. باختصار: سيكون علينا العمل من خلال الآخرين: بالمشاركة، وبالتعاون، وبدون اعتبار كبير للمصالح أو الحدود القومية المنفصلة التى سوف تفقد فى أى الأحوال الكثير من معناها. ويقول پول كنيدى إنه بفضل الأمم المتحدة ووكالاتها العديدة، كمنظمة الصحة العالمية، قد تمكنا بالفعل من «خلق آليات دولية للتقييم والرد والتنسيق من أجل الوقت الذى تتلاشى فيه الدول أو تنهار». وسوف يكون علينا تعلم تطبيق ذلك على الظروف التى لا تكون فيها الدول هى من يواجه الانهيار أو الفشل وإنما المجتمعات بكاملها؛ وحينما لا يكون للأمريكيين حتى الخيار المطمئن الخاص بمحاربتهم «هنالك» كى لا يُضطروا لمحاربتهم «هنا».

الولايات المتحدة، «الفريدة التى لا يمكن استبدالها»، هى كل ما حققناه بواسطة القدرة الجماعية على التعامل مع تلك الأزمة عندما وعيناها أخيراً. ولو لم تكن لدينا مثل هذه المنظمة لكان من المحتمل ألا نعرف كيف نخترعها فى الوقت الراهن. ولكنها موجودة لدينا وفى السنوات المقبلة سوف نعتبر أنفسنا محظوظين بوراثتنا قرارات مؤسسيها، إن لم يكن تفاؤلهم. وبذلك يكون الخبر السار هو أنه على المدى البعيد سوف تقدم الحجة على ضرورة وجود الأمم المتحدة. فالواقع أنه سوف يتضح إذا اضطر مقر الأمم المتحدة لمغادرة ضفة النهر الشرقى فى مانهاتن (الأمر الذى سيريح إيريك شون وأصدقاءه كثيراً)، حيث سترتفع المياه المحيطة بمدينة نيويورك على نحو لا سبيل لمنعه. أما الخبر السيئ فهو بالطبع أننا جميعاً على المدى البعيد سنكون قد متنا. ■

• جورج كينان مخطط سياسات الخارجية الأمريكية فى الأربعينيات وهو الذى وضع سياسة الاحتواء. ودين اتشسون وزير الخارجية فى عهد الرئيس هارى ترومان. وتشارلز بوهلن ساعد فى صياغة السياسة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة وكان مستشاراً لجميع الرؤساء الأمريكيين فى الفترة من ١٩٤٣ حتى ١٩٦٨. (المترجم)

كوفى أنان

نصيحتى للإسرائيليين والفلسطينيين*

■■ أحد أكثر جوانب الصراع الإسرائيلى الفلسطينى إحباطاً هو ذلك العجز الواضح الذى يتسم به أشخاص كثيرون على الجانبين عن فهم موقف الطرف الآخر، وعدم استعداد البعض ولو لمحاولة الفهم. وبصفتى صديقاً ومعيناً للجانبين، أود توجيه رسائل صريحة لكل منهما.

إنه أمر صحيح ومفهوم تماماً أن تسعى إسرائيل ومؤيدوها إلى ضمان أمنها وإقناع الفلسطينيين، والعرب والمسلمين على نطاق أوسع، بتغيير موقفهم وسلوكهم تجاه إسرائيل، إلا أنه من غير المرجح أن ينجحوا فى مسعاهم لو لم يدركوا هم ويعترفوا بالشكوى الأساسية التى يشكوها الفلسطينيون، وهى أن إقامة دولة إسرائيل انطوى على نزع ملكية مئات الآلاف من العائلات الفلسطينية وتحويلهم إلى لاجئين، وأعقب ذلك بعد تسع عشرة سنة أخرى احتلال عسكرى وضع مئات الآلاف من الفلسطينيين الآخرين تحت الحكم الإسرائيلى.

من حق إسرائيل أن تتباهى بديمقراطيتها، وبجهودها لبناء مجتمع يقوم على احترام حكم القانون. غير أن ديمقراطية إسرائيل لا يمكن أن تربو وتزدهر إلا إذا انتهى احتلالها للشعوب الأخرى. وقد اعترف رئيس الوزراء السابق أرييل شارون بذلك. وقد مرت إسرائيل بتحول ثقافى كبير منذ أيام أوسلو. فكل الأحزاب السياسية الإسرائيلية الكبيرة تقر بضرورة إنهاء إسرائيل للاحتلال، من أجل ذلك فى حد ذاته ومن أجل مصلحة أمنها القومى.

ومع ذلك فما زال الآلاف من الإسرائيليين يقيمون فى الأراضى التى احتلت فى عام ١٩٦٧، ويضاف إليهم ألف أو أكثر آخرون كل شهر. وبينما يرى الفلسطينيون هذا النشاط، فإنهم يرون كذلك الجدار العازل يبنى فى أراضيهم مما يعد انتهاكاً للرأى الاستشارى لمحكمة العدل الدولية، ويرون كذلك أكثر من خمسة آلاف معبر للتحكم فى تحركاتهم، إلى جانب الوجود المكثف لقوات جيش الدفاع الإسرائيلى. ويأسهم من الاحتلال يزداد فحسب، كما يزداد عزمهم على مقاومة ذلك الاحتلال. ونتيجة لذلك



يميل البعض إلى استثمار جزء كبير من ثقتهم فى هؤلاء الذين يتبعون الكفاح المسلح وليس عملية السلام التى لا يبدو أنها ستحقق هدف الدولة المستقلة المنشود.

أتفق مع إسرائيل ومؤيديها على أن هناك فرقاً - أخلاقياً وقانونياً كذلك - بين الإرهابيين الذى يتعمدون استهداف المدنيين، والجنود النظاميين الذين يجرحون المدنيين أو يقتلونهم دون قصد أثناء العمليات العسكرية، بالرغم من جهود تحاشى وقوع مثل تلك الخسائر. ولكن كلما زاد عدد القتلى والجرحى من المدنيين أثناء تلك العمليات، وكلما كانت الاحتياطات التى تتخذ لتحاشى تلك الخسائر على نحو أكبر من الروتينية كان تلاشى هذا الفرق أكبر. ذلك أن استخدام القوة العسكرية فى المناطق ذات الكثافة المدنية أداة صريحة لا ينتج عنها سوى المزيد من الموت والدمار والتفرقة والانتقام. وكما رأينا فإنه لا يفيد كثيراً فى تحقيق الهدف المنشود الخاص بوقف الهجمات الإرهابية. وقد يرد الإسرائيليون على ذلك بأنهم يحمون أنفسهم فحسب من الإرهاب، وهو الأمر الذى لهم الحق كل الحق فى القيام به. ولكن هذه الحجة تصبح أقل قوة حين يصبح الاحتلال فى الضفة الغربية أشد وطأة ويستمر التوسع الاستيطانى. وسوف تلقى إسرائيل قدراً أكبر من الفهم إذا كانت أفعالها مصممة على نحو يساعد على إنهاء الاحتلال وليس تكريسه.

سوف نعمل جميعاً من أجل تجاوز الوضع القائم التعيس وبلوغ إنهاء يتم التفاوض عليه للاحتلال يقوم على مبدأ الأرض مقابل السلام...

إن تأييد الشعب الفلسطينى الذى عانى كثيراً أمر صائب ومفهوم تماماً. غير أن الفلسطينيين ومؤيديهم لن يكونوا فاعلين بحق إن هم ركزوا فقط على التعديات الإسرائيلية، دون الاعتراف بأى حق أو مشروعية لهموم إسرائيل نفسها، ودون أن يكون لديهم الاستعداد للإقرار بأن خصوم إسرائيل أنفسهم ارتكبوا جرائم مخيفة وغير مبررة. فليست هناك مقاومة للاحتلال تبرر الإرهاب. ولا بد أن نكون موحدين فى رفضنا الذى لا لبس فيه للإرهاب كأداة من الأدوات السياسية...

وربما يشعر البعض بالرضا من موافقة الجمعية العامة المتكررة على قرارات أو عقد مؤتمرات تدين سلوك إسرائيل. إلا أنه ينبغى التساؤل عما إذا كانت تلك الخطوات تأتى للفلسطينيين بأى نوع من الارتياح أو الفائدة الملموسة. فقد مرت عقود من القرارات. وكان هناك نشر للجان الخاصة والجلسات وأقسام الأمانة العامة ووحداتها. فهل كان لأى من هذا كله أى أثر على سياسات إسرائيل سوى تقوية الاعتقاد داخل إسرائيل، وبين الكثير من مؤيديها، بأن هذه المنظمة الكبيرة على قدر من التحيز لا يسمح لها بالقيام بدور مهم فى عملية السلام فى الشرق الأوسط؟

بل إن الأمر الأسوأ هو أن بعضاً من الخطاب المستخدم فيما يتصل بالقضية يوحى برفض الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل نفسه. ناهيك عن مشروعية مخاوفها الخاصة بالأمن. ويجب ألا ننسى أن اليهود لديهم من الأسباب التاريخية الوجيهة ما يجعلهم يأخذون أى تهديد لوجود إسرائيل مأخذ الجد. فما فعله النازيون لليهود وغيرهم يظل مأساة فريدة فى تاريخ البشرية لا سبيل إلى إنكارها. واليوم كثيراً ما يواجه الإسرائيليون بكلمات وأفعال يبدو أنها تؤكد خوفهم من أن هدف خصومهم هو القضاء على وجودهم كدولة، وكذلك كشعب.

ولذلك فإنه ينبغى على من يريدون أن يستمع إلى ما يقولونه بشأن فلسطين ألا ينكروا ذلك التاريخ أو يقللوا من شأنه. أو ينكروا أو يقللوا من شأن تلك الصلة التى يشعر بها يهود كثيرون نحو وطنهم التاريخى. بل إنه ينبغى عليهم الاعتراف بهموم إسرائيل الأمنية، ويوضحون أن انتقادهم لا يقوم على الكراهية أو التعصب، بل على رغبة فى العدل، وتقرير المصير، والتعايش السلمى. ■

* الخطاب الأخير لكوفى أنان عن الشرق الأوسط أمام مجلس الأمن

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



الفتاة الروسية زويا كوزموديميانسكايا لحظة إعدامها على يدى النازى فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤١ فى قرية قريبة من موسكو، وقد تحولت إلى رمز للمقاومة السوفيتية وأصبحت أسطورة فى أعين الدعاية السوفيتية. (صورة من وكالة الأنباء الفرنسية).

من المحرقة إلى شوارع بيروت

ربـَّات القصاص!

.. قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب...

(سورة المائدة- الآية٣١)

قبل أشهر قليلة، بثت وكالات الأنباء صورتين متزامنتين متناقضتين تناقض الشرق والغرب...

الصورة الأولى أظهرت الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد جالسا إلى منصة «المؤتمر العالمى لمراجعة الهولوكوست» وسط كوكبة من المؤرخين الداعين إلى إعادة النظر فى «أسطورة المحرقة النازية».

أما الصورة الثانية فكانت لكاتب أمريكى شاب من أصل يهودى يدعى جوناثان ليتل، راح ينفث دخان السيجاريو لأعلى، فى غير مبالاة على طريقة جان بول سارتر أمام عدسات المصورين، بعد أن فاز عمله الروائى الأول* («Les Bienveillantes» المترفقات) بأكبر جائزتين أدبيتين فى فرنسا (جائزة الأكاديمية الفرنسية وجائزة جونكور٢٠٠٦) وفى ظهر الصورة ترد ملحوظة قصيرة مفادها أن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية فى تسعمائة صفحة من القطع الكبير والتى وزعت فى ستة أشهر حوالى ثمانمائة ألف نسخة، تصور لحظة بلحظة مأساة الـ «شواه» (وهو الاسم العبرى للإبادة النازية لليهود). الصورة الأولى احتفال للإنكار، أما الثانية فهى احتفاء بالذكرى.

ولو كنت ممن يصدقون الصور ويرون بعين الهوى، ويحكمون وفقا للجزء الظاهر من جبل الجليد على صفحة الماء الوادع، فستحمد جهود أحمدى نجاد، حتى وإن كان مؤتمره العالمى محض مغازلة انتخابية، وستنفر فى المقابل من المدعو جوناثان ليتل، لأنه أمريكى يحصد الجوائز الفرنسية، ولأنه يهودى يكتب عن الهولوكوست، ولكون اللغة التى يخاطبك بها وجهه فى الصورة تقلقك، ففى الصور القليلة التى جاد بها ليتل على مصوريه، تبدو ابتسامته وكأنها محض تقلص فى عضلات الوجنتين يصحبه ارتخاء فى عضلات الشفتين، أما العينان فترسلان فى جمودهما نظرة غامضة، كأنها نظرة اتهام قد يسارع البعض إلى إدراجها فى إطار الاستعلاء المهذب، ذلك الذى يصيب الشباب عادة حينما يأتيهم النجاح هائلا ومباغتا ومستحقا، قبل أن تشتعل فى رأس الواحد منهم شعرة بيضاء.

لكن المظاهر -كما تعرف- خادعة.

فإن أردت الحقيقة، فاعلم أن النظرة الجامدة على وجه ليتل هى تلك النظرة التى يعود بها غالبا الإغاثيون والصحفيون -إذا ما قدرت لهم العودة- من نقاط الحروب والنزاعات الساخنة، هى نظرة من اقترب ورأى، فأفزعته تجليات الطبيعة البشرية فى أحط صورها وأرهبته قسوة الجنون قبل أن تسلبه بصمة عينيه إلى الأبد. فقبل أن يكتب ليتل عن الإبادة أتيح له أن يطالعها وجها لوجه: فى البوسنة وفى الشيشان وفى رواندا وفى الكونغو وفى سيراليون وفى أفغانستان، حيث عمل متطوعا لأكثر من سبع سنوات ضمن حركة «العمل من أجل مكافحة الجوع» الإغاثية.

نعم، المظاهر خادعة. وإن أردت الحقيقة، فاعلم أن رواية «المترفقات» تعمد إلى إعادة جرائم الإبادة النازية إلى أبعادها التاريخية والحضارية الحقيقية. فهى تسحب البساط من تحت كثير من الأقدام التى استمرأت دور الضحية وأرادت احتكاره لنفسها دون غيرها؛ وفى ذات الوقت، تمسك هذه الرواية القاسية بخطافات من حديد لتسحب بها: إلى داخل قفص الاتهام، أطرافا كانت تحلق بأجنحة البراءة فوق مسرح الجريمة. ذلك أن «المترفقات» تعبث فى غير ترفق بأيقونة الهولوكوست «المقدسة» وتعيد تفسير العلاقة بين الضحية وجلادها من منظور إنسانى عالمى يدين منظومة الحضارة الغربية الحديثة، المنفصلة عن القيمة، المستندة إلى العلمانية المادية المتطرفة. بل إن رواية ليتل تذهب على هامش مساءلة ميتافيزيقية كبرى حول انزلاق الإنسان إلى الشر، إلى تحديد نقاط الالتقاء الفكرى والبنيوى بين النازية والصهيونية، وتعرض فيما تعرض وسط دهاليز بيروقراطية الإبادة، لمحة مختلسة من أحد فصول التعاون السرى بين النازيين والصهاينة. وهو ما لم يشر إليه أى ناقد غربى من قريب أو بعيد. فكلهم أرادوا اختزال هذه الرواية الملحمية الضخمة بهدف تحويلها إلى لبنة أخرى من لبنات «ياد فاشيم»... فكانت محاولات القراءة المتصهينة المبتسرة، وكانت ردود أفعال القلق المكتوم، وكان الاحتفاء المفتعل الصاخب. ذلك أن بعض الهامات لا يصلح دفنها إلا وسط السحاب.

ثلاث إناث جسيمات مجنحات، شعرهن دغل من الأفاعى، وعيونهن جمرات الجحيم، فى يد كل منهن شعلة موقدة، وأصواتهن تبعث على الجنون. أولئك هن ربات القصاص فى الميثولوجيا الإغريقية، اللاتى ظهرن فى تراجيديا إيسخيلوس (٥٢٥ ق.م.-٤٥٦ ق.م.) كأدوات للقدر فى إرساء العدالة، يتربصن بمن يرتكبون جرائم ضد الضمير الإنسانى، فيطاردنهم فى كل مكان إلى أن يهلكنهم ولشدة بأسهن، أطلق عليهن العامة اسم «المترفقات»، خوفا من بطشهن ودرءا للأذى.

هو إذن عنوان مقترض من عالم الأسطورة ذلك الذى اختاره جوناثان ليتل لعمله الأدبى الأول، الذى ظل يفكر فى موضوعه طوال اثنتى عشرة سنة، منذ أن حركت خياله صورة فوتوغرافية قديمة لما تبقى من جثمان «زويا كوسموديميانسكايا»، المناضلة الروسية الشابة، التى اتخذتها الدعاية الستالينية أيقونة للحرب، بعد أن شنقها النازيون فى مدينة «خاركوف» بأوكرانيا، وألقوا بها وسط الثلوج، حيث نهشتها الكلاب المستذئبة...

تناقض عميق حملته الصورة بين جمال الفتاة الربانى وبشاعة ما تصنعه يد الإنسان. تناقض حفلت به يوميات الإغاثى الأمريكى الشاب حين كانت مهامه تضطره للتعامل مع قتلة ومجرمين من عينة نيكولا كوليفيتش نائب رئيس جمهورية الصرب إبان أزمة البلقان، الذى كان يحفظ أشعار مسرحيات شكسبير، ويهوى الموسيقى الكلاسيكية والفنون الجميلة ويمارس التطهير العرقى بمنتهى الهدوء والالتزام.

وعلى طريقة ستوديو الممثل، حيث تستعار التجربة الذاتية فى التشخيص، وبعد عامين من البحث الوثائقى المدقق فى سجلات الأرشيف الضخم الذى أتيح إثر تفكك الاتحاد السوفيتى، وبعد تفقد التوبوجرافيا الواقعية للأحداث ما بين أوكرانيا وبولندا وبلاد القوقاز، كتب ليتل قصة الجنون النازى من منظور مركب، يحيط

داليـــا توفـــيق سـعـودى

Les Bienveillantes

(المترفقات)

Jonathan Littell

Gallimard, 2006, 904pp, 25 euros.

ربـات القصاص!



بكتابات راؤول هلبرج وكريستوفر براونينجوايان كرشو التاريخية،ويحاور فلسفة «اعتيادية الشر» الشهيرة المخيفة لعالمة الاجتماع حنا أرانت،ويفند فكرة دوستويفسكي حول «الجرائم العظيمة»،ويأسف لضياع المزاوجة الأثيرة لتولستوى مابين الحرب والسلام، ولا يعترف حتى بصراع قوى الخير والشر الخارقة داخل الإنسان على طريقة نورمان ميلر. فبالرغم من كلاسيكيتها الظاهرة، وانحصار أحداثها ما بين عامى ١٩٤١و١٩٤٥، تبشر رواية «المترفقات»بحالة رفض المرجعيات التى تعيشها الحضارة الغربية اليوم.

«إخوتى البشر..»

فى تسعمائة صفحة من القطع الكبير- كما أسلفنا-اختفت منها الفراغات البينية، وافتقر النص المطبوع عليها إلى التقسيم إلى فقرات،و صفت الجمل الحوارية فيها الواحدة لصق الأخرى على نفس السطر، تعتقلك رواية «المترفقات» بحيث لا ترتاح العين فوق مساحة بيضاء، أو يستسلم العقل لحظة للسكون. فالمبنى على قدر المعنى،والمعنى ارتجاع لمعتقل كبير، يتردد فيه صدى صوت بطل الحكاية، الجلاد الراوى «ماكسميليان أو» المثقف العاشق للآداب والفلسفة والموسيقى، الحاصل على شهادة الدكتوراه فى القانون الدستورى والضابط النازى فى قوات الصاعقة الـ «اس اس» الذى شارك فى كتائب الموت لتصفية أعداء الرايخ الثالث، وشارك فى التنفيذ الممنهج لخطة «الحل النهائى» للمسألة اليهودية،وشهد الحرب على الجبهة الشرقية،وأصابته رصاصة فى رأسه فى معركة «ستالينجراد»، رصاصة لم تقتله وإنما فتحت فى أعماقه تساؤلات أخلاقية حول غائيات الحرب ومرجعيات القتلة، تساؤلات لم تمنعه عن الإشراف على تحسين «القدرة الإنتاجية للمخزون البشرى» فى معسكرات الاعتقال، أو عن السعى إلى «ترشيد فاعلية سلسلة العمل» فى معسكرات الإبادة، قبل أن يهرب إلى فرنسا بعد سقوط برلين. وبعد أن انحدر إلى أسفل درجات السلم الإنسانى، حيثما فضاء العدم ولا قاع تحت القاع، ليجلس بعد خمسين عاما ليكتب مذكراته، فى سبعة فصول، اختير لكل فصل منها اسم تنسق موسيقى، وكأننا بصدد معزوفة «فاجنرية» تردد بين السطور إيقاعات رقصة الموت.

«إخوتى البشر، دعونى أقص عليكم كيف حدث ما حدث. لسنا بإخوتك، هكذا سيأتينى جوابكم. ولا نريد أن نعرف كيف حدث ما حدث، هكذا ستقولون.(..) لكن الأمر يعنيكم؛ سترون بأنفسكم أن الأمر يعنيكم»[1] (ص١١). بهذا الخطاب الذى يشير إلى رابطة الدم الأزلية بين البشر بقدر ما يذكر بالدم الذى يلوث هذه الرابطة منذ الأزل، تبدأ الرواية. وها هو الراوى يعلن منذ البداية أن الحديث لن ينصب فقط على «ما حدث»، بل سيمتد بظلاله إلى ما يحدث.

وعلى غرار فورست جامب فى الفيلم الأمريكى الشهير، يشهد ماكس أو أهم الأحداث التاريخية التى تمر بها بلاده تحت الحرب العالمية الثانية، ويقابل أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية التى تكونت منها العصابة النازية. وهو لن يكتفى بمقابلتهم ومصافحتهم مثلما فعل بطل فيلم روبرت زمكيس، وإنما سيحدثنا معهم وسيرسم لكل منهم بورتريه متحرك داخل سلسلة القيادة النازية، بملابسهم العسكرية البنية وخوذاتهم التى تحمل شارتى النسر والجمجمة. فها هو هنريش هملر مدير الجستابو والقائد الأعلى لقوات الصاعقة، بنظارته المستديرة وعينيه المتقاربتين، الذى يستبطن بهدأة بال الفلسفة المادية النفعية، وأدولف أيخمان التكنوقراطى ذو العقل الأداتى محدود الذكاء، الذى يفهم العامل الأخلاقى لـ «كانط» على أنه دعوة لتحقيق حرية الإرادة الإنسانية من خلال إتباع الأوامر العليا والالتزام بحرفية التعليمات. وأيضا ها هو ألبرت شبير، وزير التسلح المراوغ،وها هما الشرس والقبيح: راينهارد هيدريتش رئيس المكتب المركزى لأمن الرايخ، وخليفته ذو الوجه المشوه ارنست كالتنبرونر، وها هو هانز فرانك الحاكم العسكرى لبولندا،صاحب فكرة إنشاء حديقة أنثروبولوجية ترفيهية لعرض نماذج حية من الشعوب المنقرضة، ورودولف هوس قائد معسكر أوشفيتز، شديد الانضباط الذى يكسو زوجته وأولاده بملابس المعتقلين الصادرة قبل تصفيتهم. وبالطبع لا يكتمل هذا «الكاستينج» الجهنمى من دون ظهور أدولف هتلر شخصيا، وخطبه الحماسية وخصلة شعره الجائرة فوق جبينه، ويديه المنفعلتين،وشاربه الصغير.

وتغرى شخصية ماكس أو بالتحليل النفسى الفرويدى. فهو ابن لأب غائب، يكره أمه، ويرتبط فى صباه بعلاقة غير طبيعية بأخته التوأم «أونا»،ويتعرض للتحرش فى المدرسة الداخلية، ليصبح من ثم شاذا جنسيا. ومع انغماسه فى أوحال الحرب، يكره أو النساء والرجال على حد سواء ليتحول إلى آلة للقتل، يقتل بوعى وغير وعى، حتى أنه لا يذكر كيف ومتى قتل امه وزوجها...

نعم، كان فرويد ليسعد بتحليل هذه الشخصية النموذجية للانحرافات السلوكية. لكن مفتاح الرواية ليس موجودا فى علم النفس بقدر ما هو موجود فى علم الاجتماع. فالرواية لا تقدم سلوكا فرديا لقاتل - أو حتى لمجموعة من القتلة- بقدر ما تفسر الإبادة من منظور مجتمعى، صار القتل وفقا له بمثابة غريزة أساسية، بعد أن تم تحييد حسه الأخلاقى، وتحويل كل فرد فيه إلى ترس صغير فى آلة الفتك العظمى، وتجريد فعل كل فرد من بعده الإنسانى. ففى مقدمته الشديدة الاقتحام، يكتب الراوى ماكس أو: «إن الآلة (الإبادية)للدولة مكونة من نفس نوعية أكوام الرمل الهش الذى تطحنه حبة حبة. فهذه الآلة موجودة لأن الجميع قد ارتضوا وجودها(..). ففى غياب رجال من نوعية هوس وإيخمان وجوجليدز وفيشيشسكى، وأيضا فى غياب محولى القطارات، وصناع الأسمنت، ومحاسبى الوزارات، يصبح ستالين أو هتلر مجرد قربة ممتلئة بالكراهية وبالإرهاب العاجز. فلقد صار من نافلة القول اليوم أن نذكر أن الغالبية العظمى لمنفذى إجراءات الإبادة لم يكونوا ساديين أو غير أسوياء. (..) فالخطر الحقيقى إنما يكمن فى الناس العاديين الذين تتكون منهم الدولة. الخطر الحقيقى على الإنسان هو أنا وأنت» (ص٢٧-٢٨).

ويظل ماكس أو يردد: «أنا إنسان كغيرى من البشر، أنا إنسان مثلكم تماما». ويقول: «لست شيطانا. فكل ما فعلته كانت وراءه ذرائع، وسواء كانت ذرائع صالحة أم طالحة، فهى فى المحصلة ذرائع إنسانية. فالقاتل إنسان، تماما مثلما أن القتيل إنسان.وهذا هو المخيف»(ص٣٠).

لكن مهلا! فالـهر دكتور أو» ليس إنسانا عاديا، فهو مرآة مجتمع تطرف فى اعتناق العلمانية الشاملة، وانزلق ولاؤه من الإيمان بمطلق ثابت متجاوز للمادة والتاريخ، إلى تقديس الفوهرر وعبادة «الفولك»(الشعب العضوى). ويعترف الراوى بهذا الانزلاق العقائدى المتدرج فيقول: «..كانت المرجعية الأسمى التى بقيت طويلا فى المخيلة هى فكرة الإله، ذلك الإله الخفى ذو الجبروت، ولقد انزلقت تلك المرجعية لتحتل الكيان المادى للملك بصفته ممثلا للحق الإلهى، وعندما فقد الملك رأسه، انتقلت السيادة إلى الشعب أو إلى الأمة، واستندت إلى «عقد» متخيل، ليس له أساس تاريخى أو مادى، وعلى ذلك فهو مجرد مثل فكرة الإله. لكن الاشتراكية القومية الألمانية أرادت أن تثبت دعائم المرجعية فى فكرة الشعب العضوى «الفولك»، وهو ما يعد حقيقة تاريخية، فالسيادة لـ «الفولك»، والفوهرر يعبر عن هذه السيادة أو يمثلها أو يجسدها. ومن هذه السيادة يستقى القانون(..) وليس مستغربا أن المناهضين القلائل الذين عارضوا النظام كانوا فى الغالب من المؤمنين بالله، الذين احتفظوا بمرجعية أخلاقية مغايرة لمرجعيتنا، فكان أن

قبل أن يكتب ليتل عن الإبادة

أتيح له أن يطالعها وجها لوجه،

فى البوسنة وفى الشيشان وفى رواندا

وفى الكونغو وفى سيراليون

وفى أفغانستان

ربـــات القصـــاص!

تمكنوا من التفرقة بين الخير والشر تبعا لسند آخر غير الفوهرر..» (ص٥٤٤-٥٤٥)

وفي مجتمع كفر تماما بالإله، يفقد الشيطان وظيفته، وتنتفي أسباب وجوده؛ لأن الصراع بين الخير والشر يختفي، وبالفعل تنتهي رواية «المترفقات» بأن يقتل ماكس صديقه توماس؛ (لاحظ معي الجناس اللفظي بين الاسمين «ماكس وتوماس» لاسيما أن اسم توماس يعني باللغة الارامية القرين أو التوأم). فتوماس هو إذن قرين ماكس في رحلته الى الهاوية، هو ذلك «الساحر» الباسم المتأنق الذي يجيد فنون الإغواء، والذي يظهر دائما في الوقت المناسب في المكان المناسب لكي ينقذ بطل الرواية، بينما هو في الواقع يزيده انغماسا في الوحل. وتوماس هو بحد الشخص القادر على الإتيان بالعجائب: فهو يصاب على ميدان معركة ستالينجراد إصابة خطيرة في بطنه، حتى أن أحشاءه تخرج كاملة من الجرح الغائر، فيلملم أحشاءه بيده ويمشي بجوار صاحبه دون أن يفقده الألم ابتسامته. وفي مشهد آخر نراه يهادن طفلا مسلحا اسمه «آدم» بأن يتيح له إجراء مكالمة هاتفية مع هتلر شخصيا عبر هاتف مصنوع من علب الأغذية المحفوظة.

وفي المشهد الختامي للرواية، التي تنتهي في حديقة الحيوان، مثل رواية «عنبر مرضى السرطان» لسولجنيتسين، يمسك ماكس أو بقضيب حديدي ويهوي به فوق رأس الشيطان توماس هاوزر، فيرديه قتيلا، لينزع عنه زي عمال السخرة الفرنسيين وبطاقة الهوية الفرنسية المزورة ومبلغا كبيرا من المال، بها سيتمكن ماكس من الهرب عبر الحدود، وبها تجاوز جريمته كل الحدود. وهناك، وسط الحيوانات المحتضرة والميتة، وسط الجثث المتناثرة، وآثار الدمار، عثرت عليه ربات القصاص، المترفقات. فكان عقابه أن يحيا ما بين وحدته الأبدية وألم الخزي والتذكر وحزنه الذي لن يبرد أبدا، هاربا من الأيام، مستترا برداء مسروق من الشيطان.

عن الضحية والجلاد:

حينما عرض مخطوط رواية «المترفقات» على دار نشر «كالمان ليفي» الفرنسية المعروفة بتوجهاتها الصهيونية الصريحة، قوبل بالرفض. ولقد فسر مدير الدار جان إتيان كوهين ذلك القرار قائلا: «إن ذكرى ضحايا اليهود قد طمست تماما في رواية ليتل بينما يعد إحياء تلك الذكرى من صميم المهام التي نضطلع بها في مؤسستنا».

والحق أن السيد كوهين محق تماما فيما ارتآه. فيهود «المترفقات» كومبارس يكاد يكون صامتا في كثير من المشاهد المؤلمة التي يساقون فيها إلى القتل ضمن فئات أخرى قمعها النظام النازي. فلقد اختار ليتل أن يحلل الإبادة النازية خارج الحدود التي فرضها الخطاب الغربي الصهيوني على عملية إدراك تلك الحادثة، بحيث لا يفتعل التعاطف مع اليهود وحدهم. فهو لا يسعى لأن تكون روايته بكائية أخرى من عينة «مذكرات آن فرانك». فالمذبحة الأولى التي تظهرها لنا الرواية مذبحة اقترفها اليهود في مدينة «لوتسك» بأوكرانيا قبل أن ينسحب منها الروس. ويشرح لنا ليتل، على لسان ماكس الراوي، كيف كون اليهود هناك جماعة وظيفية مثلت الذراع الضارب للحكم الستاليني للقضاء على البولنديين ولاستغلال الفلاحين الأوكرانيين. وبسقوط تلك الأراضي السوفيتية في أيدي الألمان، يروي لنا ماكس كيف ترك الغزاة الباب مشرعا أمام ربات القصاص، ممثلة في الشعب الأوكراني، الذي راح ينتقم بجنون من اليهود في كل مكان، في انتفاضة محمومة تثأر لسنوات طويلة من القمع والبطش والاستغلال.

هذا ويرفض ليتل الرؤية الاختزالية التي تجعل من اليهود وحدهم ضحية للجرائم النازية، فيقول على لسان الراوي: «أرجو ألا تفاجأوا كثيرا لكوني أعمد هكذا إلى التقليل من اهمية اللاسامية كسبب رئيسي لقتل اليهود؛ فلا تنسوا أن سياساتنا كانت تذهب لأبعد من ذلك (..) فضلا عن اليهود، كنا قد انتهينا أيضا من تدمير كافة المعوقين جسديا وذهنيا من الألمان الميئوس من شفائهم، وكذلك من الغالبية العظمى للغجر، ومن ملايين من الروس والبولنديين» (ص٦١٥). وفي مشهد حول رقعة الشطرنج بين مولر وأيخمان، حيث الوحشية الباردة المرشدة تتبارى مع العقلية البيروقراطية العمياء، يدور الحديث عن «الحل الاجتماعي النهائي» لكل مشكلات الدولة النازية. فيشرح مولر كيف يزمع الجهاز المركزي لأمن الرايخ (RSHA) التخلص من المجرمين والمهمشين والمتشردين ومدمني الخمر والشواذ جنسيا والعاهرات ومرضى السل ومرضى القلب إما بقتلهم أو بتعقيمهم حتى لا يتسببوا في إضعاف صفات الدم الآري النقي؛ حتى الجرحى الألمان في الحرب، عرف ماكس كيف كانوا يؤخذون من على الجبهة إلى حافلات الغاز، وهو ما جعله يكتب: «إن تدمير قوم موسى بفعل جهودنا لم يكن نابعا تماما من الكراهية العمياء لليهود (..) بل كان مرجعه بالأساس قبول راسخ ومقنن لمبدأ الالتجاء الى العنف بغية حل مختلف مشكلاتنا الاجتماعية. (..) ولو أمعنا تدبر ذلك لأمكن لنا إدراك أن ذلك العزم، أو فلنقل تلك القدرة على القبول بمقاربة جذرية للمشكلات إنما تولدت بفعل ما تجرعناه من هزائم في الحرب العالمية الأولى». (ص٦١٦).

لكن ماكس يعلم جيدا أن هذا العنف العنصري الدامي الذي اتفقت عليه الأمة الألمانية خلف قائدها ليس انحرافا تنفرد به دون غيرها من القوى الاستعمارية الغربية. إذ يؤكد الراوي النازي قائلا: «من الخطأ الفادح أن تظن أن الحس الأخلاقي للقوى الغربية يختلف كثيرا عن حسنا ...» (ص٦١٥) والأمثلة لا تنضب على لسان ماكس: «لنتذكر -كما يقول- عمليات الإبادة الهائلة التي قامت بها بلجيكا في الكونغو وسياسة البتر المنظم التي انتهجتها هناك، أو لنتذكر السياسة الأمريكية، الرائدة والنموذج الأول لنا، التي بشرت بفكرة خلق مجال حيوي عن طريق القتل والتهجير القسري. فنحن كثيرا ما ننسى أن أمريكا لم تكن حقا تلك «الأرض العذراء» بيد أن الأمريكيين قد نجحوا حيثما أخفقنا نحن. وهذا هو ما يصنع كل الفرق. حتى الإنجليز (..) فقد أتقنوا شيئا فشيئا كيفية اللعب بالعصا والجزرة على التبادل، لكن علينا ألا ننسى أنهم لم يهملوا أبدا اللجوء إلى العصا؛ مثلما أتيح لنا أن نرى ما حدث في مذبحة «أمريتسار» وعندما قصفت كابول، وغير ذلك من الحالات التي لا تحصى بقدر ما تنسى». (ص٥٤٣). ولا ينسى الراوي تذكير القارئ بممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وبالانتهاكات الأمريكية لحقوق الإنسان لضمان سلامة مصالحها الاقتصادية، أو للسيطرة على بؤر النفوذ الشيوعي. كل تلك الأمثلة إنما يضربها الراوي لا للدفاع عن جرائم ألمانيا الهتلرية، وإنما ليقرر حقيقة أن الحقبة النازية لم تكن سوى بقعة أخرى وسط بقع لا حصر لها على ثوب الحضارة الغربية الملطخ بالدماء.

وعلى حافة خندق مقبرة جماعية، وقف ماكس ليطلق رصاصة الرحمة على طفل صغير يتلوى من الألم. وعندما سقط الولد عند قدميه، فاتحا عينين زجاجيتين صوب السماء، تذكر ماكس مشهدا من طفولته، حين كان يلعب مع صديق له وهما في مثل عمر هذا الولد، لعبة رعاة البقر والهنود الحمر...

وهنا، لنخرج قليلا عن النص لنتعرف على رأي الكاتب في الصورة الحضارية لوطنه، الولايات المتحدة الأمريكية. إن جوناثان ليتل، الذي يحاول منذ سنوات الحصول على الجنسية الفرنسية، لأنه يشعر بالانتماء إلى النموذج الأوروبي، ولأن جواز سفره الأمريكي لم يجلب له سوى المتاعب خلال أسفاره أثناء مهامه الإنسانية، لا يخفي انتقاداته بهذا الصدد. فالبلد الوحيد الذي يرفض ليتل الإقامة فيه، والذي يكره عاداته وعقليته وأخلاقياته ولوبيهاته وسياسته الخارجية ورئيسه، هو الولايات المتحدة. فهو ينتقد بشدة فضيحة سجن أبي غريب، ويصفها بأنها «اللحظة التي حررت التعذيب من القيود المفروضة عليه عالميا». وفي حوار لدورية «لا روفو ليتيرار» (La Revue Littéraire) يشرح ليتل كيف أتاحت له النظرة الحلية التي يتمتع بها بطله ماكسيميليان أو، فرصة فهم وتشريح كل أنواع الجلادين الذين كانوا من حوله داخل الرواية، ولكن هذا الفهم برأيه لن يغير في الأمر شيئا، فهو يقول: «إن مزيدا من الفهم لن يمنع الأمريكيين من ارتكاب الجرائم الجسيمة التي يرتكبونها- (..) فهم لا يملكون فقط القوة العسكرية وإنما لديهم أيضا جيوش من المشرعين الذين تلقوا تعليما أرفع من تعليمي ويقبضون رواتب ضخمة، في مقابل أن يشرحوا للناس أن أعمال التعذيب والاعتقال

يظـــل مـاكـــس أو يـــــردد:
«أنا إنســان كغيــري من البشــر، أنا إنســان مثلكم تماما». ويقول: «لست شيطانا. فكل ما فعلته كانت وراءه ذرائع، وسواء كانت ذرائع صالحـة أم طالحة، فهي في المحصلة ذرائع إنسانية»

ريـــات القصاص!

والسجن المتعسف وغيرها إنما هي أعمال قانونية مشروعة.(..) إن مزيدا من الفهم قد يفيد، لكن يأتي بعد ذلك دور العامل السياسي، فالعامل الاجتماعي الممثل في الجماهير. والجماهير لا تسلك بالضرورة الاتجاه السليم. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، صوتت الجماهير مرة ثانية لصالح بوش، إذ يبدو أنها تحبه كثيرا، وأنها ترى فيه صورتها، مهما فعل. فهو متدين ومؤمن بالله،وليس في الإمكان أبدع مما كان. فما الذي يملكه المرء حيال ذلك؟ أنا، عن نفسي، اخترت ببساطة أن أرحل لأعيش في الخارج»(عدد ديسمبر ٢٠٠٦).

لا غرابة إذن في أن يكون ألمان «المترفقات»، بخشونتهم وعتادهم الثقيل - يشبهون الى حد كبير الجنود الأمريكيين في العراق، أو تراهم أقرب شبها الى جنود جيش «الدفاع الإسرائيلي»؟

● «كلنا ألمان» يجيب ليتل في حديث إذاعي.

● وفي الرواية تجيب «أونا»: «إن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن اليهود(..) لو عاشوا بعد هذه الأزمة، فسينسون معنى كلمة يهودي، وسيسعون بكل قوتهم لأن يكونوا ألمان...».

● وفي تصريح لوكالة الأنباء الفرنسية(AFP) : يقول منوشهر متقي وزير خارجية إيران: «إن الذين يدعون اليوم أنهم مناهضون للنازية، هم أنفسهم عنصريون واستعماريون، وما اقترفته أيديهم لا يختلف عن جرائم النازيين».

● و.. ملحوظة عابرة: الطريقة التي وصفها ليتل في الرواية لتصفية اليهود على أيدي النازيين هي ذاتها الطريقة التي اتبعها اليهود بقيادة بنيامين بن اليعازر قائد وحدة شاكيد في الجيش الاسرائيلي لقتل الأسرى المصريين عام ١٩٦٧: الأسرى في ملابسهم الداخلية يحفرون قبرهم بأيديهم، على أن يكون القبر خندقا متسعا، ثم يصطف عشرة من الأسرى على حافة الخندق، وجوههم قبل القبر، ومن ورائهم اثنين من القناصة، ثم تمر لحظات تسمع فيها الشهادتان أو مناجاة للمسيح(في حالة أسرانا) أو عبارات مبتورة من القادش أو نحيب (في وصف ليتل)، ومع هدير الطلقات يسقط القتلى في الحفرة. ثم يؤتى بعشرة آخرين، يصطفون على الحافة، وجوههم قبل القبر،ولكن القبر هذه المرة لن يكون خاليا. ففيه يصطرخ الباقون وهم يعانون سكرات الموت. ثم يعود عواء الرشاشين، وهكذا دواليك. الفارق الوحيد بين النازيين والإسرائيليين هو أن الأوائل كانوا يتجشمون عناء إطلاق رصاصات الرحمة



على قتلاهم، إذ يصف ليتل كيف كان قائدهم يأمر الجنود أن ينزلوا الى الخندق ليخوضوا وسط الدماء والوحل والفضلات الآدمية لكي ينتهوا من مهمتهم بـ«نظافة». أما أسرانا - يا سادة يا كرام- فكانوا يدفنون أحياء.

ما بين النازية والصهيونية:

في مشهد أثار حنق النقاد، يحضر «ماكس أو» خطبة يلقيها هتلر، فتصور له عيناه أن الفوهرر يرتدي فوق ملابسه العسكرية زي حاخامات اليهود.فمن الاسباب الرئيسية التي تسوقها الرواية لتفسير «الهولوكوست» هو التماثل الفكري الواضح بين الألمان واليهود، وهو تماثل يتخطى فكرة التشابه الإنساني بين الضحية والجلاد ليأخذ شكل تطابق يظهر جليا بين أسس الاشتراكية القومية التي تبنتها الحركة النازية والملامح العقائدية العنصرية التي قامت عليها الحركة الصهيونية[٢]. ففي لقاء «ماكس أو» مع الدكتور «ماندلبرود» صديق جده وأحد أهم «الوسطاء» المسئولين عن تحويل أفكار أدولف هتلر إلى نتائج ملموسة: تقرأ على لسان هذه الشخصية النازية المريبة هذا المونولوج:

«هل تعلم أن مصطلح «الاشتراكية القومية» قد تم صكه في الأصل من قبل رجل يهودي، من رواد الصهيونية، يدعى موسى هس؟ عليك بقراءة كتابه يوما ما، «روما والقدس» وسترى بنفسك. فهو كتاب مفيد للغاية والأمر ليس مجرد مصادفة عابرة: فأي شيء أقرب إلى فكرة القومية العضوية من الصهيونية؟ فهم مثلنا يعرفون أنه ما من سبيل لوجود الشعب العضوي والدم النقي من دون وجود الأرض، لذلك رأوا وجوب إيصال اليهود إلى الأرض الموعودة، اريتس يسرائيل المطهرة من كل الأعراق الأخرى وبالطبع، تلك كلها أفكار يهودية قديمة. فاليهود هم حقا الاشتراكيون القوميون الأوائل: (..) فكل أفكارنا الكبرى جاءتنا من اليهود، وعلينا أن نتحلى بقدر من البصيرة لكي نعترف بذلك:ولنتذكر مثلا فكرة الأرض بوصفها وعد واستيفاء، ومفهوم الشعب المختار من بين كل الشعوب، وكذلك مفهوم نقاء الدم. (..) وعلى ذلك، فاليهود هم من بين كل أعدائنا الأسوأ والأخطر، فهم وحدهم من يستحقون منا عناء الكراهية. لأنهم وحدهم منافسونا الحقيقيون(..). فما من مكان على هذه الأرض إلا لشعب مختار واحد، مقدر له أن يسيطر على الشعوب الأخرى..»(ص٤٢٠ - ٤٢١).

غير أن جوناثان ليتل لم يكتف بنثر فكرة التشابه بين الألمان واليهود عبر صفحات الرواية، بل جعل من بين شخصياتها أحد زعماء الحركة الصهيونية الذين تعاونوا مع النازيين لتهجير عدد من يهود المجر إلى فلسطين،وهو رودولف كاستنر(١٩٠٦-١٩٥٧)[٣]. وفي «المترفقات» يظهر كاستنر كشاب متأنق يعامل آيخمان بندية، ويتعاون مع الألمان في صفقة سميت «الدم مقابل البضائع» قضت في الظاهر بمقايضة عشرة آلاف شاحنة مجهزة للجنود الألمان في مقابل إخلاء سبيل مليون يهودي. وهنا يعلق الراوي تعليقا مهما، إذ يقول: «و كأن بضع شاحنات كان يمكنها أن تغير مسار الحرب.وكم من الشاحنات أو الدبابات أو الطائرات كان باستطاعة مليون يهودي أن يصنعوها لو أننا يوما كان لدينا مليون يهودي داخل المعسكرات؟» (ص٧٣١).

وتتكاثف فكرة التماثل النازي- الصهيوني، حتى تظهر في ذلك التماهي الذي رصده الراوي بين شخصيتي آيخمان النازي المتطرف وكاستنر الصهيوني الحاد، إذ يقول: «كان آيخمان مأخوذا ببرود كاستنر وبصرامته الأيديولوجية،وكان يرى أن كاستنر لو كان ألمانيا لصار ضابطا ممتازا في شرطة أمن الدولة، وهو ما كان في رأيه أعظم إطراء ممكن. ولقد قال لي آيخمان يوما: «إن كاستنر يفكر مثلنا تماما. فهو لا يكترث إلا للقدرة البيولوجية لعرقه، وهو مستعد للتضحية بكل العجائز لكي ينقذ الشباب والأقوياء، والنساء الخصيبات. إنه يفكر في مستقبل عرقه. ولقد قلت له: «أنا، لو كنت يهوديا، لكنت اخترت أن أكون صهيونيا، وصهيونيا متشددا، مثلك يا كاستنر»» (ص٧٣٣).

ومن حكمة المقادير، التي شاءت أن تكرس هذا التطابق النازي الصهيوني، أن جاءت نهاية آيخمان كنهاية كاستنر. فالأول أعدمته إسرائيل عام ١٩٦٠ بعد أن اختطفته مخابراتها من الأرجنتين حيث كان ملجأه بعد الحرب،والثاني دبرت اغتياله عناصر في الحزب الحاكم الإسرائيلي بعد أن كاد تورطه في صفقات مشبوهة مع النازيين أن يفضح أسماء مهمة في الوكالة اليهودية فوضته في هذا التعاون ثم قتلته عام ١٩٥٧.

وفي لقاء إذاعي أجراه جاك لوازو مع الكاتب على قناة «فيفر إف إم»[٤]، تطرق جوناثان ليتل إلى ذكر اتفاقات سرية بين يهود الهاجاناه والحكومة النازية أثناء عمليات إبادة يهود شرق أوروبا،وشرح كيف سرت هذه الاتفاقات وفق آليات شديدة التعقيد، عبر دهاليز خلفية، فضمنت للصهاينة الحصول على قروض ضخمة من الحكومة النازية في مقابل غض الطرف عن الممتلكات التي كانت تصادر من يهود أوروبا قبل تصفيتهم. كانت تلك- كما يؤكد ليتل في الحديث نفسه- وسيلة لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين. فما من دولة كانت لتقبل توطين يهودي مجرد من كل ما يملك إلا الدولة الصهيونية التي مثلتها في ذلك الوقت الوكالة اليهودية. فمن أتى «الأرض الموعودة» من يهود أوروبا كان يهنأ بقروض النازيين، أما من رفضوا الهجرة فلقد واجهوا مصيرهم المعروف، قربانا وتمنيا لقيام الدولة العبرية الوليدة.

هكذا تتراءى النازية والصهيونية في الرواية كوجهين لعملة واحدة: عملة

في مجتمع كفر تماما بالإله،
يفقد الشيطان وظيفته، وتنتفي أسباب
وجوده، لأن الصراع بين الخير والشر يختفي.
وبالفعل تنتهي رواية «المترفقات»
بأن يقتل ماكس صديقه توماس

الحداثة الداروينية النيتشوية التي يعرفها باقتدار الدكتور عبد الوهاب المسيري كاتبا: «حينما تسود النسبية ويتحرر العالم من القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور وهي القوة! ولذا فنحن نسمي الحداثة المنفصلة عن القيمة بأنها الحداثة الداروينية. ونحن نذهب إلى أن كلا من الصهيونية والنازية هما تعبير عن هذه الحداثة».[٥]

وفي فقرة بديعة من الرواية، في ليلة أطل فيها «ماكس أو» على الهوة السحيقة التي تشرف عليها بلاده، والتي توشك أن تقع فيها الإنسانية جمعاء، يرى ماكس في منامه نباتا شيطانيا بالغ التوحش يلتهم الأرض بما عليها من كافة مظاهر الحياة والتاريخ والحضارة (لاحظ معي المغزى الحداثي للصورة التمثيلية التي تشير إلى انسحاق الذات الإنسانية في عالم نزعت عنه القداسة). وعندما يصحو ماكس من سباته يتراءى له العالم وكأنه غابة الذئاب التي بشر بها توماس هوبز، حيث «الجميع ضد الجميع». فينخرط في هذا المونولوج الداخلي: «..هذا هو قانون الحياة. فنحن أقوى من الأحياء الأخرى، ويملكنا أن نتحكم في حياتها ومماتها كيفما شئنا، فالبقر والدجاج وسنابل القمح إنما وجدت على الأرض لنفعتنا، ومن الطبيعي أن نتصرف -نحن البشر- فيما بيننا باتباع نفس النهج ومن الطبيعي أن ترغب كل طائفة بشرية في إبادة من ينازعونها الأرض والماء والهواء. فلم إذن نعامل اليهود أفضل مما نعامل البقر أو بكتيريا كوخ، طالما كان ذلك في استطاعتنا، ولو أصبح ذلك في استطاعة اليهود فسيفعلون بنا أو بغيرنا، نفس الشيء، ليضمنوا بقاءهم، إن هو إلا القانون الساري على كل الأشياء: قانون الحرب المستدامة، حرب الجميع ضد الجميع، أعلم أن تلك الفكرة ليست جديدة وأنها محض تكرار للداروينية البيولوجية أو الاجتماعية، لكن في تلك الليلة وأنا أكابد الحمى، صعقتني صحة هذه الفكرة أكثر من أي وقت مضى، (..)، فتحت وطأة هذا التدافع لا قيمة لتلك الحواجز الهشة التي يقيمها البشر في محاولة لتنظيم الحياة العامة، كالقوانين والعدالة والأخلاق والآداب، فمع أقل إحساس بالخوف، أو مع أبسط نزعة غريزية تتهاوى تلك الحواجز وكأنها سد من قش، ولكن عندئذ على الذين بادروا بالعدوان ألا يعولوا على أن يحترم الآخرون العدالة والقوانين، إذا ما جاء دورهم للرد وداهمني شعور بالخوف لأننا كنا في طريقنا إلى خسارة الحرب». (ص.٧٤٢-٧٤٣) (التأكيد على العبارة للكاتبة).

وسقطت برلين.

فكان انتقام ربات القصاص مروعا وهنا صفحات لا يمكن أن يكتبها إلا من عاين الحرب وخبرها. فعرف ساحات المدن المنكوبة، وشهد المشانق المعلقة في لوحات الإعلان وأعمدة الكهرباء والكباري والأشجار وساحات المنازل، ورأى الأشلاء المتناثرة بين الأنقاض، أو مر بجوار الجثث الطافية فوق مياه الصرف الصحي التي أغرقت الشوارع بفعل القصف، فهاله تحرك أوصالها العائمة بفعل الموجات التي يحدثها مرور السيارات على صفحة الماء. وشهد تماثيل الزعماء وهي تنكس وتسحل في الطرقات (هل تذكرون تمثال صدام؟). وبينما برلين المنهزمة جاثية وسط حرائقها وموتاها وعمائرها المهدمة، وتحت قنابل اللهب الفسفور، علقت لافتات جوبلز الدعائية: «شكرا للفوهرر على كل ما قدمه للشعب الألماني»، هدية مقدمة بمناسبة عيد ميلاد هتلر! (هل تذكرون دعايات الصحاف؟). وبمناسبة ذكرى ميلاد لينين أيضا، راح الروس يكثفون القصف على المدن الألمانية إلى أن سويت بالتراب. هنا صفحات إبداعية تتخطى الزمان والمكان.

في لبنان

لكن المدهش، هو أن جوناثان ليتل قد أعرض عن كل مظاهر الاحتفاء الإعلامي، فلم يحضر مراسم تسليم الجائزتين ولم يظهر في أية مقابلة تلفزيونية، وحين اختارته مجلة «لوفيجارو ماجازين» رجل العام ٢٠٠٦، ظهر على غلافها وقد أشاح بوجهه متجنبا النظر إلى العدسة، فهو إنسان لا يعبأ بالبهرج والأضواء، ويعلم إلى ذلك ما تحمله عيناه من قلق واتهام. وحين سألته صحيفة «لوموند» عن تفسيره الشخصي للنجاح الذي حققته الرواية في فرنسا، أجاب قائلا «فلننتظر لنرى كيف سيتم تلقي الكتاب في إسرائيل، وفي الولايات المتحدة، وفي ألمانيا...».

وبينما الندوات الإذاعية والتلفزيونية تكثف سحائب الجدل حول الكاتب والكتاب، حمل جوناثان ليتل حقيبته الصغيرة وطار إلى لبنان.

الهدف المعلن للزيارة كان حضور مهرجان «تواصل مع الكتاب» ليقدم ليتل روايته للجمهور اللبناني، ولكن هل يعبأ ليتل بالمهرجانات؟

منذ ١٩٨٢، حلم جوناثان ليتل بالمجيء إلى لبنان، ليشاهد الحرب التي راحت تمزق أوصاله، وتزرع العداوة بين إخوة فرقاء، ليكتب عنها بمثل ما كتب المراسل مايكل هر عن فيتنام لمجلة اسكواير. فلقد انجذب جوناثان منذ طفولته لأدب الحرب، لاسيما وأن والده هو روبرت ليتل مراسل مجلة نيوزويك في موسكو والروائي الشهير بنجاحاته الأدبية الكبيرة التي تدور في عالم الحرب الباردة. لكن ليتل الابن كان يعلم جيدا أن النجاح الأدبي لا يعرف التوريث، لأن النجاح الأدبي ذو طابع ديمقراطي، يستند بالضرورة إلى شرعية الموهبة وقوامه الأخلاقي هو قبول الجماهير. فأراد الفتى أن يصنع أسطورته بنفسه.

وفي ٢٠٠٧، راح جوناثان ليتل يجوب ساحات بيروت المشرفة على الهاوية، مرتديا معطفا جلديا أسود طويلا، يطيل النظر إلى الصور العملاقة للرئيس رفيق الحريري وجبران تويني وسمير قصير وبيير الجميل. يزور فندق ألكسندر الذي اتخذه أرييل شارون مقرا عاما للقيادة أثناء الغزو الإسرائيلي في ٨٢، بل ويسأل عن رقم الغرفة التي كان ينزل بها. وفي المساء، يسير ليتل وسط حشود المعارضة المعتصمة في ساحة الشهداء ويسجل هتافاتها الغاضبة ضد حكومة السنيورة وينصت إلى تكبيرات الرجال التي تهز الأرض تحت الأقدام وفي الصباح الباكر خرج ليتل من الفندق كأنه شبح، وراح يجوب المدن اللبنانية: صور وصيدا وبعلبك وبيبلوس، وارتقى الجبل حيث أشجار الأرز والمسيحيون وحصينة سمير جعجع ومقابر الفينيقيين وسط الصخور.

ولكن: هل أبصر جونثان ليتل ربات القصاص التي تجوب لبنان في كل مكان شاهرة شعلاتها الموقدة تطلب العدالة والحقيقة؟ لا أحد يعلم. لكنه قد سجل كل ما رآه وسمعه وتكشف له في مفكرة صغيرة يحتفظ بها في جيبه. ويبدو -مما تشير إليه كل القرائن- أن «للمترفقات» جزءا آخر يحكي الصراع العربي الإسرائيلي ويبدو أن قدرنا أن نستورد حتى من يقصون مأساتنا. ليكن ذلك إذن. ولكن هل سيتمسك ليتل هذه المرة بحياده الإكلينيكي وضميره الحي الذي نما واستعظم بمعايشة مآسي البشر وشرور المجتمعات؟ هل سيفلح في وصف مذابح دير ياسين واللد والرملة وصابرا وشاتيلا وقانا الأولى والثانية وجنين وعين الحلوة وغيرها مثلما برع في تصوير أوشفيتز وسوبيبور وتربلينكا وكالمتووبلزك؟ أم تراه سيعجز هذه المرة عن رؤية أبعاد مأساة «فلسطينية الكلمات والصمت.. فلسطينية الصوت.. فلسطينية الميلاد والموت»؟

الإجابة في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله. ※



جوناثان ليتل مؤلف الرواية

الهوامش:

(١) الاقتباسات من الرواية من ترجمة الكاتبة.
(٢) انظر الدراسة القيمة والوافية بهذا الشأن، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري: «النازية والصهيونية (الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوي)»، والنازية والصهيونية (العلاقة الفعلية)، ومعاهدة الهعفرا (الترانسفير)»، في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: الموسوعة الموجزة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٥، ج.١، ص.١٩٧ إلى ٢٠٥.
(٣) انظر الترجمة الكاملة لرودولف كاستنر في المرجع السابق ص ٢١١.
(٤) أجري اللقاء بتاريخ ١١ نوفمبر ٢٠٠٦، ويمكن سماع اللقاء كاملا على العنوان الإلكتروني:
http://bloghandicap.fr/fichiers%2audio/novembre/littell.mpr
(٥) عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، يناير ٢٠٠٦، ص٢٤٧.

كوميديا الشرق

لينين الرملي

■ يذكر الجبرتي المؤرخ المصري الذي عاصر الحملة الفرنسية («إن الفرنسيين أحدثوا في منطقة الأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع فيها الرجال والنساء للهو والخلاعة»)، وكان بهذا يصف المسرح، وذكر بعدها أن المصريين كانوا يسترقون البصر للفرجة، والسلفيون الآن ينظرون للكوميديا والمسرح، بل والفنون على أنها شر أكثر من كونها مجرد لهو وخلاعة فقط.

أما رفاعة الطهطاوي الذي كان إمام بعثة أرسلها محمد علي لباريس فقد قال في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) بعد أن رأى المسرح هناك أن «هذه الألعاب جد في صورة هزل».

لافت للنظر أن أول مسرحية اقتبست عن الغرب عام ١٨٤٧ كانت كوميديا، عندما عرض مارون النقاش التاجر اللبناني الثري مسرحية البخيل لموليير في بيته ودعا لها الأصحاب وعلية القوم وخطب فيهم قائلاً: (وها أنا متقدم دونكم إلى قدام. محتملاً فداء عنكم إمكان الملام) لاحظوا جملة «فداء عنكم»، فالفداء من الفدائي الذي يضحي بنفسه في الحرب من أجل وطنه!

أما مسرحيته الثانية (أبو الحسن المغفل) فكانت عربية اقتبسها بتصرف من قصة في ألف ليلة وليلة باسم (النائم واليقظان) ومثل شبان مرد أدوار النساء اللاتي لم يكن جنسهن ضمن الجمهور، وبين فصول المسرحية مثلت هزلية تتحدث عن خيانة امرأة لزوجها وكان بين الحضور المفتي الذي انزعج وأخذ ينتقد بشدة إجرام الزوجة وبلاهة الزوج وراح ينبهه بصوت عال بخطط زوجته، وكان بذلك أول رقيب في هذا المجال. وعرفت مصر فرقاً من الممثلين الجوالين (المحبظاتية) الذين يقدمون مواقف فكاهية مرتجلة تتميز بالفحش بل والحقارة على حد تعبير المستشرق الإنجليزي إدوارد لين الذي عاش في مصر بين ١٨٢٠ و١٨٣٠ في كتابه (عادات وتقاليد المصريين المحدثين)، وهو يتحدث عن هزلية شاهدها في قرية مصرية.. وهذا الاتجاه مازال سارياً حتى الآن في أغلب العروض التجارية.

ومع افتتاح قناة السويس عام ١٨٩٦، افتتحت أول دار أوبرا في أفريقيا بتكليف من الخديو إسماعيل لتقدم الأوبرات الغربية. وفي العام التالي وفي نفس المنطقة وعلى مسرح صغير قامت أول فرقة أهلية لتقدم أول مسرحية مصرية على النمط الأوروبي، لكن في جو شعبي صميم وكان ذلك على يد يعقوب صنوع الذي لم يقدم غير الكوميديا متأثراً بموليير، وقيل إن الخديو أعجب بعمله وأطلق عليه لقب موليير مصر، لكنه قدم مسرحيات تناولت المشاكل الاجتماعية والسياسية ولجأ في ذلك إلى استخدام الرمز وبمعنى آخر، لجأ إلى التحايل. ولكن التحايل لم ينفعه، فقد كان الوقت مازال مبكراً وغضب عليه الخديو وانتهى الأمر بهربه شبه منفي إلى باريس.

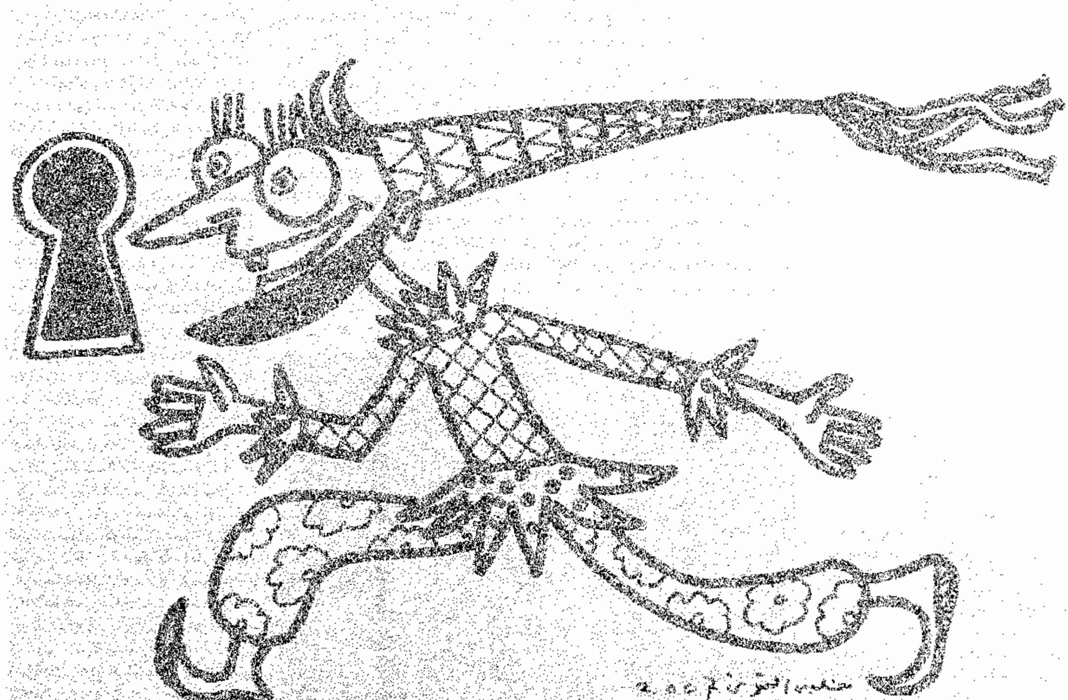
وبعدها ظل الشرق وغالباً من القاهرة يقتبس ويستلهم كوميديا الغرب، خاصة موليير والفودفيل الفرنسي.

ثم ظهرت السينما وجعلت الشرق يشاهد الكوميديا الغربية من أصحابها مباشرة.

وقد شاهدت أفلام شارلي شابلن صغيراً ورأيت أطفالاً حفاة يشاهدونه وهم يفترشون الأرض يضحكون ويصفقون له من قلوبهم.

لماذا نجح عندنا أكثر من باقي نجوم الكوميديا الغربيين؟ كان شارلي صامتاً لا يتحدث بلغة أجنبية عنهم، وكان فقيراً، والشرق فقير أيضاً، إذن فهو منهم. وكان عاطفياً كأهل الشرق وكان مطارداً على الدوام، يتلقى الضربات ممن هم أقوى منه وينهزم كثيراً.

والشرق ضعيف ومهزوم دائماً. حقاً كان شارلي ينتصر في النهاية بأن يتحايل على كل ظروفه. وهذا ليس واقع الشرق، ولكنه النصر حلم الشرق فلا بأس أن



فـن التحـايـل

ظل مسرح أو سينما الشرق يقدم «يقتبس» كوميديا الغرب أو يستلهمها، ولكن بعد مضى جيلين أو ثلاثة على ظهورها. فما ينتهى ويصبح ماضياً فى الغرب يبدأ كحاضر فى الشرق

ينتصروا ولو فى الخيال. مع شارلى بشكل خاص لم يكن هناك أى تباين ثقافى بين الشرق والغرب.

استخدم شارلى فن التحايل بالصورة ليقول أشياء أكثر من التى تقولها الكلمات وأحس الشرق - ولا أقول أدرك - بما يريد توصيله. أما فى أمريكا فلم يتفهم التحايل، فقد أدركت الحركة المكارثية - ولا أقول شعرت - أشياء أكثر مما قصدها هو، وكما هرب صنوع إلى فرنسا هرب شارلى إلى سويسرا، وثبت بذلك أن الوقت كان مازال مبكراً فى أمريكا أيضاً.

ظل مسرح أو سينما الشرق يقدم «يقتبس» كوميديا الغرب أو يستلهمها، ولكن بعد مضى جيلين أو ثلاثة على ظهورها. فما ينتهى ويصبح ماضياً فى الغرب يبدأ كحاضر فى الشرق وهو ما أسميه باختلاف التوقيت الثقافى.

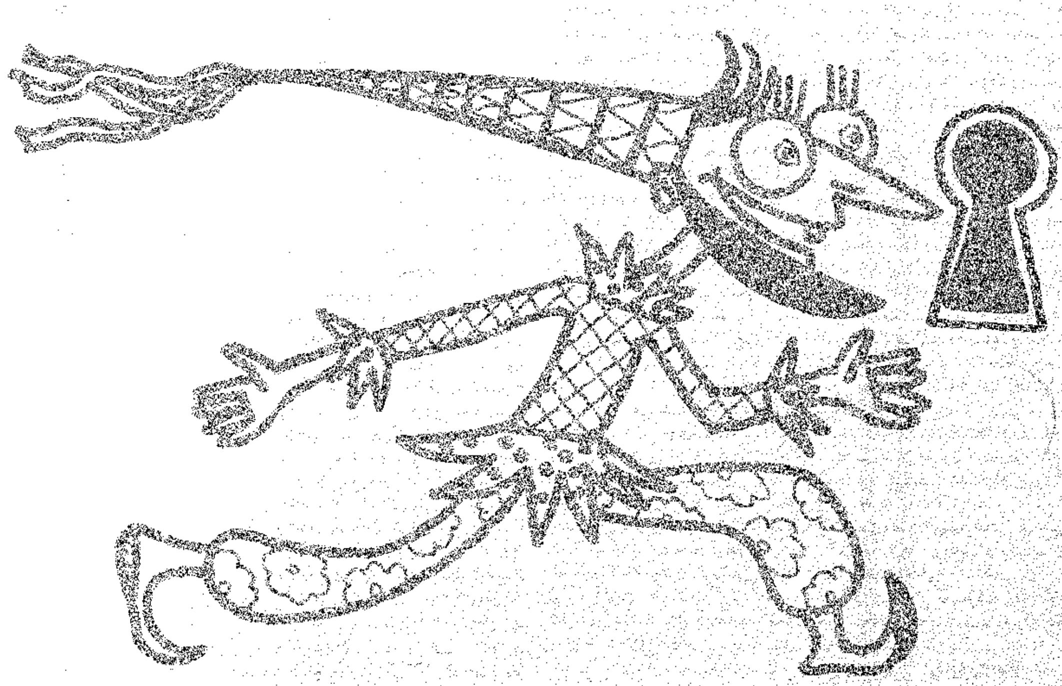
وكان ذلك يبشر بأن التباين الثقافى سيأخذ فى الاضمحلال تدريجياً مع نمو مجتمعات الشرق. لكن المفارقة أن العجلة توقفت مع بداية تحول العالم إلى قرية صغيرة، فقد ظهرت فى الشرق تيارات تدعو للابتعاد عن ثقافة الغرب والعودة لتراثه الخاص وحده، بل أطل من جديد تفكير العصور الوسطى وتراجعت مساحة الحرية والديمقراطية التى كانت بوادرها تلوح فى الأفق وتباعدت المسافة الحضارية بين الشرق والغرب. وهكذا لم يعد من السهل استلهام كوميديا الغرب بدءاً من السبعينيات تقريباً، سواء عن رفض ذاتى أو خوفاً من الرقابة والرأى العام.

بالأمس كان من الممكن استلهام روميو وجولييت مثلاً، ولكن من الصعب أن يكون هناك عمل يناقش زواج روميو بروميو آخر، أو يكون هناك عمل لا يخنق فيه عطيل ديدمونة بل يسامحها، أو مسرحية بطلها من الجنس الثالث أو مناقشة أية موضوعات دينية، إسلامية كانت أو مسيحية، أو كوميديا تنطلق من فكرة أن العلماء مثلاً نجحوا فى خلق إنسان، أو المناداة بالقتل الرحيم، لا يمكن أن تستلهم عملاً يسخر من بوش أو بلير وتستبدله بحاكم عربى، بينما ترحم بغرضه كما هو.. أصبحت حياة الغرب غريبة عن حياتنا، فعلاقة الرجل والمرأة مازالت مؤثمة بلا زواج، وتكاد تخلو الأفلام الحديثة من القبلات، والأعمال المأخوذة عن تاريخنا لابد أن تمجد شخصيات الماضى، وتصبح الكوميديا غير مقصودة عندما ترى عبدالناصر فى فيلم مصرى يتحدث أن أمنيته أن يلف العالم كسائح بعد أن يخرج للمعاش! ففى الشرق يستمر الموتى يحكمون وكل ما هو ماضٍ مقدس.

هل كانت صدفة أن ينشأ فن المسرح بديمقراطية أثينا؟ جوهر الدراما هو الصراع الداخلى، والديمقراطية هى الاعتراف بالصراع داخل المجتمع الواحد، ولكن مجتمعات الشرق نظراً لتراث تاريخى طويل لا تعترف بالديمقراطية وبالتالى لا تفهم الدراما القائمة على الصراع داخل النفس الواحدة، وإذا ظهر هذا الصراع فى المجتمع - رغم محاولة إنكاره - سارع الحكام بوضع الطرف المعارض فى خانة الأعداء ليبدو الصراع خارجياً. فى الشرق نرحب بهاملت الدانماركى عندما يناجى نفسه (أكون أو لا أكون) لكن إذا أصبح هاملت عربياً وتساءل مثلاً (أحارب أو لا أحارب؟) سيكون عميلاً فى نظر الأغلبية حتى الذين لن يحاربوا أبداً.

وهكذا صارت الكوميديا خالية من الصراع الداخلى باعتباره مضراً بالصحة مثل الكوليسترول. أو دراما تصنف كسم فى أحسن الأحوال، وهى عبارة عن قصة مكررة فى مناظر جديدة تربطها سلسلة من النكت غير المترابطة. والتى لا تحمل أى معنى، يطلقها هزلى واحد - لا كوميدى - لا يمثل شخصية أو حتى نمطاً بقدر ما يمثل نفسه، فيصبح هو المؤلف والمخرج، وهو انعكاس طبيعى فى مجتمعات يحكم فيها المسئولون على هواهم وتصبح الإدارة شخصية لا موضوعية.

حقاً تسمح الحكومة فى



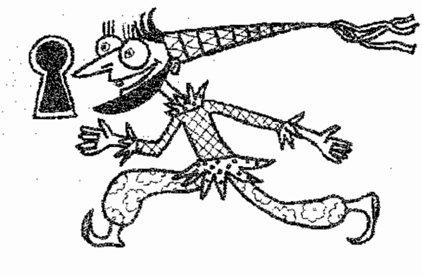
كان أغلب كتاب مسرح الستينيات يعملون فى وظائف فى إطار السلطة التى كانت تدعمهم وتنتج أعمالهم. وبعد هزيمة ٦٧ رفضت الرقابة كل مسرحياتهم تقريباً.

فن التحايل تجده بنسبة أكبر فى الأعمال التى تعالج مواقف جنسية ويقل أو ينعدم فى الموضوعات الفكرية والسياسية والدينية

مصر منذ فترة بنقدها ونقد بعض المسئولين، ولكن السماح بهامش الحرية هذا جاء بعد حرث الأرض لتيارات الجهل والتسلط باسم الدين، ويعانى الكاتب وسط هذا الجو من إرهاب اجتماعى أيضاً كنتيجة لتدنى المستوى التعليمى مما يجعل مهمته شاقة عند معالجة الأمور الفكرية الأساسية، فتهمة الإلحاد والإباحية والعمالة للغرب تنتظره من طابور طويل من الصحفيين والكتاب والمحامين.. إلخ. والنتيجة أن يجتر الفن نفس أفكار المجتمع القديمة دون أن يناقشها، فالشرود عن القبيلة مغامرة غير آمنة.

ولكنها أسهل للشاعر وكاتب القصة والرواية ومؤلف الكتاب لأنه يمكن نشر النصوص خارج الوطن (والآن عبر الإنترنت) لكن المسرح أو السينما شىء يعرض بموافقة السلطة والمجتمع، فضلاً عن الفنانين الذين يساهمون فى تقديمه. فكاتب الدراما كالأعمى مستطيع بغيره.

وكان أغلب كتاب مسرح الستينيات يعملون فى وظائف فى إطار السلطة



التى كانت تدعمهم وتنتج أعمالهم بنفسها لأنها لم تتقاطع مع أهدافها، بل غالباً ما كانت تدعو لها. وبعد هزيمة ٦٧ رفضت الرقابة كل مسرحياتهم تقريباً. فما بالكم بكاتب مستقل أصلاً عن السلطة ولا يعمل فى إطارها؟ وهكذا كان الحل الوحيد أمامى هو اللجوء للتحايل. والتحايل أمر مقبول فى الشرق لأن الحكام يتحايلون على القوانين ولأن المجتمع كله يفعل نفس الشىء ويصبح القانون هو: ويل لك إن لم تتحايل.

لكن فن التحايل تجده بنسبة أكبر فى الأعمال التى تعالج مواقف جنسية ويقل أو ينعدم فى الموضوعات الفكرية والسياسية والدينية، ويرجع هذا بسبب الإحجام عن دخول عش الدبابير أو بسبب ضحالة الفكر وقلة الموهبة، وهو بالطبع سبب يجُب بقية الأسباب فى هذه الحدود كان على أن أقول وجهة نظرى أو بعضاً منها، والكوميديا وسيلة عظيمة فى هذا المجال، خاصة والناس عندنا لا تقاوم الضحك. فنحن شعب يتذوق الفكاهة. الكوميديا تعلو عن الواقع لتضحكه متلبساً بالحقيقة، تجرح دون دماء، وتراوغ بادعاء الهزل وهى فى منتهى الجدية، والنكتة كذبة ولكنها تشير إلى جانب من الحقيقة أو توحى بها. اسمحوا لى أن أقدم شهادتى عن موقعى ككاتب درامى ومن واقع بعض أعمالى نفسها وكيف كان على أن ألجأ إلى فن التحايل على عدة مستويات:

١ - التحايل على ظروف الإنتاج والظروف الفنية الموجودة.

٢ - التحايل على الرقابة.

٣ - التحايل على الرأى العام السائد فى المجتمع.

٤ - التحايل على الجمهور.

٥ - وأخيرا.. التحايل على نفسى!!

مشهد ١

التحايل على ظروف الإنتاج الفنى

كان مسرح الحكومة واقعاً تحت سيطرة البيروقراطيين والمتقمين الذين ينتظرون أن يتقدم الكتاب لهم بطلب على عرضحال دمغة لينتجوا لهم مسرحيات ميتة فى الأغلب. فى حين أن القطاع الخاص كان يبحث بنفسه عن النصوص - لا الكتاب - وكان أغلب ما يقدمه من نوع الفارس الذى لا معنى له. بقايا الأراجوز وخيال الظل والفكاهة الشعبية المرتجلة مع الغناء الشعبى والرقص الشرقى أو استعراضات تعبيرية. أى خليطاً يجمع بين سهرة شعبية وسهرة بورجوازية بملهى ليلى (سامر فلاحى مصرى + قعدة عثمانية داخل علبة إيطالية) وهى تركيبة يقبلها كثير من المصريين وكذلك العرب الزائرين من طبقات مختلفة، ولكنها لا تعكس حقيقة أوضاعهم. وكان على أن أخترق هذه المنظومة، فحاولت أن أستغل نفس الروح الشعبية مسلحاً بخبرتى فى دراسة الأشكال المتنوعة للمسرح فى العالم لأعبر عن هموم اجتماعية وفكرية وأطمح أن أتخطاها لبعد إنسانى، معتقداً أن كل الأساليب الغربية فى الكتابة للمسرح لا تتناقض مع ذوق وإحساس جمهورنا، لكن الممثلين لم يقبلوا مسرحياتى بسهولة لاختلافها عن السائد. وعندما قبلوا بعضها، قدموها بطريقتهم التقليدية فنجحت مادياً ولا تعجبنى فنياً.

ووضعت خطة فكونت مع زميلى بقسم التمثيل فى معهد المسرح وهو محمد صبحى ثنائياً، ولأنه كان جديداً ومغموراً كان من السهل أن يتكيف مع أسلوب هذه المسرحيات. وبعد مسرحيتين فقط، أصبح بالفعل نجماً معروفاً فحرضته لتكوين فرقتنا الخاصة عام ٨١ وقدمنا من خلالها ٦ مسرحيات لفتت النظر إلى إمكانية التغيير، فهذه المسرحيات جذبت الجمهور ثم أيدها الكثير من النقاد أيضاً، ولكنى أفخر بأننى حصلت على الجمهور أولاً. لقد كنت دائماً على ثقة بهم، وقد وثقوا بى.

مشهد ٢

التحايل على الرقابة

من أعمالى الأولى عام ١٩٧٢ كتابة سيناريو وحوار فيلم للمخرج الكبير صلاح أبوسيف، لكن الرقابة رفضته. كان الخطأ الأول للمخرج أنه سمى الفيلم «مدرسة الجنس» وكان كلمة الجنس على أفيش فى الشوارع - ولا تزال - من الصعب قبولها وكان الفيلم يتعرض لمشكلة فشل العلاقة الجنسية بين زوجين نتيجة اختلاف تربية كل من الرجل والمرأة فى مجتمعنا. لم يكن بالفيلم مشاهد عارية. فالمخرج أراد أن يخاطب عقل الجمهور لا إثارة غرائزه، وكان التركيز على مناقشة المشكلة بشكل مباشر، وكانت هذه غلطته الثانية. وظل المخرج يعيد تقديم السيناريو للرقابة كلما تغير مديرها وظلت الرقابة ترفض لمدة خمسة وعشرين عاماً حتى ظهر أخيراً عام ٢٠٠٢ ولكن من إخراج ابنه! وخلال ذلك ظهرت عشرات الأفلام التى عرضت لمواقف جنسية قصد منها الإثارة صرحت بها الرقابة لأنها كانت توحى وتلمح ولا تناقش.

وقد وعيت هذا الدرس، خاصة وقد رفضت لى رقابة التليفزيون عدة أعمال قبل ذلك. كان لدى قصة عن مؤسسة للمكفوفين تعمل إدارتها على استغلال عاهة نزلائها لكى تسرق حقوقهم بدلا من أن تخدمهم وتحمس صلاح أبوسيف لإخراجها فيلماً وأخذنى لندور على معاهد المكفوفين ونلتقى بمديرها وبعدها صارحنى أنه لم يلحظ أن أى إدارة تسىء للنزلاء وبالتالى يعتذر عن إخراج الفيلم. ولكنى كنت أرى الأمر بشكل مختلف لا علاقة له بالواقع ولكن بحقيقة أكبر كنت أرى نزلاء المؤسسة يمكن أن يكونوا من هذا الشعب العربى أو ذاك. وعاهة العمى = الجهل بما يدور حولهم. أما الإدارة فهى السلطة التى تحكم هذا الشعب وبدلاً من أن تساعدهم على تجاوز عجزهم استغلت عاهتهم لصلحتها. وهكذا صنعت مسرحية باسم «وجهة نظر».

سألت زوجتى مديرة الرقابة بعد البروفة النهائية هل هناك اعتراضات؟ فردت بحيرة بأنه - أى أنا - يكتب كل ما يريد بطريقة لا تجعل فى الإمكان الاعتراض عليه.

كانت المديرة على ثقة من أنها لن تحاسب على التصريح للمسرحية. فلا يوجد بها شعب ولا حكام أو وزراء ولا تدخل خارجى يدعو للإصلاح، ولا كافة التفاصيل التى يفهمها المتفرج ويضيق المكان عن ذكرها. فن التحايل يمكنك أن ترتكب جريمة قول الحقيقة علناً دون أن تترك وراءك دليلاً، فتفوز بالبراءة لعدم كفاية الأدلة، ولكنك تصنف فى خانة المشبوهين للأبد!

استخدمت فكرة الفيلم الأمريكى

المناوى (جامع الفراشات) لأحولها إلى مسرحية تراجيكوميدى باسم (الحادثة). رجل معقد انطوائى وخجول يحب فتاة لم ترد. يخطفها فى سيارة ويحبسها فى مكان منعزل بدعوى أنه يمنحها بذلك فرصة لكى تحبه بعيدا عن تأثير الآخرين. وهى حالة سيكولوجية غربية لا يعرفها مجتمع الشرق، الذى يفهم أن يخطف رجلا امرأة ليغتصبها لا ليعطيها فرصة لتحبه!

لكن من قال إن المسرح يعرض الواقع فقط ويدير وجهه عن الحقيقة؟

والحقيقة هنا أنها حبكة شرقية تماماً إذا نظرت للخاطف كمعادل موضوعى لأى حاكم يخطف بلده ذات صباح مستخدما دبابة ويعزلها عن كل التيارات واثقا بجنون عظمة مريض أن الشعب سيحبه إذا أسكت الآخرين لأنه يرى نفسه أكثر الناس حبا لوطنه وبالتالى أصلحهم لحكمه. نجحت المسرحية رغم عدم واقعيتها لأن الجمهور رآها معبرة عن الحقيقة، ونجحت فى بيروت أيضاً. وعندما ذهب النص لبلد عربى قريب تمهيداً لعرضه هناك لم ترد الرقابة بالموافقة ولا بالرفض طبعاً!

ضمن مسرحية (تخاريف) يظهر جنى لشخص اسمه (سئيل) ويسأله عن أمنية يحققها له: فيختار السلطة، ويضعه الجنى على رأس بلد يدعى (أنتيكا) وبينما يصعد سلم قصر الحكم يرى معركة وقتلى فيسأل الجنى محتجا: هل ستضعنى فى الحكم بواسطة انقلاب؟ ويرد الجنى: وهل هناك طريقة أخرى لتصبح حاكما بلا سبب؟ وفى أقل من نصف ساعة يرى الجمهور كيف يتصرف الحاكم على مدى عشرين سنة. لم أفكر فى مسرحية تنتهى قيمتها بزوال هذا الحاكم أو ذاك، ولكنى كنت أصف طريقة التفكير - قبل السلوك - التى سيتبعها بلا شك حكام كثيرون سيأتون لعدد من السنين!

فى (تكسب يا خيشة) يموت رئيس ناد عين نفسه لسنوات طويلة وتجرى انتخابات لأول مرة ويتقدم لها مرشحون فاسدون. ويسخر منهم عضو فاسد مثلهم فيرشح (خيشة) فراش النادى ويساعده بكل السبل. وتنقسم الأصوات ويعطى البعض صوته عنداً للفراش، فيصبح رئيسا منتخبا. وتصبح زوجته الفراشة سيدة النادى الأولى ويتسبب بجهله وجنون العظمة الذى أصيب به فى خراب النادى. قال بعضهم إنى قصدت السادات: دائما تشغلهم السياسة، بينما كنت أقصد المنهج الفكرى الذى يسود منطقتنا شعوبا وحكاما.

مشهد ٣

التحايل على الرأى العام السائد

أقصد بالرأى العام هنا ما يشبه أعراف القبيلة. ولم أطمع يوما فى كسب كل الأطراف، لكنى لم أسع أيضا لخسارة كل القبيلة مادام التحايل قادرا على فضح تفكير القبيلة مع تجنب النفى خارجها. فالمسرح لا يوجد أبدا فى الصحراء.

كتبت ثلاثة مشاهد فى مسرحية (بالعربى الفصيح) مجموعة من الطلبة من ١٤ بلداً عربيا يعيشون فى بنسيون بلندن ويختفى أحدهم فيعتقدون أنه خطف وتعتقد الشرطة الإنجليزية أنه إرهابى حرق مكتبة وهرب. والمسرحية تناقش منهج التفكير العربى وعلاقتنا بالغرب، لكنى توقفت عن مواصلة الكتابة. قلت إن الرقابة لن توافق وكذلك لن يوافق مجموعة الطلبة العرب المقيمون بالقاهرة على تمثيلها. ثم أكملت كتابتها فيما بعد وأنتجتها بنفسى بهواة كلهم من المصريين، ولفت ما بها من نقد ذاتى انتباه المراسلين الأجانب. فكتبوا عنها ما يزيد على أربعين مقالاً فى صحفهم، وقالت بعض عناوينها إن المصريين أو العرب وأحيانا المسلمين (يضحكون لهلاكهم). كان غريباً أن يروا جمهور الشرق يضحك فى مسرحية تسخر بمرارة من انكساره وكذبه وضعفه وغباء منهجه الخرافى فى التفكير. واعتبرها أحد النقاد العقائديين (جلداً للذات) ولكن الناس ضحكت بشدة ورأيت مراراً بعض المتفرجين يضحكون ودموعهم تسيل فى نفس الوقت، وخرجت متفرجة منهكة من الضحك والبكاء معاً تتنكرنى على السهرة وتلومنى لأننى قسوت عليهم.

وهذا ما يجعلنى أفكر أن الكوميديا فعل مقاومة إنسانية ضد دواعى البكاء وما أكثرها فى حياتنا. وبهذه المناسبة هل يرفض الغرب مثل هذا النقد القاسى؟ لا أعرف. ولكن أحد المراسلين الغربيين الذين قابلتهم قال لى إن ما فعلته ربما كان صعبا أيضاً عندهم. المهم أن الطريقة التى كتبت بها المسرحية جعلت من الصعب على الرقابة أو الرأى العام رفضها فهى لا تتحدث عن الحكام العرب وإنما عن طلبة عرب. وسألنى كل المراسلين الأجانب هل يمكن عرض المسرحية فى بلد آخر غير مصر؟ وكنت أرد انتظروا وستعرف النتيجة. ورشحت وزارة الثقافة المسرحية للعرض فى مهرجان قرطاج بتونس وشاهدها رئيس المهرجان بالقاهرة، فأكد أنها ستنال الجائزة الأولى، لكن المستشار الثقافى التونسى أبلغ بلده أن بها شخصية طالب تونسى، وحاولوا إقناعى أن أحذف هذه الشخصية ليقبلوها فرفضت ولم تعرض، وتعاقد رئيس مهرجان جرش بالأردن لعرضها هناك، ثم اتصل بى يطلب حذف شخصية الأردنى وتكرر رفضى.

أما رقيب التليفزيون المصرى فقد رفض إذاعتها: فهل ثقافتنا يعبر عنها موقف وزارة الثقافة التى وافقت على المسرحية، بل ورشحتها لتمثل مصر، ثم اشترت حق تصويرها تليفزيونيا؟ أم ثقافتنا يعبر عنها موقف وزارة الإعلام؟

هذه هى التعددية كما نفهمها عندنا ولكن الغرب لا يفهمها! أو لا يفهمنا! نسيت أن أقول إنى بدأت كتابة المسرحية عام ١٩٧٠ وعرضت فى ٩١ ومازالت تتكرر عروضها سنويا بكثرة فى مسارح الجامعة والثقافة الجماهيرية وفرق الهواة والشركات. السبب أن الموقف على أرض الواقع لم يتغير!

فى مسرحية (أهلاً يا بكوات) يجد صديقان نفسيهما وقد عادا للماضى قرنين أى قبيل دخول نابليون مصر، ويحاول أحدهما أن يغير التاريخ مستنداً على معرفته بحقائق اليوم، ولكنه يفشل فى إقناع أهل الماضى بالتغيير حتى بعد أن يخبرهم بما سيحدث ويعدهم بمخترعات وأفكار لمقاومة نابليون، بل تقوده أفكاره للسجن. بينما يجارى صديقه أهل الماضى فى جهلهم فيفوز بمركز مرموق. وفى نهاية المسرحية يتكرر منظر حارة مصرية فى الماضى سبق أن رآه المتفرج، لكن البطل يسمع نداءات باعة صحف وأغانى تنبعث من راديو، فيختلط الزمن فى ذهنه، والواقع أن الزمن يختلط فى ذهن المتفرج نفسه



ويكتشف أن المشهد يحدث الآن فى الحاضر، وأنه لا توجد مفاجأة أو خلطة. فشكل الحارة فعلاً لم يتغير منذ قرنين. التحايل هنا بصرى أيضاً. والرسالة واضحة، فالبطلان لم يعودا للماضى لأننا مازلنا نعيش فيه. فكرة المسرحية تعود لعام ٨٢ وعرضت فى يناير ٨٩ وكانت التيارات السلفية تستعد لتعلن عن نفسها بوضوح. وصلت للمسرح خطابات تهدد بحرقه وشد رئيس الوزراء على يدى بعد العرض، وقال لى: خد بالك من نفسك! أما وزير الداخلية فصعد على المسرح بعد عرض فى حفلة أخرى وخطب فى الجمهور قائلاً: إن المسرحية تثبت أن عندنا حرية رأى!

فازت المسرحية بتأييد كل النقاد تقريباً. لكن ما أسعدنى أنها أكثر مسرحية فازت بجمهور منذ تأسيس الفرقة عام ٨٥ وحتى هذه اللحظة وأعيد تقديمها أربع مرات.

دعتنى الدكتورة ماريما كوتزعانى وهى يونانية تقوم بالتدريس فى جامعة أمريكية لكتابة مقال عن كيف أتخيل مسرحية «ليسستراتا» لأريسطوفانيس على المسرح العربى الآن. كتبت المقال وضمنته تصوراً لمعالجة المسرحية ثم وجدت نفسى أكتبها فعلاً باسم (سلام

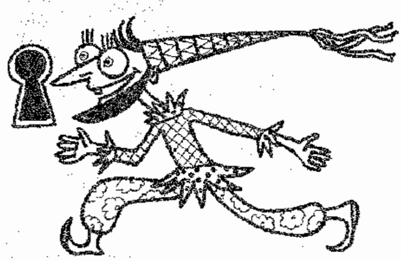
سألت زوجتى مديرة الرقابة بعد البروفة النهائية هل هناك اعتراضات؟ فردت بحيرة بأنه - أى أنا - يكتب كل ما يريد بطريقة لا تجعل فى الإمكان الاعتراض عليه.

لم أطمع فى كسب كل الأطراف، لكنى لم أسع لخسارة كل القبيلة مادام التحايل قادراً على فضح تفكير القبيلة مع تجنب النفى خارجها. فالمسرح لا يوجد أبداً فى الصحراء

صعد وزير الداخلية على المسرح بعد العرض وخطب فى الجمهور قائلاً: إن المسرحية تثبت أن عندنا حرية رأى!

النساء) بلا هدف سوف تقديمها للرقابة لكى تكون إجابتى على بعض أسئلة مارينا واقعية. وجعلت الأحداث فى بغداد قبيل الحرب الأمريكية على العراق وجعلت البطلة عراقية تتفق مع سيدات من أمريكا وبلاد غربية أخرى جئن للتظاهر ضد الحرب - كما حدث فى الواقع - وبدلاً من جوقة الرجال العجائز عند اريسطوفانيس أصبحوا جوقة من قوات مكافحة الشغب.

رحبت بالمناقشات الطويلة بين جوقة الرجال والنساء فى المسرحية الإغريقية حول أفضلية كل منهما. فهو موضوع الساعة فى الشرق وأضفت عليه المنطق السارى الآن. ولكنى فى مسرحيتى لم يتفق المسئول العراقى مع نظيره الأمريكى على السلام، بل اتفقا ضد نساء البلدين. أما نساء الشرق والغرب



فرغم اتفاقهما على السلام وتجاهلهما الخلافات السياسية فقد تعاركا حول الشروط الثقافية. ويمكن أن تسمى أيضا الأخلاقية. إنه الواقع الحادث الآن.

كان أمراً كوميدياً أن يأتى الهجوم من المعارضة اليسارية. قالوا بثقة إن الحكومة كلفتنى بكتابة الفيلم (الإرهابى). هل هو التباين الثقافى بين الشرق والغرب؟

كانت مارينا قد سألتنى: هل توافق الرقابة على المسرحية وهل يمكن أن أستحين بفكاهات اريسطوفانيس الجنسية؟

الإجابة نعم ولا. فهنا بعض التباين الثقافى ليس لأن الناس عندنا أكثر أدبا، ولكن لأن بعض الجمهور لا يحب أن يسمع فى المسرح ما يقوله الناس أو يقوله هو شخصياً فى الحياة. عدت إلى نص المسرحية المترجم للعربية ووجدت أن المترجم قام بالفعل بتهذيب بعض جمل الحوار التى رآها غير مهذبة فاعتبرتها نوعا من الرقابة ألزمت نفسى به.

واستعنت ببعض فكاهات أريسطوفانيس وهذبت بعضها متحصنا باللغة الفصحى التى كتبت بها للمرة الأولى، لأن تجريدها تجعلها توحى بالمعنى أكثر مما تصرح به.

ولكنى لم أفرغ المواقف الجنسية من معناها، وحتى فى الحركة استخدمت التلميح بدلا من التصريح وقد وصل المعنى للمتلقى، ووافقت الرقابة بعد أن استعانت بلجنة من المثقفين والأكاديميين.

كان من المستحيل أن توافق فرق القطاع الخاص على عرض مسرحية مثل هذه وكان من الصعب أيضا أن تقبل فرقة من فرق الدولة الموافقة على عرضها. لكن المستشار الثقافى اليونانى بالقاهرة عرض أن تتكفل الجالية اليونانية بإنتاجه. وكان منطقيا أن أتصدى لإخراج العمل بنفسى وأقدمه بمجموعة من الهواة. وهنا عرفت الرد على أسئلة مارينا الخاصة بالعرض، ومنها سؤال هل أجد ممثلات يقبلن بتمثيل أدوارها؟ كان من الصعب أن أجد بين الممثلات الهواة - خاصة فى أدوار الأجنبيات - من ترضى أن تظهر بملابس تظهر أجزاء كثيرة من جسدها. وحتى لو وجدت فهناك حد ستعترض الرقابة عنده. لذلك فعلت ما كان يحدث فى المسرح الإغريقى وأسندت أدوار النساء الأجنبيات لممثلين رجال! وقد قال لى بعض المثقفين إننى بتقديمى الأجنبيات بملابس عارية رسخت الصورة المشوهة للغربى فى ذهن جمهورنا. فقلت إنى أعلم أنها ليست الواقع تماما، بل إن من سافرن للتظاهر ضد الحرب - بصفة خاصة - يلبسن غالبا ملابس خشنة، ولكنى تعمدت أن أساير صورة المرأة الغربية فى ذهن المتفرج لكى أعادل منطقها عندما تدافع عن حرية المرأة العراقية أكثر من العراقيات! والحقيقة أن من تدافع عن حقوق المرأة لا يمكن أن تستثنى حقها فى اختيار ملابسها.

كان اختيارى اللغة الفصحى لكتابة الحوار هو فى حد ذاته فارق ثقافى داخلى - إن صح التعبير. فلا يتقنها حتى أغلب المتعلمين. حتى إنهم يترجمونها للعامية فى أذهانهم، لكن عملية الترجمة العقلية تقلل من خشونة وقعها على الأذن باللغة المتداولة. فى الواقع كان الرأى العام ضد الحرب الأمريكية على العراق، وهو موقف سليم فى رأيى، ولكنه لم يأخذ أى موقف ضد صدام حسين طوال فترة حكمه، وهو موقف متناقض. وكذلك تسمية عمليات القتل المسلحة التى تفتك بالعراقيين قبل الأمريكيين: أعمال مقاومة. وفى هذا الجو تصبح الدعوة للسلام نوعا من الخيانة. لكنى ارتديت قناع اريسطوفانيس لأطرح المسألة بشكل مختلف. كانت مارينا قد سألتنى هل مسرحية اريسطوفانيس سياسية أم جنسية؟ وأعتقد أنها لو كانت سياسية لما عاشت كل هذه القرون. وقد حاولت أن تكون مسرحيتى فكرية مثل مسرحيته، لا سياسية.

ورغم إعجاب الجمهور والنقاد بالمسرحية، لكنها لم تسلم من بعض العقائديين. كتب أحدهم يسأل لماذا أتدخل فى شئون العراق؟ والمضحك أن أمثاله يعتبرون أن بلد عربى شقيق إلى حد أنهم يظهرون الحماس للحرب فى صفة باعتبارها قبيلة واحدة. أما كبير المراسلين الغربيين الذى يعيش فى مصر من عام ١٩٥٤ وهو ألمانى فقد قال لى «لقد جرحت الكل هذه المرة، الغرب والشرق معا ولم تترك أحداً» كانت شخصية المرأة الألمانية فى العرض تحتضن كلبها دائما كأنها استغنت به عن الرجال.

هل رأى المراسل يعد شوفينيه غربية؟ أم ترى سببها إقامته فى مصر لنصف قرن؟

مشهد ٤

التحايل على الجمهور

اعتبر الجمهور هو الجزء غير النشط من الرأى العام. كيف أكتب لهم ما أريده بحيث أحصل على اهتمامهم قبل إعجابهم وأمسكهم فى مقاعدهم وأحبس أنفاسهم وأدفعهم إلى الضحك والأسى وبعدها لا يهم إذا أيدوا وجهة نظرى أم لا؟ وقد وصف كاتب شهير هو أنيس منصور طريقتى فقال (إنه يزغزغ المتفرج بسكين).

فى فيلم الإرهابى عاش المتطرف فترة وسط أسرة لا تعرف حقيقته وفى لحظة كان منفرداً مع شابة من الأسرة راحت تلاعبه الورق مرتدية شورتا ساخنا ويعقل مريض ظنها تدعوه لممارسة الجنس، ولكن بمجرد أن مد يده نحوها صفعته بقوة، فتراجع مذهولاً. كنت أتوقع ما قاله بعض المشاهدين بضيق من أن الفتاة مخطئة لأن الشورت كان ساخنا. لكنى واثق أنهم سينسون الفيلم بعد قليل، بينما اللقطة سابحة فى الذاكرة فى مؤخرة الدماغ، وعندما يشاهدون فتاة مثلها لن يحكموا بسرعة على أخلاقها ولن يفكر أحدهم أن يمد يده نحوها. لن يتذكروا الصفعة تحديدا ولكن من المؤكد أنها ستكون عندئذ السبب.

كان القلق أن يخاف الجمهور من الذهاب للسينما أصلا. فالإرهاب كان يحرق بعض دور السينما والمتاجر التى تبيع أشرطة الأفلام، لكن الناس راحت بكثرة وضحكت بالفعل. وقصرت إيرادات النجم عادل إمام إلى الضعف تقريبا. ونال جائزة أفضل ممثل لأول مرة. واعتبرته الميديا بطلا بكل المقاييس. لكن

الأمر لم يسلم من هجوم البعض، ولكن على المؤلف وحده! وكان أمراً كوميدياً أن يأتى الهجوم من المعارضة اليسارية. قالوا بثقة إن الحكومة كلفتنى بكتابة الفيلم (الإرهابى). هل هو التباين الثقافى بين الشرق والغرب؟ وماذا لو قلت إن ناقداً أمريكياً كتب فى مجلة تصدر عن الجامعة الأمريكية مردداً خلف جوقة اليسار نفس القول؟

مشـــهـــد ٥

التحايل على النفس

عندما بدأت الميديا تخلط بين الكلمات ومن يؤدى الكلمات وصدقها المؤدى، وقع الانفصال بينى وبين شريكى الممثل. فقد أراد أن يمثل دور الكوميديان ودور المؤلف أيضاً كباقى النجوم. وواصلت أنا الإنتاج وحدى من عام ٩٣ بل قدمت عدداً أكثر من المغامرات المسرحية والتجريبية وكان الدخول أحياناً مجاناً. وتحملت خسائر كثيرة. لماذا؟ ربما من قبيل التحايل على نفسى. لكى أحصل على رضاها واحترامها.

وكنت قد عرفت أن أفضل وسيلة للتحايل على نفسى إلا أكون كاتب مسرح، فهى مجرد مهنة، ولكن أن أكتفى بأن أكتب مسرحيات حقيقية وهى عمل غير دائم ولكنها طريقة لاحتمال العيش فى الدنيا. واكتشفت أن الكتابة تكون حقيقية عندما أشعر بالحيرة لا باليقين الكامل فيدفعنى قلقى بأن أجسده مسرحياً وأنقله إلى الجمهور بطريقة يتحملها.

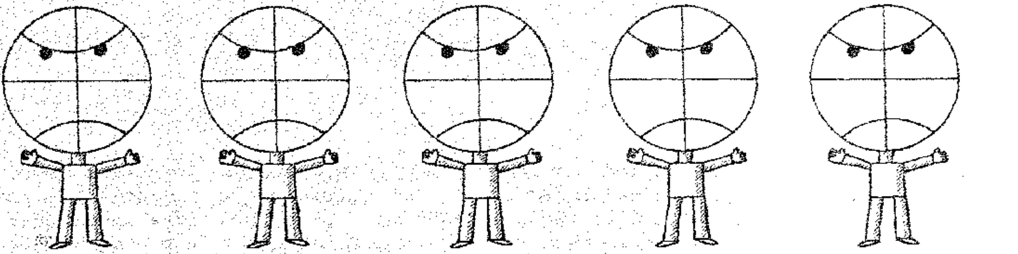
بعد عرض لمسرحية (أهلاً يا بكوات) سألت أحد النقاد عن رأيه فرد بأنه يحتاج أن يرى العرض ثانية. وتكرر هذا من عدة نقاد. وعرفت السبب عندما كتب أحدهم أن وجهة نظرى مهزوزة ومشوشة وأن هناك ارتباكاً فكرياً فى العمل. عندئذ فهمت أنهم كانوا يشاهدون العرض ثانية لأنهم لم يتأكدوا من البطلين فى المسرحية هو لسان المؤلف. وكان أحد البطلين مثالى والآخر نفعى. وعندئذ ابتسمت فى رضاء، فالمتفرج العادى لا يسأل هذا السؤال، لأنه قد شعر بصدق ما رآه يسأل نفسه أسئلة كثيرة لكن حول حياته وحول الحياة بشكل عام. ولأنى لم أطمع أن أضم المتفرج لعقيدة أو لحزب ما، فإن إثارة الأسئلة تكفينى، فلقد قررت منذ زمن بعيد ألا أفكر فى تغيير العالم.

خـــــــروج

فى عام ٨٧ بمهرجان فيفاى بسويسرا للأفلام الكوميدية منح الجمهور الأوروبى - وليس لجنة تحكيم - الجائزة الأولى وهى عصا شارلى شابلن الذهبية لفيلم (البداية) الذى كتبت له السيناريو والحوار. واندهشت، فالجمهور شاهده مترجماً للفرنسية، وبالتالى فاتهم الكثير من المعانى التى تثير الضحك ولكنها تستعصى على الترجمة. لكن بما أنهم ضحكوا ومنحوا الفيلم الجائزة، فمعنى هذا أنهم فهموا ما يكفى ليتجاوزوا التباين الثقافى.

بقى أن أقول إن الفيلم قبل أن يحرز الجائزة الذهبية فى سويسرا، وجائزة النقاد من مهرجان فينسيا وجائزة الشرف من المركز الكاثوليكى المصرى.

إذن البشر فهم البشر بغض النظر عن تباين الثقافة والمبادئ. فقد عندما نخاطبهم فنياً كبشر، فالبشر وجدوا قبل أن يكون لهم ثقافات محددة ما تلبث أن تتغير من زمن لآخر. وفن الكوميديا وسيلة عظيمة لتجاوز هذا التباين، ومجالها ليس هو التحديد الثقافى أو الأيديولوجى. وليس هو الدعوة إلى قيم معينة بشكل مباشر مهما كان نبلها. إنما الصدق هو ما يضحك، رغم أن وسيلته هى الخيال واللامعقول. والكوميديا وهى تثير فينا الضحك - والأسى أيضاً كما ينبغى لها - توحى وتلهم وتحرك فينا مشاعر عميقة وبركاناً من الأسئلة وهى تصور الإنسان، ذلك المخلوق الذى يثير فينا الإعجاب به. وفى نفس الوقت مشاعر الخوف والشفقة عليه، فيحدث التطهير الذى تحدث عنه أرسطو فى كلامه عن التراجيديا. والتراجيديا هى خلفية اللوحة القاتمة التى تتناثر فوقها كل ألوان الكوميديا. ■



لا هو «كون نيوتن» ولا «إنسان داروين»

لاهوت الأرض

مصطفى المرابط

تبدو مطالع القرن الواحد والعشرين فترة مخاض، ترتب فيها القسمات النهائية لوجه الحضارة المعاصرة. إن ما حبلت به من أحداث، والتي كانت في كثير منها امتدادا لما عرفه القرن الماضي من تحولات، عجلت بالكشف عن معالم وملامح عالم الغد. إنها مرحلة يمكن اعتبارها الخلاصة النهائية لتجربة الغرب التاريخية، بمعنى أنه لا يمكن أن نحسن قراءة مجريات هذه الأحداث إذا بترناها عن سياقها التاريخي. فما يموج به عالمنا من تحولات وأزمات لا يمكن فهم أسبابها إذا تجاهلنا جوهرها وطبيعة الحضارة المعاصرة. إن مجموع هذه الأسباب تجد جذورها في طبيعة النظام الدولي الذي أرسى الغرب أسسه منذ خمسة قرون على الأقل.

لم يعد من العسير ملاحظة وجهة العالم المعاصر، حيث يتحدث عنها تيار كبير من حكماء العالم بنبرة تشاؤمية حادة ولا يترددون في وصف مآلها بالمأساوية أو الكارثية، وحتى بالانتحار الكوني، إذا استمرت وتيرة التطور في هذا السياق وعلى هذا المنوال. من هنا تبدو أهمية تلك المراجعات الشاملة التي تعرفها الثقافة الغربية على كل المستويات الفكرية والفلسفية والعلمية والفنية، وما صاحبها من مطارحات ومناقشات حول الجذور المعرفية والأيديولوجية للثقافة المعاصرة والتي غالبا ما تشير بأصابع الاتهام إلى الأسس الإبستمولوجية والآليات الذهنية التي ترتكز عليها المنظومة المعرفية الغربية.

إن الإنجازات التاريخية المهمة التي راكمتها التجربة الأوروبية والتي كانت وراء ولادة الحضارة الغربية، دفعتها إلى أن توجد نظاما يعطي معنى لهذه التراكمات ويفسر ويبرر هذه الإنجازات، لأن النموذج الأوروبي، كما يلاحظ وليد نويهض، قد «تراكم تاريخيا حتى تكونت الصورة واكتشفت أوروبا نفسها بالنموذج الذي كونته». إن هوية أوروبا لم تصبح ممكنة إلا بعد أن انتظمت تراكماتها التاريخية في نسق نظري سمح لها بأن تحدد معالم شخصيتها وتحدد لنفسها مشروعا ذا نزعة عالمية، تهدف من خلاله إلى إعادة إنتاج العالم (الكون والطبيعة والإنسان) على صورتها ومثالها.

إن هذا الأساس المعتقدي النظري هو الذي سيشكل المحضن الثقافي لولادة الإنسان المعاصر. إن المشروع الذي ولد في خضم التحولات التاريخية التي عرفتها أوروبا سيجعل منها حالة استثنائية في تاريخ تشكل الحضارات.

إن الدراسات الإثنولوجية أوضحت لنا أن لكل ثقافة خصوصيتها في تشكيل تمثلات تهيكل رؤية الإنسان للعالم، وهذه التمثلات تترسب في قاع «العقل الجمعي» لتشكيل ما نسميه ببنيات التخيل الجمعي أو المخيال بالمعنى الذي أعطاه له كاستورياديس، حيث لا يعتبر المخيال صورة أو انعكاسا لشيء ما، بل ذلك الذي «يخلق بشكل متواصل ولا محدود الأشكال والصور... إن ما نسميه الحقيقة أو العقلانية هما من نتاج هذا المخيال». إن استنطاق المخيال الغربي هو الذي سيمنح لنا مفتاح فهم الصورة التي كونها عن نفسه والتي سمحت له بأن يعيد صياغة العالم بما يتناسب واتجاهه العام.

كيف تشكل هذا المخيال؟ ما هي الروافد التي ساهمت في بنائه؟ كيف يشتغل؟.. إنها جملة من الأسئلة قد تكون حافزا يساعدنا على فهم طبيعة الحضارة المعاصرة وسياق تطورها، والوقوف على مصادر التحيز ومستوياته، لأنه إذا أردنا أن نفهم «العالم فهما صحيحا، فمن المهم أن نعرف المصدر الحقيقي للأفكار التي تحكم هذا العالم وأن نفهم معانيها».

سنحاول من خلال هذا الموضوع أن نركز على بعض اللمسات الأساسية التي ساهمت في بناء وتحديد هوية لأوروبا، والتي نعتبرها كاشفة لمعالم التحيز، في شكل ترسيمات مختصرة.

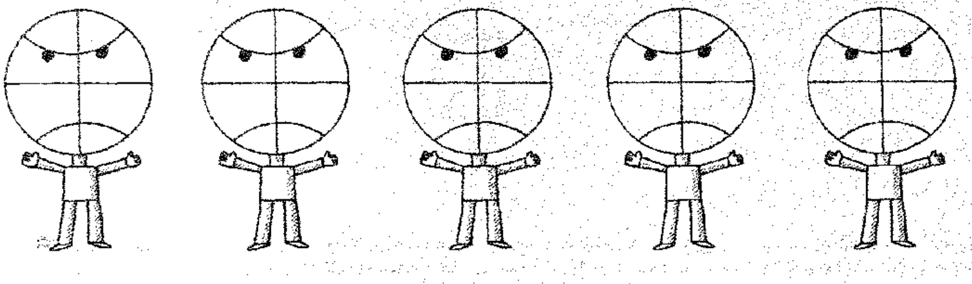
سيعمل الغرب في بداية تأسيس ذاتيته على استعادة التراث اليوناني ليجعل منه قاعدة صلبة وأساسية لحمل مشروعه. تبرز لنا من خلال هذا التراث قاعدة شهيرة، تقول بأن الإنسان مركز ومقياس كل شيء، وستحدد هذه القاعدة رؤية هذا المشروع لطبيعة ومكانة الإنسان وعلاقته بالأطراف، وستفضي إلى الواجهة مقولة الصراع كثابت من ثوابت هذا المشروع، تحدد طبيعة هذه العلاقة في عناوين ثلاثة:

- صراع الإنسان مع الله
- صراع الإنسان مع الطبيعة
- صراع الإنسان مع الإنسان

معالم في تشكل النظام

إن الإنجازات التاريخية التي راكمتها أوروبا حتى القرن السادس عشر (الاكتشافات الجغرافية، فتح أمريكا، سقوط الأندلس، تراكم الثروات، انطلاق حركات الإصلاح الديني، اكتشاف الآلة البخارية، التحولات الاجتماعية والسياسية..) جعلتها تكتشف في نفسها قوة عالمية لا محدودة، مما سيسمح لها بعدئذ بالعمل على اختراع صورة وهوية سيتم تفصيلها على مقاسات متطلبات المرحلة. إن هذه القوة «الماردية» التي استيقظت من أنقاض الظلام والجهل والاستبداد والتجزئة والاستعباد، وهي المعالم التي وسمت مرحلة ما يسمى بالقرون الوسطى في أوروبا، ستجد طموحاتها محدودة بسقف الكنيسة ومكبلة بنظامها. ويعتبر هذا الأمر أحد العوامل الأساسية التي عجلت بنشوب الصراع بين القوى الصاعدة والكنيسة.

إن هذه التحولات التي عرفتها أوروبا، ستبين أن الكنيسة باعتبارها سلطة روحية وزمنية قد استنفدت أغراضها، ولم تعد قادرة على التعبير، لا عن متطلبات المرحلة الجديدة، ولا عن طموحات القوى الجديدة الصاعدة. إن هذه المعركة الحاسمة التي تعتبر نقطة فاصلة في تاريخ أوروبا، ستلقي بظلالها على مجمل أبنية المجتمعات الأوروبية، العقدية والفكرية والنفسية. إن نتائج هذه المعركة التي حسمت لصالح القوى الصاعدة على حساب الكنيسة، ستسمح بإعادة ترتيب البيت الداخلي، وذلك بإكمال هيكلة البنيات الذهنية، فقد تم تطليق صورة العالم، عالم الكنيسة، لتحل محله صورة جديدة لا تمت بصلة إلى العالم القديم. إن هذا لا يعني أن القوى الجديدة قد ألغت الكنيسة وقطعت معها، بل العكس هو الصحيح، إذ أن الثورة ضد الكنيسة لم تكن تقويضا وإلغاء لثوابتها، بل إنقاذا لها، لأن الكنيسة، كما لاحظنا، في ظل تلك التحولات كانت قد استنفدت أغراضها، ولم تكن الأحداث والتطورات اللاحقة إلا إيذانا باقتراب موتها وانتهائها. فلم يكن الصراع مع الكنيسة إلا من أجل استعادة تلك الثوابت منها وإنقاذها بتوظيفها في سياق الحركة التاريخية الجديدة، ولعل هذا ما



توحى به أبعاد الحركة البروتستانتية (القرن السادس عشر) التى بدأها لوثر ثم كالفن. فلم تكن هذه الثورة إذن، قطيعة مع تلك الثوابت، بل كانت وسيلة لاستمرارها فى إطار جديد وسياق مغاير. ولقد لاحظ حسن الضيقة فى قراءته لتجربة الإصلاح الدينى بأن اللوثرية أصبحت «على ضوء مقولتها الجديدة هذه، محاولة لإنقاذ المسيحية فى ظل الوضع التاريخى الجديد الذى ولجته أوروبا الحديثة، فقد قبلت اللوثرية بالانسحاب من مملكة الأرض لصالح قوى المجتمع الجديدة، مكتفية بالدور الموكل إليها فى صيانة المولود الجديد وسد ثغراته المختلفة على مستوى توفير أيديولوجية قاعدية حاضنة لقوى السلطة الجديدة».

إن الذى تم القطع معه، هو تلك الأشكال التى كانت تتمظهر من خلاله تلك الثوابت وتعبر بها عن نفسها. لقد انسحبت من الواجهة لتستقر فى الكواليس، ومن دنيا الناس وواقعهم إلى أعماق الوعى الجمعى ومخيالهم. إن الذى يجب التأكيد عليه فى هذه الحالة، أن «بنيات دين الكنيسة (المسيحية) اكتسبت حركية عميقة وابتدائية إلى درجة أنها استمرت فى طبع مصير الثقافات الأوروبية والتأثير فيها»، وهو نفس المعنى الذى «ذهب إليه هيجل، حيث يرى أن دخول المجتمعات العقلانية فى الأزمنة الحديثة، أزمنة العلوم والتقنيات والتصنيع، لا يعنى اختفاء المسيحية بقدر ما يعنى تجذرها»، وذلك ما سيبرز من خلال الوظيفة التى أسندت إلى المسيحية فى إطار مشروع أوروبا الجديد، حيث ستتحول من دين إلى أيديولوجية تبريرية فى خدمة إرادة السيطرة. ومع هذا الانقلاب فى وعى المجتمعات الغربية فيما يخص مسألة الدين، سيمهد الطريق نفسيا وفكريا لولادة دين جديد بإله جديد، يحل محل دين الكنيسة وإلهها. ففى هذا السياق ستسعى أوروبا إلى إعادة بناء عالم الكلمات والأشياء، من هنا سيُلتفت إلى الإنسان لإبراز تفرده وتميزه بخاصية العقل. أليس العقل هو الذى جعل من الإنسان مركزا ومقياسا لكل الموجودات؟

إن الإيمان اللامحدود بقدرة العقل وقوته، والذى كان يطلق عليه نيتشه بحق صنم الفلاسفة الأكبر، سيدفع الغرب إلى أن يجعل منه إلها جديدا ليحقق بذلك الحلم الفاوستى الذى بشر به مارلو بصرخته المشهورة: «أيها الإنسان، بدماغك القوى كن إلها، ومعلما وسيدا لكل الموجودات».

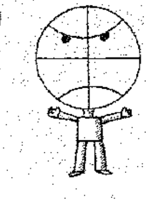
سيعمل هذا الإله الجديد على الحفاظ على نفس الطقوس التى كانت الكنيسة تحيط بها الله، ونسبتها إليه وإدراجها لصالحه، بحيث يحق لنا القول بأن «عبادة العقل فى الغرب أصبحت شكلا لائكيا للدين». عندما تربع العقل عرش الألوهية، أصبح روحا لهذا العالم ومحيطا به، فهو ومن فيه ملك له. فلا يستطيع أحد أن يحيط بشىء إلا بواسطة قدرته، إنه بكلمة، أصبح روح الثقافة الجديدة ومحورها. ونفخ فيها روح الاكتفاء، بمعنى أنها لم تعد فى حاجة إلى مدد خارجى أو الاستعانة بأى مصدر آخر. فقد تمت «وضعنة» هذه الثقافة أو بالأصح علمنتها، عندما قُطعت عن مصادرها المتعالية. فعملية العلمنة جوهرية فى تشكيل النظام الغربى، فهى ملازمة لانفراد العقل بمركز الإله. فبعد تحطيم البنى الذهنية التقليدية الكبرى، تمكن العقل/الإله من خلال العلمنة أن يجرد الطبيعة من أبعادها الروحية والسامية، وينفخ فى الإنسان مجموعة من الاستيهامات، أبرزها الاستقلال والاكتفاء. وفى هذا السياق فإن العلمنة حسب عبد الوهاب المسيرى «ليست مجرد فصل بين الدين والدولة كما هو ذائع فى الكتابات الغربية والعربية، إنها بالأحرى إبعاد للقيم المطلقة، إبستمولوجية وأخلاقية عن العالم، إلى حد أن هذا العالم بأكمله، الإنسان والطبيعة على السواء، يصبح هدفا نوعيا يستعبد وينتفع به». إن روح الاكتفاء هذه، ستخترق كل نسخة الثقافة الجديدة، لتستقر فى أعماقها ولتطبع بعدئذ كل تجلياتها على كل المستويات. ونذكر فى هذا الصدد تلك المحاورة المشهورة التى دارت بين نابليون ولابلاس، عندما أهدى هذا الأخير لنابليون مؤلفه الشهير، la mécanique céleste، قال نابليون: «قمت بكل هذا العمل العظيم دون أن تذكر ولو مرة اسم مؤلف (أى مبدع هذا الكون)». فبادره لابلاس بهذا الجواب: «لم أكن يا سيدى بحاجة إلى هذه الفرضية».

سنجد أن هذا التصور كان قاسما مشتركا بين جهابذة فكر النهضة، مرحلة التأسيس، ليستمر بعد ذلك فى التمظهر بشكل أو بآخر على مدى التاريخ الحديث والمعاصر. هكذا نجد داروين مثلا يستعيد هذا التصور ليعيد توظيفه فى تفسير عالم الكائنات الحية، الذى ظل لقرون مستعصيا على تطويعه لمنطق الإله الجديد الذى يلغى اللجوء إلى الغايات لتفسير الظواهر الطبيعية، فهو يرى (أى داروين) أنه «من العبث الاستناد إلى فكرة الله» لتفسير هذه الظواهر. يبدو إذن، أن المهمة الأساسية فى تجذير الوهية العقل، تتجلى فى إقصاء الأبعاد الغائية من الطبيعة، والقطيعة مع النظرة التى تستحضر الغايات لتفسيرها، وإضفاء المعنى على الحياة، ذلك ما سيعبر عنه سبينوز بشكل جذرى، حينما يرى أن «فى الإيمان بنوع من الغائية أو القصدية التى تدير الطبيعة وتوجهها، يكمن العائق الأساسى أمام المعرفة العلمية». إن دور العقل الذى تمخض عن الثورة العلمية التى عرفها القرن السابع عشر، لم يقتصر على تفسير وحل رموز الكون فى لغة علمية، بل تحول إلى إله لا يقبل بغيره فى الإحاطة بكل شىء. فدور العقل وأهميته ليس جديدا ابتدعته الحضارة الغربية، فقد سبق أن عرفته الحضارات الأخرى بشكل أو بآخر. بل الجديد مع الحضارة الغربية هو إضفاء سمة الألوهية على العقل الذى جردته من الأبعاد الغائية، وفصلته عن العالم المتعالى. إن الأمر لا يتعلق بابتكار فكرة العقل ووظيفته، إنما «باستعمال وتوظيف جديدين للعقل، يستوجب طرد وإزالة الأسباب الغائية».

يتحدث داريوش شايغان عن مآلات هذا المشروع بدقة ملفتة، حيث لاحظ أن «هذه الحضارة مسئولة منذ خمسة قرون عن النمو السرطانى للملكات الذهنية للإنسان، والتى عملت على كبت صوت الروح بإقصائها وإلقائها فى كواليس اللاوعى. إن هذا الكبت جعل من الإنسان كائنا عصابيا، أحيانا لطيف ومجامل، ولكنه غالبا ما يكون خطيرا».

إن هذا الإنجاز الذى يعتبر سابقة فى تاريخ الحضارات، لم يستكمل شروط الألوهية إلا بإيجاد واسطة تتجسد فى مؤسسة جديدة، تعبر عن إرادة العقل/ الإله وقدراته وقوته. لابد من وحى جديد ليترجم عقيدة هذا الإله الجديد. لذلك سوف لا يتوانى فكر النهضة فى استنفار كل إمكانياته لتثبيت هذا الأساس الفلسفى للحضارة المعاصرة. سيلتقط فكر النهضة العلمَ ذلك الطارئ الجديد، ليجعل منه وحيا جديدا يتحدث من خلاله العقل/ الإله. سيصبح العلم فى هذا السياق مؤسسة كهنوتية تحل محل الكنيسة. إنه الدين الذى سيوحى به العقل/الإله. ومع هذه الانعطافة ستصبح هذه الديانة الجديدة مصدرا وحيدا للمعرفة. فمنذ ما يزيد على ثلاثة قرون، يقول على الشامى، «والعقل الغربى يتجه بصورة ملحوظة لإلغاء أى معرفة لا تصدر عنه. فالعقل الإنسانى هو الأصل والوحى هذيان وبديهى أن ترتكز مقولة رجحان العقل على السببية الإلهية على العلم بوصفه أداة هامة يستخدمها العقل لإثبات غياب الحضور الإلهى عن العالم». إن العلم لم يعد يقتصر فقط على التأمل والتنظير والتفكر والملاحظة والتجريب، بل يقوم أيضا وأساسا على التحكم والمراقبة وإعادة بناء عالم الأشياء. إن هذا العلم عندما تحول إلى مؤسسة معتقدية (ما سيطلق عليه بالعلموية)، كان قد غادر ذلك الإطار الذى كانت تضعه فيه الثقافات السابقة لفكر النهضة، حيث كان مسندا بفكر المقاصد والحكمة. وبتحوله إلى علموية، أصبحنا أمام خرافة أو أسطورة تتصف بنوع من التمامية (integrism) حسب تعبير رجاء جارودى، وتزعم «أنها قادرة على حل كل المشاكل، وما لا يخضع للقياس والتجريب والتنبؤ فهو غير موجود. إن هذا العلم الوضعى الاختزالى يقصى أبعاد الحياة الأكثر سموا كالحب والإبداع الفنى والإيمان». وبهذا المعنى يعتبر العلم بدون منازع «أقوى وسيلة ابتكرها الإنسان لينافس بها الله». واستمرارا على هذا التصور، يكون العلم قد ابتكر هوية وجودية تتمحور حول المادة، بمعنى أن المادة هنا ليست ذلك المكون الأساسى للأشياء، بل هى كل شىء. وليس هناك غير المادة. إنها جوهر الوجود. بل هى الوجود نفسه. فهى تشكل إذن العالم الوحيد الذى يحظى باعتراف الديانة الجديدة (العلم)، لأنها تمتلك لغة التواصل، التى لا يعرف العلم غير سواها من قياس ووزن وتكتل وتجسيم ... إن المادة فى تصور الديانة الجديدة أصبحت محورا استقطابيا يتحكم فى بنية العلموية، بحيث تصبح كل مكونات هذه البنية مربوطة إلى هذا المحور. وبهذا تكون المادة قد اكتسبت مرتبة شرفية جديدة. إنها، بكلمة، أصبحت «أم كل الأشكال». من هنا تبدو أهمية مركزية مفهوم المادة فى الحضارة المعاصرة، فهو الذى يمنح لها انتماء وبدونه تفقد هذه الحضارة معنى وجودها. وذلك ما خلص إليه جان بول شارنى حين قال: «إن المادية أو بمعنى آخر الاعتراف بالمادة أصبح ثابتا من ثوابت الغرب».

بعد إرساء هذه الأسس



العقدية سينطلق الغرب لإعادة بناء العالم وفق تلك المقاسات التي حددناها سابقا: العقل/الإله، العلم/الديانة، المادة/الوجود. إن مشروع العقل الغربي الذي ستحمله مؤسسة العلم، سيعمل على إعادة تفسير العالم لضبطه والتحكم فيه وامتلاكه، وبالتالي إخضاعه لإرادة الإله الجديد، «ولم يكن بالإمكان إدخال الضبط والتحكم في العالم الموضوعي الذي حدده العلم إلا إذا تم، وبشكل منهجي، إفراغه من أي معنى ومن أي نظام خارج الإنسان، سواء كان نظاما ميتافيزيقيا أو دينيا. وبالتالي يجب استبدال تلك الروح التي كانت تملأ العالم بنظام إنساني جديد وإدخاله في كل مكونات هذا العالم».

فما هو إذن هذا النظام الإنساني الجديد الذي سيحل محل النظام الإلهي؟

الولادة الثقافية

إن إقصاء الله عن حياة البشر وتربع الإنسان بعقله مكانه، وإقصاء الدين / الوحي كواسطة بين الله والإنسان، وتعويضه بمؤسسة العلم باعتبارها مصدرا وحيدا للمعرفة، وإفراغ العالم من المعنى والغايات، وملئه بالمادة كـ«روح» يصدر عنها كل شيء. كانت النتيجة المنطقية لهذا المسلسل هي إعلان موت الإنسان. فموت الإنسان هو نتيجة حتمية لموت الإله، وموت الإنسان هنا يعني تجريده من كل الأبعاد الأخرى غير البعد المادي، وبمعنى آخر: إن الذي مات هو ذلك الإنسان المتسامي الذي بشرت به كل الرسالات السماوية. وهذا لم يكن ممكنا إلا بعد أن تم انتشاله من النظام الإلهي الذي كان يضفي عليه تميزه وتفرده، ليرتمي به في أحضان نظام إنساني جديد أطلق عليه نيتشه اسم العدمية «nihilism».

إن دين العلم الذي تستند إليه العدمية لا يعترف إلا بحيوانية الإنسان، أي البعد المادي فيه، ومن هنا إصراره على تدمير أعز ما كان يملكه الإنسان: البعد المتسامي. قد لا نجد أوضح من القاموس القرآني في وصف أبعاد الإنسان الشاملة، وباستعارتنا له يمكن أن نلخص فعل العدمية، والذي يتجلى في فصلها نفخة الروح عن قبضة الطين وبالتالي الغت الأولى وتصدرت الثانية مسرح الحياة. هكذا تبدو لنا العدمية تعبيرا عن «تراجع وتفسخ القيم الميتافيزيقية، ثم تفتت القيم الكونية وكذلك غياب أي غاية وأي كلية وأي وحدة. وهي المقولات التي كانت تستند إليها نظرتنا للعالم، لأن هذه المقولات: مقولات الغاية والوحدة، التي بفضلها أضفينا على العالم قيمة، قد تم انتزاعها». ويخلص شايغان إلى اعتبار العدمية هي ذلك الشرخ أو الانفصام الذي يحول بين الإيمان والمعرفة، وهذا لا يمكن أن يقودنا إلا إلى تعميم الظلامية التي تفصح عن نفسها في أكثر من علامة والتي تعتبر، حسب فون بادر، كما يذكر شايغان، نتيجة حتمية لـ «نفي الله والعالم المتسامي وظهور الإنسان الأعمى، الذي بفضل سلطته المطلقة، حل محل الله».

إن ظهور هذا الإنسان، الذي تحدث عنه هربرت ماركوز وياسهاب، واصفا إياه بالإنسان ذي البعد الواحد، ستصاحبه إشكالات جمة، ولعل أخطرها، الإشكال الوجودي. التي ستعمل نظريات التطور، خاصة الداروينية، على الالتفاف على هذا الإشكال وطمسه، بمحاولتها بناء وضعية علمية تمنح هوية جديدة لهذا الإنسان الجديد، وتبرر بها ولادته. بمعنى أن الداروينية ستعمل على بناء مشروعها وفق الأنموذج السابق ذكره، ستسعى إلى أن تقعد وتؤصل علميا ولادة الإنسان ذي البعد الواحد. فهذا الكائن، وفق الرؤية الداروينية، ينتمي إلى عالم الحيوان، ولا يختلف عنها إلا في درجة التطور، فهو يخضع لنفس المنطق ويستجيب لنفس القوانين. وإذا كان هناك من هدف لوجود عالم الحيوان، فإنه قطعا: هدف من أجل البقاء. والبقاء هذا مرتبط بالحصول على الغذاء، وبما أن مصادر الغذاء تنمو وفق متتالية حسابية مقابل تكاثر الحيوانات التي تتبع متتالية هندسية (وهي الفكرة التي استعارها داروين من مالتوس)، فإن البقاء يكون للأقوى، وبالتالي فإن القانون الذي يجب أن يسود هو الصراع من أجل البقاء. ولكي تضمن الحيوانات، بما فيها الإنسان، البقاء يجب أن تطور قدراتها وإمكاناتها، وتستعمل كل الوسائل المتاحة للحصول على الغذاء. فعلى أساس هذه القاعدة، يتم الانتخاب الطبيعي، الذي كان يحلو لداروين أن يسميه بـ «عقيدتي الجديدة». وإذا كانت الداروينية قد وضعت الأساس العلمي لظهور الإنسان الجديد، بتحديدها الهدف من الوجود وقوانين الانتخاب والبقاء، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو حول تداعيات هذه التطورات على المستوى الاجتماعي، وعن تجلياتها على المستوى الحضاري.

ليس بغريب إذا كانت الأجوبة على هذه الأسئلة قد فصلت في رحم البيولوجيا التطورية، لتعمم بعد ذلك، تلك القوانين الطبيعية على الاجتماع الإنساني، لتظهر إلى الوجود ما يسمى بالداروينية الاجتماعية والسوسيوبيولوجيا.

إن الترسانة المعرفية الغربية ستستجمع كل قواها لتوفير المحضن المناسب لولادة هذا الإنسان، ولتأكيد شرعية لاهوت الأرض الجديد: الإله/العقل، العلموية/الدين، المادة/الوجود، وتأكيد الشرعية هنا، يقتضي إثبات القدرة على ضمان البقاء الذي يرتبط بدوره بتوفير كل ما يشبع ذلك البعد المادي. وسينجح هذا اللاهوت من خلال طفرة فريدة في تحقيق تركيبة تتوفر فيها كل الشروط التي تلبي رغبات هذا الإنسان. هذه التركيبة هي الصياغة التشريعية للدين الجديد: إنها الرأسمالية، التي أبت إلا أن تجعل من نفسها شريعة لاهوت الأرض. إن هذه الرأسمالية هي تلك التي تتمثل في «المجتمع الذي خلق الإنسان الغربي ذي البعد الواحد، ذلك الذي ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نموا لا نهائيا كي يروي غله وإرادته في السيطرة والربح». إن إرادة الإله الجديد / العقل هي إرادة تتسم بالربح والسيطرة، وتلك ميزة شريعة الرأسمالية. ويلاحظ جارودي، أنه «بعد الدين الذي يبشر بالصبر، جاء دين ضمني قوامه تحريض الرغبة تحريضا دائبا».

وبالفعل ستعمل الرأسمالية على تأطير الإنسان وإقناعه بأنها النظام الوحيد القادر على تلبية كل رغباته. إذا أراد هذا النظام أن يثبت جدارته في أنه دين يحل محل دين الكنيسة، فلابد أن يوجد أنماطا للحياة، على شكل طقوس وشعائر توقظ الحيوان في الإنسان من خلال تحريض غرائزه. ويبدو هذا الإنسان في أحضان الرأسمالية كائنا بيولوجيا نام فيه كل شيء إلا غرائزه: إنسان شره لا يعرف لنهمه حدودا.

إن هذه الطقوس والشعائر هي التي «سعت إلى تحويل الإنسان إلى منتج أكثر فعالية، وإلى مستهلك أكثر جشعا ونهما فيما يخص ملذاته، كائن محرك بدافع المصلحة الفردية وحدها فقط».

إن محدودية مصادر الحياة مقابل لا محدودية نهم الإنسان، أصبح يهدد مشروعية الديانة الجديدة. فالتوقف عن تلبية رغبات الإنسان الغريزية هو تشكيك في هذه الديانة وكفر بإلهها. فكيف يمكن أن يضمن هذا النظام وفرة مصادر الحياة واستمرار تدفقها بشكل مطرد؟ إن التعاطي مع هذه الإشكالات دفع النظام الغربي إلى البحث عن مخارج لهذا المأزق، وقد تم تحقيق هذا الأمر عن طريقين:

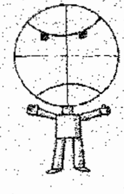
الطريق الأول: من «الانتخاب الطبيعي» إلى «الانتخاب الإنساني»: إذا كانت الداروينية قد فسرت التطور من خلال غريزة البقاء، بحيث أن الطبيعة تنتخب الأقوى وتلغي الضعيف، فإن الرأسمالية أدخلت هذا القانون على الاجتماع البشري وأسندت مهمة الانتخاب هذه المرة إلى الإنسان، لتصبح الرأسمالية بذلك «حرب الجميع ضد الجميع»، على حد تعبير هوبز. كان الاستعمار أرقى تعبير عن هذه الفلسفة، ليجسد فعليا مهمة الانتخاب وليقرر فيمن له الحق في البقاء.

الطريق الثاني: تحويل نمو الثروات الطبيعية من متتالية حسابية إلى متتالية هندسية: ستعمل مؤسسة العلم على استجماع إمكانياتها لإيجاد وسائل تتحكم في الثروات الطبيعية وتعمل على إنمائها وتطويرها. تتلخص هذه الوسائل في التقنية التي أصبحت خاصية للعلم. إن العلموية جعلت من التقنية مبشرا، رأت فيه أفضل وسيلة لتأكيد صفة الديانة على هذه المؤسسة. «إن التقنية كانت أداة قوية لاستعمار الأبدان والعقول»، وهذا لم يكن ممكنا لولا «أن التقنية أصبحت شعبة من شعب الإيمان على المستوى الكوني. إنها النتيجة الملموسة والحضور الواقعي للديانة الجديدة، العلم». لقد تمكنت التقنية أن تبهر الإنسان بمعجزاتها واستطاعت أن تغير حياته ومحيطه.

عبر هذين الطريقين والتزاوج بينهما، أي بين الاستعمار والسيطرة على الخارج من جهة والتقنية من جهة أخرى، تكون الرأسمالية قد ضمنت استمرار وفرة متطلبات وحاجيات هذا الإنسان، وبالتالي أصبحت أرقى نظام يشفي غليل إرادة هذا الإنسان في السيطرة والربح. وقد سبق لداريوش شايغان، عندما تعرض لمفهوم العدمية أن تناولها من خلال مرحلتين:

«ليس الإنسان مفصلا على طراز داروين ولا الكون مفصلا على طراز نيوتن»

علي عزت بيجوفتش



- مرحلة العدمية السلبية، والتى ارتبطت بتجريد العالم من المعنى والتى كانت تقتضى «إدراك ووعى أن كل شىء عبث وتافه».

- ومرحلة العدمية الفعالة، والتى يحددها لنا من خلال وجهة نظر نيتشه بأنها «علامة قوة طاغية ومتصاعدة للروح التى تبلغ أوجها على شكل قوة عنيفة تدميرية».

يتبين لنا من خلال هاتين المرحلتين تطور نظام لاهوت الأرض الذى يلخص مسيرة الغرب الحضارية، والذى خرجت من أحشائه صورة جديدة للعالم، بعدما أعيدت صياغتها فى شكل غاب «البقاء فيه للأقوى». وفى أحضان هذا المحيط سيترعرع الإنسان الجديد الذى حددت مكانته ومهامه، وحددت كذلك طبيعة علاقاته الاجتماعية. من خلال فرضية هوبز، كما يوردها غارودى: «الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان الآخر» فمن علاقات التنافس والتضارب، كما هو الحال فى «اقتصاد السوق» إلى علاقات الصراع، كما هو الحال فى قانون الغاب، مرورا بالعلاقات بين الأفراد والجماعات، كما تعكسها السينما والألعاب الرياضية وعلاقات الأسياد والعبيد بين «الداخل» و«الخارج»، وصولا إلى المستوى المعاصر حيث تتمظهر هذه العلاقات فيما يسمى بتوازن الرعب.

فى علاقة الإنسان بالطبيعة:

لقد تبين فيما سبق أن مشروع النظام الغربى كان يرمى إلى إعادة بناء نظامه وفق المرتكزات العقدية التى حاولنا تحديدها. كما تبين لنا أن العلم تحول إلى مؤسسة معتقدية، أى إلى علموية والتى يعرفها جارودى بأنها «هى تلك الخرافة التى، بفصلها العلم عن الحكمة والوسائل عن الغايات، لم تجعل من المعرفة فضيلة فى خدمة تحقيق الذات والتغلب عليها، ولكن جعلت منها سلطة فى خدمة إرادة القوة اتجاه الطبيعة واتجاه الناس الآخرين».

فالسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها تقتضى معرفتها. إن المعرفة هنا كما فى غيرها، حددت وظيفتها فى السيطرة، وتلك هى خاصية العلم الحديث الذى يهدف إلى أن يجعل من الإنسان «سيدا ومالكا للطبيعة» كما أرادها ديكارت. فعندما حددت هذه الأهداف انطلق الغرب مبكرا لاستكشاف العالم والطبيعة والإنسان، ودراستهم دراسة موسوعية شاملة، فتم تطوير المناهج والأدوات، وتنويع التخصصات لتشمل جميع الميادين، وهكذا يتبين «أن التحكم فى الطبيعة مشروع شامل، لا بل هو شمولى». فكيف تمكنت العلوم من بناء معرفتها حول العالم والطبيعة والإنسان؟

إن النظرة التى كونها الإنسان عن الطبيعة وعن الكون هى وليدة تلك التحولات التى رافقت تشكل النظام الغربى، والتى تجذرت فى بنيته الذهنية ومخياله الجمعى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ فأفرزت صورة تؤطر مفهوم الواقع والحقيقة، وأصبحت سائدة ابتداء من القرن السابع عشر. إن هذه النظرة ترتكز على اعتبار أن «المادة هى أساس الوجود، والعالم المادى عبارة عن عدد كبير من الأجزاء المنفصلة، والتى تكون مجتمعة آلة ضخمة»، مثل كل الآلات التى يصنعها الإنسان ويتعايش معها. إن صورة العالم فصلت على الآلة التى صنعها الإنسان. فجاءت نظرة العلم حبيسة هذا النموذج.

ونتيجة لهذا التصور يصبح بالإمكان فهم الظواهر المعقدة، بتحويلها إلى عناصرها الأساسية، والبحث عن الآليات التى تتفاعل من خلالها وتشتغل بها. إن هذه النظرة الاختزالية هى التى ستطبع المعرفة العلمية وستصبح سمة أساسية للثقافة المتفرعة عنها. إن ديكارت، مثل غيره من أقطاب مرحلة النهضة الأوروبية، يعرض بوضوح فى كتاباته أصول النظرة الاختزالية هذه، حيث يرى أن دراسة أى حقيقة كيفما كانت يجب أولا تفكيكها إلى أجزاء مختلفة، ثم تفكيك هذه الأخيرة إلى مكوناتها، وهكذا إلى أن نصل إلى أصغر مستوى حيث العناصر الأولية.

إن هذا التصور الذى يختزل الكون فى الآلة، والذى تأسس عليه المنهج العلمى، سيصبح القاسم المشترك بين كل العلوم والمعارف، وسيتم بعد ذلك تصريف هذا التصور وتعميمه على كل ما يحتويه هذا الكون: الطبيعة وعالم المادة وعالم الحيوانات بما فيه الإنسان. فكل شىء تمت مماثلته بالآلة. فلكى نخصص مثلا مكانة للكائنات الحية ونتمكن من تفسير وظيفتها، فليس هناك إلا بديل واحد، إما أن نعتبر هذه الكائنات آلات حيث لا نأخذ بعين الاعتبار إلا الأشكال والأحجام والحركات: وإما أنها لا تخضع لقوانين الميكانيكا وعندها يجب أن تعدل عن أى وحدة وأى تماسك فى العالم. أمام هذا الاختيار، فإن العلماء سواء كانوا فلاسفة أو فيزيائيين أو أطباء، لم يترددوا فى تبنى مقولة: كل الطبيعة آلة وكل الآلة طبيعة.

إن التصور السابق لفكر النهضة كان يرتكز على مفهوم الأرض، الأم المرضعة، وعلى الرؤية العضوية للطبيعة. هذا التصور سيعرف انقلابا جذريا بعد أن حولت الثورة العلمية الكون إلى آلة عملاقة. إن هذه الثورة ابتدأت عندما رفض كوبرنيك نظرية مركزية الأرض التى كانت سائدة فى أوروبا، والتى انحدرت من بطليموس وتبنتها الكنيسة. وسيستمر على هذا الخط كيبلر الذى سيعمل بدوره على تعميق تلك النظرات.

لكن الزلزال الحقيقى الذى سيحدث ثورة فى الوعى العلمى، هو الذى قاده جاليلى والذى يعتبر بحق أبا العلم الحديث، ذلك انه سيزاوج بين التجريب العلمى واللغة الرياضية لبناء قوانين الطبيعة. فحسب غاليلى: فإن الفلسفة (بالمعنى القديم للمفردة، أى تلك التى تشمل كل المعارف بما فيها العلم)، مكتوبة فى كتاب كبير هو الطبيعة، مفتوح أمام أعيننا إلا انه يستحيل فهمه ما لم نتعلم أولا وقبل كل شىء اللغة والرموز التى كتب بها. إن اللغة هنا هى الرياضيات، والرموز هى المثلثات والدوائر والأشكال الهندسية الأخرى. ولكى تصف الطبيعة رياضيا ينصح جاليلى العلماء أن يقتصروا على دراسة الخصائص المهمة للأجسام المادية فقط: الأشكال والأعداد والحركة، أى كل الخصائص التى يمكن قياسها.

وفى نفس الوقت كان فرانسيس باكون فى انجلترا يضع اللمسات الأخيرة للمنهج الامبريقى للعلم. إن هدف العلم، حسب باكون، هو بلورة معرفة تمكننا من السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها. فيجب أن نطاردها ونقاوم زيغها. بكلمة يجب أن نستعبدها ونخضعها. إن دور العالم بالنسبة لباكون، هو أن ينتزع من الطبيعة أسرارها، فليس غريبا بعد ذلك أن يصيح برتولو(Bertholot) بذهول: لم يعد الكون يملك أسرارا.

نلاحظ أن مرادفات القاموس الذى يستعمله هؤلاء الرواد تتسم بنوع من العنفية والصراع. وهو ما يعكس الخلفية العقدية والفلسفية التى تأسست عليها الحضارة الغربية، كما تطرقنا إلى ذلك سابقا.

إن هذا الخط سيكمله وبشكل مدهش، كل من نيوتن وديكارت بعد نجاحهما فى إيجاد صياغة تركيبية لأفكار جاليلى. فالعلم الحديث يرتكز أساسا على النظرية الرياضية لنيوتن وفلسفة ديكارت والمنهجية التجريبية التى وضعها فرانسيس باكون. أنه علم يستند إلى ثابتين أساسيين:

١ - النظرة الآلية إلى الكون والطبيعة والإنسان

٢ - قانون الحتميات

انطلاقا من هذا البناء النظرى، الذى نجد خلاصته واضحة عند ديكارت، سيعاد تشكيل الوعى العلمى وذلك بالعمل على تقويض الآليات الذهنية القديمة، التى كانت تقوم على العلاقة العضوية، والمفاهيم المرافقة لها مثل الحكمة والتآلف والانسجام مع النظام الطبيعى، لتباشر بعد ذلك عملية استبدالها بآليات جديدة تقوم على الحتمية والوضعية (إفراغ الكون من أى معنى، وعزله عن البعد المتسامى): والتضاد والنظرة الميكانيكية للطبيعة. يمكن أن نخلص إلى أنه «خلال مرحلة النهضة عوضت الصورة الآلية للكون الصورة الحيوية التى كانت سائدة من قبل».

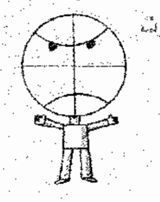
إن النظرة الآلية التى تشكل الهيكل العظمى للعلم تعتبر فلسفة طبيعية قائمة على مبدأين أساسيين:

- مبدأ وضوح المفاهيم الأولية: هذا المبدأ الذى ابتدأ مع جاليلى واتضح أكثر مع ديكارت، يوضح أن العلم يمكن أن يبنى على قاعدة مجموعة من الأفكار الواضحة والبسيطة فقط، بحيث تبدو بديهية لكل عقل ولا تحتاج إلى برهان.

- مبدأ الانقسامية بطريق الفكر: وهو المبدأ الذى يتفرد به ديكارت، وقد سبقت الإشارة إليه. هذا المبدأ يفيد بضرورة تفكيك كل الأشياء، على الأقل فكريا، إلى الأجزاء الأولى المكونة لها، على غرار نموذج الآلة.

إن هذه الفلسفة الطبيعية لم تكسب متانتها وتستكمل بناءها إلا بعد أن طور ديكارت نظراته الفلسفية وعمقها حول علاقة الإنسان بالطبيعة، ذلك أن «الوحدة العضوية لفلسفة النهضة ستتحول مع ديكارت إلى

> قبلت اللوثرية بالانسحاب من مملكة الأرض لصالح قوى المجتمع الجديدة، مكتفية بالدور الموكل إليها فى صيانة المولود الجديد وسد ثغراته المختلفة على مستوى توفير أيديولوجية قاعدية حاضنة لقوى السلطة الجديدة



ثنائية الروح والمادة ووحدة الوجود والتنوفية.

إن هذا الفصال الذي قام به ديكارت بين الروح والمادة، والنفس والجسد، وبين الإنسان والطبيعة، وبين العقل والعواطف، سينعكس على كل مستويات الحياة. بل يذهب كابرا أبعد من ذلك عندما يعتبر «أن القاعدة الفلسفية لعلمنة الطبيعة، تعود إلى التقسيم الديكارتي بين الروح والمادة. ومن نتائج هذا التقسيم، اعتبار العالم نسقاً آلياً (ميكانيكياً) يمكن وصفه موضوعياً دون الإشارة إلى الملاحظ، الذي هو الإنسان». وهذا ما سيؤدي في نظرنا إلى إفراز مجموعة من الأعراض تطاول مجمل مراتب الوجود الإنساني: النفسية والذهنية والمعرفية والتي يسميها جارودي بالمرض التحليلي: حيث إن هناك شغفا بتقسيم كل شيء إلى اثنين، ثنائية النفس والجسد، والمادة والروح، والزمن والخلود، والنهائي واللانهائي، والحتمية والحرية، والإنسان والله، والضرورة والعفو، لتصل إلى أفظع الحماقات: تضاد المادة والمثالية، وهو الشكل الفلسفي الذي خرج مسلحا بالثنوية الديكارتية التي تجعل من الإنسان روحا مركبة على آلة ميكانيكية أو جثة مربوطة بشبح».

إن أول امتحان سيتعرض له نموذج العلم الحديث هو اكتشاف قوانين الديناميكية الحرارية التي ستطرح إشكالا علميا، وتظل لغزا دون جواب داخل الفيزياء الكلاسيكية إلى أن يجئ بولتزمان (Boltzman) ليفتح ثغرة في هذا المأزق النظري بإدخاله مفهوما جديدا، ألا وهو مفهوم الاحتمال (الطاقة الكامنة Potential energy).

ومع بداية القرن العشرين ستعرف الفيزياء عدة هزات نظرية، ستكشف عن محدودية النظرة الآلية والاختزالية للعلم، كما سيتبين كذلك عجز لغة الفلسفة الميكانيكية عن استيعاب الاكتشافات والتطورات الجديدة. وهذا ما سيدفع العلماء إلى ضرورة القيام بمراجعات نظرية لكل الجهاز المفاهيمي الذي تأسس عليه العلم الحديث. وسيتوج هذا المسار بالثورتين العلميتين، وما أفرزتاه من مفاهيم جديدة ونظرات مغايرة وجدالات ساخنة، يتعلق الأمر بالنظرية النسبية والفيزياء الكوانتية. إن هاتين الثورتين ستقلبان كل المفاهيم التقليدية حول المادة والزمن والمكان، إلى درجة أن إينشتاين نفسه لم يستطع أن يتمثل هذه التحولات: «كان الأمر بالنسبة لي، يقول إينشتاين، كأن الأرض تنشق تحت أقدامنا، دون أن يكون هناك شيء ملموس يمكن الاتكاء عليه أو البناء فوقه».

فمن أحشاء مؤسسة العلم نفسه، بدأت الإرهاصات الأولية تطل برأسها مؤذنة بانقلابات جذرية في نظرتنا للعالم. فالمقولة التي اعتبرت المادة جوهر الوجود وثابتا من ثوابت الرؤية الحضارية، قد أصبحت عارية من دون سند. إن مفهوم الموضوع/الشيء القائم بذاته والمفصول عن الأشياء والإنسان، قد انهار في نظام الفيزياء الكوانتية (الكمية - Quantum physics)، فالموضوع/ الشيء غير مستقر ولا يوجد إلا في علاقة، أي لا يستمد قيمة وجوده إلا من خلال العلاقات التي ينسجها مع محيطه. فنظرية النسبية قد كشفت لنا أن الكتلة أو الجسم، ليست إلا مظهرا من مظاهر الطاقة، والمادة لا تنكشف إلا من خلال نشاطها وحركيتها. أما الكون، فلم يعد آلة ضخمة مكونة من عدد من الأشياء المفصولة، كما كانت تقدمه العقلانية الديكارتية، بل أصبح «كلا متجانسا غير قابل للانقسام أو التجزيء؛ إنه عبارة عن شبكة من علاقات دينامية تتضمن الملاحظ ومشاعره بشكل أساسي». ألا يفسر هذا ذهول اينشتاين وهو يعيش التجربة «المأساوية» للزلزال الذي ضرب العقلانية وقويض أسس الفيزياء الكلاسيكية؟.

أمام هذه التحولات، وجد العلماء أنفسهم مضطرين للتخلي عن المقعد الوثير الذي كان يمنحهم الثقة والطمأنينة في مؤسسة العلم وعلى قدرتها على حل رموز وألغاز العالم. كما تبين انه آن الأوان لتخفت تلك الأصوات، وما أكثرها، التي كانت تدعي أن الكون لم يعد يملك أسرارا. فنحن أمام كون لا نملك عليه من العلم إلا ما يعرف الطفل عن ما في أعماق البحر، كما كان يردد اينشتاين. إن الشظايا التي تتطاير من هذه الاختمارات داخل العلم تتسارع لصياغة نظرة جديدة للعالم والطبيعة والإنسان، كما أنها تنبئ بثورة معرفية جديدة لا علاقة لها بمرتكزات لاهوت الأرض. يذكر كستلر كلمة مأثورة لجيمس جون ألقاها سنة ١٩٧٣: «أصبحنا اليوم نعتقد بصفة عامة، والفيزيائيون بصفة خاصة، بأن تيار المعرفة يقودنا نحو حقيقة غير آلية. إن الكون بدا يظهر لنا بأنه يشبه فكرة كبيرة أكثر من آلة كبيرة».

إن خطوط التمايز والفواصل بين العلم والعلموية، أي بين العلم والجذور العقدية، تبرز أكثر فأكثر. كم هي المحاولات التي يكشف فيها العلم عن نيته في مغادرة تربته والانسلاخ من جذوره، لينغرس في تربات أخرى وبجذور جديدة. إن الرحم الذي فصلته العلموية لمولودها لم يعد يسعه، فهو أكبر من أن يستوعبه النظام الاختزالي. إن الحيات (المادة والطبيعة والإنسان والحقيقة) التي من أجلها صنعت الطاحونة لم تعد قابلة للطحن. إن المادة لم تعد تحدد بالمعايير الملموسة، فهي في تحول دائم ومستمر، فهي تارة طاقة وتارة أخرى معلومة. أما الحقيقة فهي غير موجودة لذاتها، وحواسنا وأدواتنا لا تلتقط إلا تمظهراتها الخارجية. وكما يقول هايزمبيرغ: «إن الذي نراه ليست الطبيعة بعينها، إنما شكل من أشكال الطبيعة المعروضة أمام أدوات التقصي والبحث»، بمعنى آخر «فإن تجاربنا لا تكشف لنا الحقيقة في ذاتها، إنما ظواهرها فقط». لذلك أصبح لزاما على العلم أن يتخلى عن المادية التي كانت سائدة. يجب أن نقر بوجود حقيقة ظاهراتية يسمح لنا العلم بمقاربتها؛ أما ما بعد الظواهر «فإن الحقيقة النهائية تبقى محتجبة»، يعجز العلم عن استنطاقها؛ لأنه عمليا لا يستطيع أن يلتقط إلا انعكاساتها أو أصداءها. وعلى ضوء هذه المعطيات يبدو أن العلم يتجه نحو اعتبار النظريات العلمية مجرد مقاربات تخمينية للطبيعة الحقيقية للواقع، وبالتالي فإن كل نظرية لا تصلح إلا لعدد محدود من الظواهر. لذلك نتفهم كارل بوبر عندما يقول «إن النظريات العلمية ليست إلا ابتكارات ذهنية يجب أن تخضع بشكل دائم ومستمر للمراجعة». قد سبق أن أشار بريغوجين إلى أن الطبيعة «تجيبنا» حسب الأسئلة التي تطرحها عليها.

إن المعرفة في تفاعلها مع هذه النظرات الجديدة، ما عليها إلا أن تتخلى عن قدسيتها وإطلاقيتها، لتتسم بالنسبية والتواضع: «فلم يعد هدف المعرفة هو اكتشاف سر العالم في كلمة جامعة مانعة إنما الهدف هو التحاور مع لغز العالم».

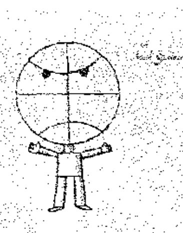
لم يعد العالم إذن مجرد مشهد أو عرض مسرحي معروض أمام أنظار فارغة وجامدة، بل إنه عالم ينبض بالحياة ونحن جزء منه نتماهى معه في علاقات حميمية، علاقات التكامل والحوار الدائم. «إن العلم يبدو أكثر من أي وقت مضى كشكل من أشكال الحوار الأكثر جاذبية وسحرا يعقده الإنسان مع الطبيعة». لم تعد الطبيعة إذن، موضوعا ماديا وجامدا يستوجب الصراع معه لإخضاعه وانتزاع أسراره، بل هو كائن ينبض بالحياة، يبادل الإنسان الأفكار والمشاعر، والعلم واسطة لترجمة هذا التحاور، فهو (أي العلم) «يحتل مكانة فريدة للإنصات الشعري للطبيعة». فكم تبدو يتيمة قولة جاك مونود: «إن الإنسان قد أدرك أخيرا أنه وحيد في هذا الكون وأنه ظهر فيه بالصدفة».

يبدو من خلال هذا العرض أننا على مشارف تحولات جذرية تطاول كل مرافق الحضارة المعاصرة، إلا أنها لن تكون ذات جدوى ما لم تشمل أسس البنيات الذهنية والمخيال الذي يفرز وينتج تلك التصورات المحددة عن الطبيعة والعالم والإنسان. ويبدو من الرجات التي تزلزل أبنية العقلانية الغربية أن هناك إدراكا لعمق الأزمة وجذورها، كما أن هناك عوائق تمنع نفاذ وانتشار آثار التحولات التي يعرفها العلم المعاصر. فالمقاومة التي يبديها نظام لاهوت الأرض إزاء كل محاولة لتخليص العالم والإنسان من الضيق ومحدودية آفاقه، تعكس تجذره وجبروته. «إن ظهور الفكر العلموي في القرن التاسع عشر حطم في لحظة واحدة تلك النظرة القديمة التي كانت تتسم بالوحدة والعضوية، وفصلت جوهر الذات والموضوع عن الذات وراء عن رب». إن هذا الحدث شكل صدمة تعتبر الأكثر مأساوية في تاريخ الإنسانية، صدمة ضد الفكر وضد طبيعة الواقع وضد أسس الحياة. هذا الفكر العلموي الثنوي احتجز العقل في مستواه البسيط جدا باسم موضوعية مزيفة، غير متسامحة للغاية وعدوانية تجاه أي شكل من أشكال الفكر والعقل المغاير».

إن بسط هذه الصورة تسمح لنا بالتقاط مستويات ثلاثة تدعونا للتفكير من خلالها في عمق هذه الأزمة البنيوية:

- المستوى الأول: والمتعلق بمركزية الإنسان. إن اعتبار الإنسان «مركز ومقياس لكل شيء»، عائق أمام إدراك شساعة وضخامة الكون الذي يتسم بالتعقد والتشابك. إن مقاربة هذا التعقد على

إن الإيمان اللامحدود بقدرة العقل وقوته، والذي كان يطلق عليه نيتشه بحق صنم الفلاسفة الأكبر، سيدفع الغرب إلى أن يجعل منه إلها جديدا



مستوى العالم والطبيعة والإنسان، من خلال مقاييس ومعايير الإنسان نفسه، لا تسمح بتكوين صورة متكاملة وسليمة، فهي أقرب إلى الذاتية منها إلى الموضوعية. لأنها إسقاطات ذهنية على الواقع، فالعلوم اليوم وخاصة الفيزياء وبيولوجيا الأعصاب، تبين لنا محدودية إدراكات عقل الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يحتوي الطبيعة، ولكن الطبيعة هي التي تحتويه. فلا يستطيع أن يفكر إلا من خلال الموجود، فهو خاضع لمجموعة من القوانين لا يستطيع أن يتعالى عليها. فكيف يمكن أن يسمح لنفسه بأن يتقمص دور الإله؟

إن تجاوز هذا المستوى يتطلب نزع صفة الاطلاقية والكونية على العقلانية، فهذه الأخيرة هي بطبيعتها نسبية وشكل من أشكال المعرفة، وأكثر من ذلك فهي ذات طبيعة متعددة، لكل معرفة منطلقها، كما أن لكل ثقافة عقلانيتها، لذلك «لا نجد أي مبرر أو سبب موضوعي يسمح لنا بتفضيل العلم والعقلانية الغربية على الثقافات الأخرى». هذا من جهة ومن جهة أخرى يقتضي التجاوز البحث عن نظام معايير لا يتخذ الإنسان مقياسا لإنتاج صورة عن الطبيعة والعالم والإنسان، ولا لمقاربة الخطأ والصواب والخير والشر. نحن في حاجة إلى نظام يشمل العقل ولا يشمله العقل.

- المستوى الثاني: اعتبار اللغة الرياضية هي اللغة الوحيدة للتواصل مع الكون، واعتبارها مفتاح حل أسرار وألغاز الطبيعة. إن هذا التصور يسجن العقل والحقيقة معا، فاللغة الرياضية هي نظارات تسمح لنا بالإطلال على جزء من الواقع، بينما تحجب عنا البقية.

فالاكتفاء بزاوية النظر هذه، والزعم بأنها تمثل صورة العالم، يكون بمثابة النظر إلى العالم من خلال ثقب باب، فالصورة التي سيكونها تكون مفصلة على مقاس ثقب ذلك الباب، فيكون العالم مختزلا في حجم وشكل ثقب الباب. إن الكون يتحاور ويتواصل معنا بأشكال متنوعة من اللغات، فهو يبعث إلينا الإشارات والرموز، وعلى الإنسان أن يترجمها إلى منظومات قابلة للفهم، وكلما تعددت أدوات الإنصات ولغات الترجمة إلا كان هناك استيعاب أكبر لنظام الإشارات والرموز التي يبعثها الكون. فاللغة الرياضية هي واحدة من هذه اللغات المؤهلة للإنصات المنطقي، كما أن اللغة الشاعرية هي كذلك واحدة من تلك اللغات المؤهلة للإنصات الشعري، تماما كما أن اللغة الفنية مؤهلة للإنصات الجمالي... وهكذا تتوالى مختلف اللغات في تكامل وتجانس للتواصل مع الكون، ولكن هذه الآفاق تبقى محكومة بسقف العقلانية الديكارتية التي تأبى إلا أن تجعل الحقيقة هي حقيقتها وأن ليس هناك صورة للعالم والطبيعة والإنسان إلا تلك التي تنتجها. فكيف يمكن تجاوز هذا السقف؟ إن هناك اليوم وعيا في تزايد مستمر، يدرك أن هذا التجاوز لن يتحقق إلا بتقويض أسس هذه العقلانية، لأنه «ليس هناك مسرح ديكارتي إلا في دماغنا». لذلك ليس غريبا أن تتوالى التأكيدات حول ضرورة تجاوز الديكارتية، لأنها «سجنت الإنسان في عقله، فنسينا طريقة التفكير مع جسدنا بكامله، ولم نعد نعرف كيف يمكن أن نجعل هذا الجسد يساهم بكليته في إنتاج المعرفة. وبتوقفنا هذا انقطعنا كذلك عن محيطنا الطبيعي ونسينا طريقة التقرب والتماهي والتعاون مع كائناتها الحية المتنوعة والغنية».

- المستوى الثالث: يتعلق بكونية الثقافة الغربية، التي تقدم دائما مرادفة للعقلانية والعلم، وهذا ما دفع الغرب إلى تعميم أنموذجه وفرضه على العالم كله، مع ما يستتبعه ذلك من اجتثاث للثقافات المغايرة، وتجفيف منابع التجارب الثقافية والروحية الأخرى. فلنستمع إلى مقاطع من مرافعة صودق عليها في اجتماع فانكوفر: «إن التصور العلمي في شكله الاختزالي والذري، دفع بالإنسان إلى اعتبار الطبيعة والكون بئرا من الثروات اللا محدودة، وبالتالي استغلاله بروح سلطوية وتملكية انتحارية... إن هذا السلوك الذي هو ضد الطبيعة والحياة، دفع بالإنسان إلى تفضيل نمط واحد للتنمية على حساب التشابك الثقافي والاقتصادي والروحي والاجتماعي الذي يشكل النسيج الحقيقي النابض بالحياة». وبعد رصد طبيعة الواقع، ينتقل التقرير للحديث عن النظرة الجديدة: «هذه النظرات الجديدة تعيد التشكيك في مجمل مفاهيمنا ونماذجنا الحالية، بالقدر الذي يجعل البقاء على الحياة أمرا مرتبطا بالنظرة الشاملة والتوحيدية للحقيقة. تلك النظرة التي تنبع في نفس الوقت من التجارب التراثية الكبيرة والخلاصات الأخيرة للفيزياء»...

«وختاما، لا بد من ضرورة إحداث تغيير جذري لنماذجنا التنموية والتربوية والحضارية. لا بد من الاعتراف بتعدد النماذج والثقافات والتجارب الروحية والتنوعات السوسيو-اقتصادية واحترامها».

وإذا كنا أثرنا في المستوى الثاني مسألة تعدد الأدوات العلمية واللغات للتواصل مع الطبيعة، فإننا نضيف إلى هذا التعدد، مستوى آخر نعتبره مكملا، وهو التعدد الثقافي. لأن نظام الإشارات والرموز الذي تخاطبنا به الطبيعة معقد ومتشابك، ويحتاج إلى شاشات متعددة لينعكس عليها، فلا يمكن لثقافة واحدة أن تلم بلغة الإشارة هذه، لأن الثقافة هي التي ترسي الأسس النفسية والذهنية لأفرادها، وبما أن هذه الأسس تختلف من ثقافة إلى أخرى، فإنه من مصلحة الإنسانية أن تستدعي هذا التنوع للإحاطة قدر الإمكان بلغات الطبيعة. وكلما كان التعدد حاضرا على مستوى اللغات وأنماط التفكير والأذواق والتصورات، كلما أزاحت الطبيعة عن وجهها «الحجاب» أكثر فأكثر وانكشفت لنا أسرارها بجلاء ووضوح.

لقد تبين أن نظرية النسبية لا يمكن إدراكها وفهمها خارج المعادلات الرياضية، وتجد العقلانية الديكارتية صعوبة في ترجمتها إلى اللغة العادية، ولعل هذا ما توحي به المحاورة التاريخية بين اينشتاين ونيل بور (Niles Bohr) حول مسألة الواقع. فاينشتاين كان من المؤمنين بوجود موضوعي للواقع أو الحقيقة، عكس اعتقاد بور، الذي كان يرى أنه لا نستطيع معرفة حقيقة الواقع، ولكننا نلتقط فقط انعكاساتها. وقد علق كابرا على هذا الخلاف بقوله: إن اينشتاين ساهم بشكل أساسي في تقويض نظام نيوتن وديكارت، وإذا كان اينشتاين بنظرية النسبية قد تمكن من تجاوز نيوتن، فإنه على مدى التصور لم يتجاوز ديكارت، في حين أن بور استطاع أن يتجاوز ديكارت. وعندما نتساءل عن سبب نجاح بور وفشل اينشتاين، نجد أن السبب الرئيسي يكمن في قضية التعدد الثقافي. فبينما ظل اينشتاين حبيس نمط التفكير العقلاني الديكارتي، نجد أن بور استطاع أن يتحرر من هذا الإرث الوطني، وينفتح على التراث والفلسفة الصينية التي منحته مفاتيح مقاربة إشكالية الواقع والحقيقة.

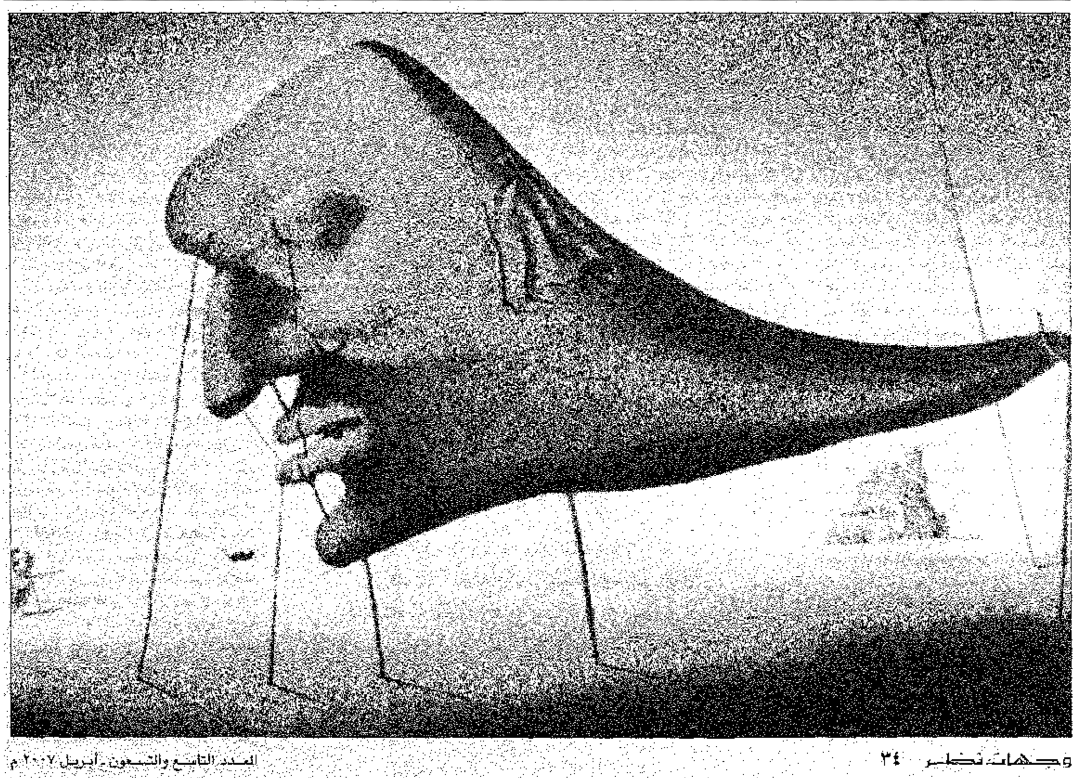
ونجد نفس الأمر يتكرر مع اللساني (عالم اللغويات) لي وورف (Lee Worf)، الذي كان يشتغل في أمريكا اللاتينية لحل وفك لغات حضارة المايا. فقد لاحظ بأن قبائل الهنود تقارب العالم وفق تصور نسبي (استنادا إلى النظرية النسبية) وليس وفق التصور الحتمي. ويعلق بقوله: «لفهم نسبية اينشتاين، يجب على الإنسان الغربي أن يتخلى عن لغته المعتادة ويتبنى اللغة الرياضية، بينما يملك إنسان المايا اللغة المناسبة... لذلك يستطيع أن يتمثل الزمن والمكان في نفس الوقت لتحديد حدث ما، لأنه يعرف أن هذين العاملين لا يوجدان منفصلين».

هكذا يصبح التعدد الثقافي مفتاح البقاء بالمعنى البيولوجي والانثربولوجي للكلمة. كما يصبح ضرورة لإنقاذنا من المأزق الذي وضعتنا فيه العلموية. وذلك بتوسيع دائرة التحاور والتواصل مع الكون. «إن العلم ينفتح على العالمية عندما يكف عن إنكار غربته عن انشغالات المجتمعات، وعندها فقط، يكون قادرا على التحاور مع شعوب كل الثقافات وقادرا على احترام تساؤلاتهم». ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتساءل مع المهدي المنجرة: «كيف يمكن للعلم والاتصال أن يعيدا للثقافة مهمتها الأصلية، التي تتجلى في الإبداع والسخاء والتضامن والحب؟». ولنترك له الإجابة: «إن هذا السؤال يطرح عدة مشاكل منها ما هو أخلاقي ومنها ما هو سياسي وسوسيو-اقتصادي وتكنولوجي. إنه يحدد نظرتنا للمستقبل ويدعو إلى تغيير جذري لبنياتنا الذهنية، يجب تحسين أشكال التواصل الثقافي، لأنها أداة السلم الأكثر فعالية».

إن نظام لاهوت الأرض قد استنفد أغراضه ولم يعد قادرا على أن يستوعب هذه التحولات، فقد تبين من خلال الاختبارات التي تعرفها مختلف العلوم محدوديته وجموده في مقاومته لأي مبادرة في اتجاه التغيير، إنه لأول مرة في التاريخ تجد البشرية نفسها أمام مأزق وجودي: إما الانتحار الكوني أو التغيير الجذري!

بعد إرساء هذه الأسس العقدية سينطلق الغرب لإعادة بناء العالم وفق تلك المقاسات: العقل/الإله، العلم/الديانة، المادة/الوجود


MINUS CONSCIENCE



دالـــــــي
و«الدينامو»

ســـــانـــفـــورد شـــــفـــارتـــز

لكن أحدا لم يجسد السريالية كما فعل «دالي». فمن خلال اللوحات التي أعلن بها عن نفسه، انفتح أمامه الباب إلى اللاوعي، وما خرج من ذلك الباب كان صورا إستحوذت على الإعجاب

* اشتهر «سلفادور دالي Salvador Dali» عالميا منذ ما يزيد على نصف قرن بسبب لوحاته التي يسودها الجنس والتمرد، وبسبب شخصيته التي تتسم بغرابة الأطوار والبهرجة والعظمة المتكلفة، وكذلك بسبب حياته المستهترة التي دمر فيها الحدود الفاصلة بين الإبداع والرواج التجاري. لقد كان «دالي» حقا شخصية عظيمة. وكان عادة ما يقول - بأسلوبه الذي أتقنه تماما والذي يجمع بانسجام بين التفاخر والسخرية ونقد الذات - أن «شخصيته» هي أعظم إنجازاته. وفي أحيان أخرى كان يصرح للعالم بأن كتاباته هي إنجازاته الحقيقية، وأن لوحاته لم تعبر إلا عن أقل القليل من شخصيته. ومع ذلك، فإن أكثر خصائص «دالي» رسوخا وواقعية تتسم بالخصوصية الشديدة والبساطة النسبية؛ وهي التوهج الخاص الذي يميز أسطح لوحاته التي يغطي مساحات كبيرة منها لون واحد نابض، وإحساسه بالضوء الخافت الذابل للفجر أو الغسق، وبالضوء المتألق القوي لأصيل يوم صيفي مشمس على شاطئ البحر المتوسط، وكذلك قدرته المدهشة على التعبير عن القوة الكامنة في مجموعات دقيقة ملتفة بإحكام من الخطوط أو النقاط أو الأشكال، ونقل كل ذلك إلينا.

إن عالم لوحات ورسوم «دالي» بالتأكيد مليء بأغرب التصورات وأجرأها وأكثرها إجفالا. فعلى سبيل المثال، نرى في لوحته «المستمني الكبير The Great Masturbator» (١٩٢٩) وجه امرأة يداعب فخذ رجل، مع بروز أعضائه الجنسية. وفي لوحته «بناء رخو مع فاصوليا مسلوقة (هاجس الحرب الأهلية)» (١٩٣٦) يقوم كائن عملاق يعاني العذاب بتمزيق نفسه بقوة هائلة لدرجة أننا لا نتخيل كيف كان لهذا الكيان جسد واحد. وفي لوحته «هاجس الذاكرة The Persistence of Time» (١٩٣١)، والتي ربما كانت أفضل لوحاته المعروفة، تتسدل ساعات حائط رخوة في أنحاء مكان قاحل. إن لوحات «دالي» تنتمي لعالم الأحلام، ويمكنها أن تتسلل إلى عقلك وأن تنخر فيه، أو أن تصرخ معبرة عن نفسها، كما لو أنها مفاتيح لمعان أعمق لتجربة معينة. كما أن صوره، مثل كثير من الأحلام، عديمة الوزن وقابلة لعدة تأويلات ومتبخرة. وتغوص لوحات «دالي» بسهولة في العقل - مع استثناءات معينة - ولكن كلما شاهدت المزيد من تلك اللوحات ينجلي لك أكثر فأكثر تركيب ودرجات الضوء فيها والأسلوب الذي يجمع به بين اللمعان والنعومة، وبين المجعد والرقيق.

وقد تجدد الآن الحديث عن «دالي» في الذكرى المئوية لمولده عام ١٩٠٤. ويتسم المعرض الذي أقيم في متحف فيلادلفيا من ١٦ فبراير وحتى ١٥ مايو الماضي عن دالي بالوقار والاتزان - مع التركيز على أعماله الأولى - مما يتسق مع الاعتقاد الشائع بأن أهم وأجمل لوحاته رسمت بداية من أواخر العشرينيات من القرن العشرين وانتهاء بعام ١٩٣٨ تقريبا، حينما كان لا يزال شابا لم يكمل بعد عامه الخامس والثلاثين. وقد عرض هنا الكثير من أقوى لوحاته تأثيرا من تلك الفترة. أما أعماله الفنية اللاحقة فقد تم تقديمها لإعطاء فكرة واضحة عن فكر هذا الفنان في أواخر حياته. توفي «دالي» عام ١٩٨٩، ولكنه توقف عن الرسم عام ١٩٨٣. وبإمكاننا أن نرى كيف كان مهتما بإعادة رواية الأساطير أو التعبير عن رأيه في الطاقة الذرية والمسيحية والتصوير المجسم وموضوعات أخرى كثيرة. ولكن «دالي» الذي كان الشك يحيط بسمعته الفنية لمدة طويلة، لم يكن ليروقه مثل هذا المعرض.

إن معرض «فيلادلفيا» كبير أكثر مما يلزم. فلسنا بحاجة لأن نرى - بمثل هذا التفصيل - أعماله كمراهق وكشاب، حيث أنه انتهج مبكرا أساليب جديدة متطورة الواحد تلو الآخر في محاولة لإيجاد طريقه الخاص. وقد أسرف المعرض أيضا في عدد اللوحات من عقد الثلاثينيات. وفي الوقت نفسه، لم يعرض أي من بورتريهاته الرائعة لمارقه من تلك الحقبة: مثل صور الشاعر السريالي «بول إلوارد» (الذي كان متزوجا من «جالا Gala» التي تركته لاحقا وتزوجت من «دالي»)، أو راعيته «فيكومتيس دو نويل»، كما لم يرد أي منها في الكتالوج الهائل للمعرض. ورغم أن المعرض يضم رسوما توضيحية لـ «دالي»، إلا أن المرء يشعر أنه لم يتم تقديمها بصورة وافية. فتهور «دالي» وتفكيره الذي لا يمكن التنبؤ به وواقعيته الفوضوية، والذي لا يظهر كثيرا في لوحاته المتقنة قسرا، يمكن إدراكه بسهولة في رسومه التوضيحية التي أنتجها في مراحل حياته المختلفة.

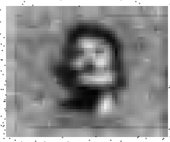
وهناك أيضا ما يعوق عرض الأعمال المتأخرة لـ «دالي» بطريقة مناسبة، رغم أن عملية حصر أعمال الفنان بداية من أوائل الأربعينيات قد تشكل صداعا لكل من يتصدى لتنظيم مثل هذا المعرض.

وفي خلال تلك السنوات، ارتد «دالي» من الملل إلى الشذوذ، ومن المصطنع إلى الباطني، ومن المهلهل - ببساطة - إلى ما لا يمكن تصديقه، وذلك من خلال رؤاه الجديدة التي تجمع بين الورع والبهرجة، والشائنة عادة، في لوحات مثل «العشاء الأخير Last Supper»، أو «الصلب Crucifixion» (والمعروضتين في المعرض)، أو مفاهيمه الطنانة لـ «كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus» لاكتشافه أمريكا، أو لـ «سانت جيمس Saint James» ممتطيا صهوة جواد يقف على قدميه الخلفيتين. ومع ذلك، فقد تمكن «دالي» بين الحين والآخر ومن خلال بعض اللوحات والرسوم التي تتميز بشيء من الاتساق، أن يخرج علينا بصور لا تقل إثارة للدهشة عن لوحاته المبكرة، ولكن لم يصل من تلك الصور إلى معرض «فيلادلفيا» إلا القليل. ومن العار، على سبيل المثال، أن يخلو المعرض من لوحة زيتية صغيرة وغريبة للغاية تعود إلى ١٩٥٨-١٩٦٠ وتحمل اسما طويلا لدرجة تنافي العقل يبدأ بـ «كاداكس تبصق Cadaques Spitting»، وهي عبارة عن مشهد مروع لرجل وامرأة ملتويين؛ أو أن تغيب لوحة ضخمة مثل «مصارع الثيران المهلوس Hallucinogenic Toreador»، والتي رسمت بعد ذلك بعشر سنوات، وهي جمع يشبه المهرجان لكثير من الصور المبكرة لـ «دالي» (كلتا اللوحتين موجودتان بمتحف سلفادور دالي في سان بترسبرج بولاية فلوريدا، وهما مستنسختان في الكتالوج). كما غابت - وافتقدت أيضا - لوحاته اللاحقة الطبيعية للحياة على الشواطئ الأسبانية حيث كان يعيش، والتي اتسمت برقة العاطفة. إن «دالي» ليس فنانا عظيما للدرجة التي يحاول هذا المعرض أن يظهره بها لمجرد هذا العدد المعروض من لوحاته. ومع ذلك فهو فنان أكثر - ولو قليلا - إحساسا وجاذبية مما توحي به تلك المجموعة من اللوحات.

إن ما سبق ذكره لا ينكر أن الأهمية التاريخية التي يستحقها «دالي» تكمن في أعماله الأولى كشاب يعمل تحت مظلة السريالية. وكما لخص «إيان جيبسون»، مؤلف كتاب «الحياة المشينة لسلفادور دالي The Shameful Life of Salvador Dali» (طبعة

بترتيب مع مجلة:
New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي



نورتون Norton ١٩٩٨)، وهو أحدث السير الذاتية للفنان وأكثرها توثيقا. الأمر بإقناع: فإن الحركة السريالية، بنزعتها الصادمة وتقديمها للا عقلانى والمكبوت، قد أعطت الضوء الأخضر لفنان شاب متقلب بطبعه وطموح ويمتلك المعرفة اللازمة، لكى يصنع فنا لكل ما يراوده من خيالات مجنونة وأحلام يقظة فاسدة وكوابيس. كما ألهمت الحركة أيضا - والتى اهتمت بالكلمة قدر اهتمامها بالفن البصرى - كلا من «ماجريت Magritte ١٨٩٨-١٩٦٧» (رسام بلجيكى) و«إيف تانجوى Yves Tanguy»، ١٩٠٠-١٩٥٥، (رسام أمريكى فرنسى المولد) للتعبير عن نفسيهما، بينما تأثر كلا من «ميرو Miro ١٨٩٣ ١٩٨٣»؛ (رسام أسبانى) و«إرنست Ernst ١٨٩١-١٩٧٦» (رسام ونحات ألمانى) اللذين كانا أكبر سنا - كثيرا بإصرار الحركة السريالية على الصراحة الجنسية وعلى دور الصدفة والتنافر المجرد فى صنع الصورة. وقد صنع الشاب «جياكوميتى Giacometti ١٩٠١-١٩٦٦»، (نحات سويسرى) بعضا من أروع تماثيله المبكرة، بما فى ذلك «إمرأة مذبوحة Woman with Her Throat Cut»، و«شىء بغيض Disagreeable Object»، منطلقا من إيمان السريالية بمواجهة المشاهدين بأفكار مزعجة، بل ومؤلمة أيضا.

ولكن أحدا لم يجسد السريالية بنفس القوة كما فعل «دالى». فمن خلال اللوحات التى أعلن بها عن نفسه لجمهور أوروبى عريض فى عام ١٩٢٩ الذى شهد انطلاقته الكبرى، انفتح أمامه الباب إلى اللا وعى، وما خرج من ذلك الباب كان صورا تمكنت من الاستحواذ على الإعجاب. وبإمكاننا فى لوحات مثل «الأيام الأولى للربيع» و«احتواء الرغبة» و«اللعبة الكئيبة»، أن نرى رجلا وقد لطخ نفسه، أو امرأة رأسها عبارة عن عضو أنثوى أحمر كبير يعج بالذباب، أو مجرد حشود مجردة. وعادة ما تتشابك أيدى الشباب فى تلك اللوحات لتغطى وجوههم، كما لو كانوا يشعرون بالعار، ويمكن - فى صورة أو اثنتين - أن نميز رجلا بلحية يبدو وكأنه «فرويد Freud» نفسه (١٨٥٦ . ١٩٣٩)، (عالم النفس الشهير)، والذى كان بطلا بالنسبة لـ «دالى» الذى قرأ عددا من أعماله.

وقد استبدلت اللوحات التى رسمها «دالى» فى أوائل الثلاثينيات، الوضوح القوى المتألق لأعماله المبكرة، بالضوء المتوهج المكبوت، كما أنه خفف من مناخها المهووس. وفى الصور اللاحقة قل ظهور السكاكين والدم المتدفق والأعضاء الأنثوية المتوعدة، ولكن ساد مناخ عام من الغرابة الشهوانية. فاحتوت الصور على أعضاء ذكورة على وشك القذف، وحلمات مثارة حتى أصبحت كالصوارى الصغيرة، وأرداف واضحة، والبعض من ذلك يظهر فى صور مشوهة غريبة مستحيلة، وعندما نعجز عن إدراك ماذا يجعل الصورة مزعجة أو شديدة الغرابة، فإن الأسماء التى يخلعها «دالى» على اللوحات - مثل «جمجمة مناخية تمارس اللواط مع بيانو كبير Atmospheric Skull Sodomizing a Grand Piano» - تكون ذات دلالة.

وقد اتضح أن «دالى» هو أكثر من مجرد فنان سريالى. لقد كان «كيانا سرياليا. وبمجرد أن حصل على تصريح بالإعلان عن كل ما يعرض له، سواء كان هاجسًا أو حلمًا أو حدسًا أو ولعًا أو ذكرى، أو حتى ذكرى زائفة (كما ذكر هو بنفسه فى سيرته الذاتية التى كتبها عام ١٩٤٢ بعنوان «الحياة السرية لسلفادور دالى The Secret Life of Salvador Dali»، لم يعد بإمكانه العودة إلى القمقم. وقد تحول «دالى» إلى وحش خالص، برغبته الجامحة - كما يبدو - لاستعراض معارفه، والإعلان عن عبقريته، والكشف عن واحد أو أكثر من مبادئ الوجود الكامنة منذ زمن، وبتصميمه أن يلطخ - بالبراز - كل ما يستطيع أن يصل إليه. وبالنسبة للمشاهدين الذين يتذكرون «دالى» منذ الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، فمن المستحيل الفصل بينه وبين لوحاته.

وقد لعب «دالى» دور أستاذ شيطانى للعربدة المعتوهة، مسلحا بشاربه الشائك وعصاه الحاضرة دائما وحلله الرسمية التى يغلب عليها اللون الداكن. وكانت إلى جانبه زوجته «جالا» التى تشبه أبى الهول، والتى كان يعتبرها راعيته ومصدر إلهامه وشقيقته وشريكته، بل ونصفه الآخر. وهى التى أدخلته عالم الجنس وقت أن كان فى الخامسة والعشرين بصورة أثارت اهتمامه بهذا الموضوع إلى درجة كبيرة، ويبدو أن جزءا كبيرا من حبه العبودى الشديد لها فيما بعد يعود إلى شعوره البسيط نحوها بالعرفان لأنها منحته الإحساس بالرجولة (وهو موضوع كان يؤرقه دائما). ومنذ أوائل الخمسينيات ولمدة ثلاثة عقود (أو حتى لم تعد سنهما أو حالتهما الصحية تسمح لهما بذلك)، كان الزوجان ينظمان وقتهما بطريقة ثابتة. فطوال نصف العام تقريبا كانا يقبعان فى منزلهما المتواضع على الساحل الأسبانى، حيث كان «دالى» منهمكا مع لوحاته معظم الوقت. أما بقية العام فكانا يقضيانه فى فنادق باريس ونيويورك، حيث كان الفنان يركز اهتمامه فى الترويج لنفسه، وكان ذلك يتضمن منتجات تحمل اسمه، بما فى ذلك المجوهرات والعطور والملابس. وبمرور الوقت، أصبح أهم دور تلعبه «جالا» هو دور المدير التجارى لأعماله.

وإلى درجة ما، ظل «دالى» على اتصال بالفكر السريالى التقليدى، بمعنى أنه كان يهدف فى أعماله - أو أفعاله كما يسميها - والتى يمكن أيضا أن يطلق عليها قطع من الفن الأدائى، أو مخاطرات، إلى تخريب الحقائق اليومية والمشاعر الطيبة. إن سلوكياته المتهورة لم تكن تختلف كثيرا عن تلك الخاصة بـ «إخوان ماركس Marx Brothers» (خمسة إخوة أمريكيين كونوا فريقا فنيا تمثيليا) الذين كان يحب أعمالهم، وعادة ما كانت أعماله تتضمن حيوانات ونساء شبه عاريات وأناسا غافلين قد يضبطون فى ممارسات لا منطقية. وقد يظهر «دالى» لإلقاء محاضرة وهو يرتدى معدات الغطس العميق (والتى كانت تصيبه بالاختناق)، أو يقدم نظرية مبهمة فى حديقة الحيوان بباريس تتضمن كركدن وأحد أعمال «فيرمير Vermeer ١٦٣٢-١٦٧٥»، (رسام هولندى)، أو مجرد أن يسبب الفوضى فى عرض أزياء. وقد آمن «دالى» - مثله فى ذلك مثل «هاربو ماركس Harpo Marx»، الذى كان الأقرب إليه من بين باقى الإخوة، كما أنهما تطلعا فى وقت ما للتعاون فى عمل فيلم سينمائى - بأن تهريج الفنان يتضمن عنصرا متهورا وماديا جدا.

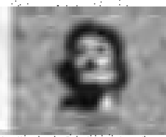
ويمتلك «دالى» أيضا جانبا أدبيا لا يستهان به. فبإمكانه الإفصاح عن سخافات لاذعة دائمة التذمر، أو أن يشير إلى «ماتيس Matisse» (١٨٦٩ . ١٩٥٤)، (رسام ونحات فرنسى)، على سبيل المثال، على أنه «رسام الطحالب الشهير»، أو أن يعلن: «أنا أكره البساطة بكافة أشكالها»، أو أن يقول أنه لم يعد يخشى الموت لأنه اكتشف أن «الله صغير جدا». وقد أعلن «إدموند ويلسون» (١٨٩٥ . ١٩٧٢)، (ناقد وكاتب أمريكى) أن رواية «دالى» «وجوه مختبئة» التى نشرت عام ١٩٤٤ هى رواية فاشلة، رغم أنها «مسلية»، كما أن سيرة «دالى» الذاتية التى كتبها بنفسه، والتى تبدو بلا نهاية، كانت ممتعة جدا وحازت عددا كبيرا من القراء، مثلها فى ذلك مثل رواية «الأسرار الخمسون لمهنة السحر» التى نشرت عام ١٩٤٨. ويقول «جيبسون» صاحب التعليقات النقدية القيمة جدا عن «دالى» الكاتب، أن صراحته بشأن الإستمناء والعار ليس لها مثيل فى النثر الأسبانى. كما كتب «دون أديس Dawn Ades» المؤرخ الفنى الذى يمكن اعتبار معرفته بفكر «دالى» دقيقة وموثقة (وهو أيضا راع رئيسى فى كتالوج فيلادلفيا)، كتب أن الدراسة التى قام بها «دالى» عام ١٩٣٤ للوحة «ميليت Millet ١٨١٤ . ١٨٧٥ رسام فرنسى، صلاة التبشير The Angelus» هى أحد أروع التفسيرات التى كتبت عن لوحة على الإطلاق.

وبينما تقدم العمر بـ ☛

أكثر أعمال «دالى» نبضا بالحياة
هى تلك التى يملأ فيها المشهد بشخصيات
صغيرة خرقاء بل وبدائية، لها وجوه ذات أعين
جاحظة. وأولئك الحمقى المقهقهون
المقتبسون من الكتب الهزلية



سيدة النافذة
(١٩٢٥)



الدينامو

«دالى» أصبح من الصعب معرفة ما إذا كان هو صاحب السطوة أم الضحية فى المعركة الضارية التى شعر أن عليه أن يشنها ضد ما هو تقليدى ومنطقى، ونظرا لازدرائه لفكرة الكمال الفنى، فلم يؤرقه أبدا أنه وقع عددا ضخما من الأوراق البيضاء فى مناسبات عديدة للانتهازيين لكى يصنعوا منها نسخا أصلية لـ «دالى» بأى طريقة يريدونها. وبينما تركزت اهتمامات «جالا» أكثر فأكثر فى جمع المال واللهو مع الشباب، أصبح الرسام، الذى لم يؤمن أبدا بفكرة الصداقة (مع استثناء واحد أو اثنين) العوبة - أكثر وأكثر - فى أيدى مرتزقة يناورون لاستنفادهم الشخصية. وبالنسبة لكاتب هذا المقال، فقد حدثت نكسة فى حياة «دالى» عام ١٩٧٩، عندما تم قبوله رسميا كعضو فى «أكاديمية الفنون الجميلة» التابعة لـ «المعهد الفرنسى». فبعد إلقائه لخطاب قبوله، والذى أجفل فيه الحضور بملاحظات عابرة عن «شعر العانة» صرح لأحد المراسلين بأن فنه «محض هراء». ولكن كانت هناك الكثير من النكسات فى انحداره الطويل، ليس أقلها صورة الفنان فى سنواته السبع الأخيرة بعد وفاة «جالا» عام ١٩٨٢، حيث أصبح وحيدا تماما وبانتظار الموت.

ومع ذلك، فرغم أن «دالى» سينظر إليه دائما وبلا شك من منظور سريالى، إلا أن المرء ليتساءل إن كانت هناك سبل أشمل لاستيعاب أعماله والتمتع بها. وعندما يستعرض النقاد بكل اهتمام لوحاته من عقد الثلاثينيات، فإنها تمر وكأنها سجل توضيحى للسريالية أو النظرية الفرويدية (نسبة إلى فرويد)، أو دراما مكثفة من الغضب الأوديبى، أو خوف من الإخصاء، وهى بانتظار أن يتم تفسيرها. ولكن الكتابات من هذا النوع تخلع على اللوحات قيمة لا تستحقها فى بعض الأحيان. فالكثير من خيالات «دالى» النفسية الخاصة بالزمن، وخاصة تلك التى تدور حول هواجسه بالنسبة لأسطورة «ويليام تل William Tell» على سبيل المثال، والتى يراها عملا مشئوما غير محترم، أو مجموعة من الأعمال التى تتعلق بالهواتف، لا تستحق عادة أن تتحول إلى لوحات.

إن ما يمنح فن «دالى» الحيوية ليس معرفته وإنما مهارته كرسام وعدم صبره على اتباع أسلوب واحد. وكثيرا ما تعقد المقارنة بينه وبين «بوش Bosch ١٤٥٠ - ١٥١٦» (رسام هولندى) وواقعية منمنمات القرن الخامس عشر، حيث إنه يأتى بالرهيب والعجيب فى تفاصيل مرسومة بإحكام، مستخدما فى العادة صورا صغيرة الحجم للغاية. ورغم أن من الواضح أنه تجاوب مع فن المنمنمات فى حد ذاته، كما فعل «ميرو» و«تانجوى» و«جياكوميتى»، إلا أن لوحاته فى الثلاثينيات لم تكن تشبه كثيرا لوحات «بوش». فبإمكانه أن يكون طبيعيا (نسبة إلى مذهب الطبيعية) فى إحدى لوحاته مظهرا الملمس الحقيقى لأحد الشواطئ، بينما يسود اللوحة التالية أسلوب اصطناعى يشبه رسما فى أحد كتب الأطفال. أما لوحة «الحلم» (١٩٣١)، والتى تحتوى أساسا على صورة شبه زخرفية لامرأة مغمضة العينين، ويسودها اللونان الأسود والأبيض، فلها القوة الهادرة لـ «مارسدين هارتلى» ١٨٧٧ - ١٩٤٣، (رسام أمريكى) أو شيئا من «راؤول» (١٨٧١ - ١٩٥٨)، رسام فرنسى.

أما أكثر أعمال «دالى» نبضا بالحياة فتلك التى يملأ فيها المشهد بشخصيات صغيرة خرقاء بل وبدائية، لها وجوه ذات أعين جاحظة. وأولئك الحمقى المقهقهون المقتبسون من الكتب الهزلية ومن رسوم صحف ومجلات مجهولة، قد يمثلون - حرفيا - شرور العقل الباطن، ولكنها تمثل للناظر إليها مصدرا للبهجة والسعادة. أما أفضل تحويرات «دالى» لنوع من التواصل مع الجمهور فهى أعماله الفوتوغرافية. ففى أوائل الثلاثينيات قام برسم نسخ قليلة جدا عن صور فوتوغرافية تعرضت - عمدا - أثناء التقاطها لكمية زائدة قليلا من الضوء، وكانت «جالا» هى موضوع العديد من تلك الصور. ورغم صغر حجمها الشديد إلا أن تلك الصور تعد من بين أكثر أعمال «دالى» إثارة على الإطلاق.

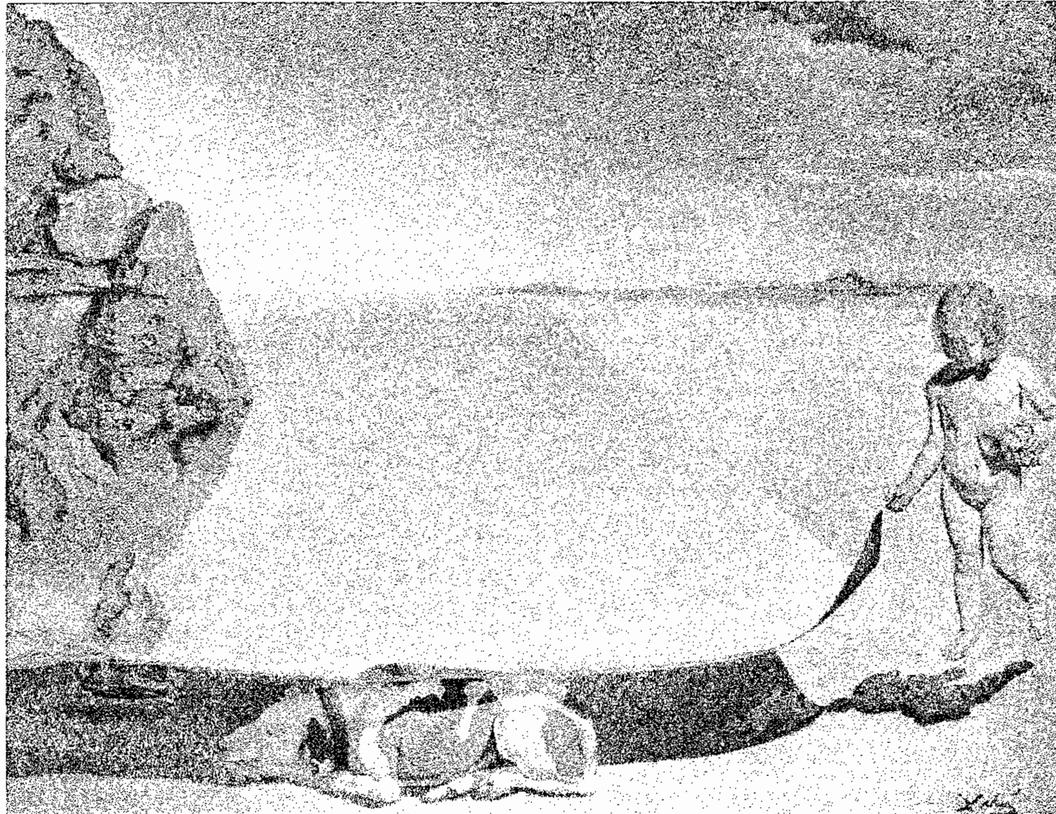
ومزاجيا، كان «دالى» صانع رسوم متحركة، بمعنى أن لوحاته كانت أقرب إلى أن تكون صورا ساكنة من فيلم رسوم متحركة، أو بمعنى أشمل وأكثر غموضا، كان يود أن يعيد الحياة إلى شخص أو شىء ما. وقد ذكر «بيكاسو Picasso» (رسام ونحات أسبانى) أن مواطنه الأصفر يشبه محرك الزورق الخارجى الذى لا يتوقف عن الدوران، وعندما تستوعب الكثير من فن «دالى» وتقرأ عنه كشخص، ملتقيا أثناء ذلك مجنون العظمة الذى لا يستطيع التوقف عن قذف جمهوره باستنتاجاته التى تدور حول الدوافع الجنسية والعلاقة بين الأجسام الصلبة والرخوة والطاقة الذرية ونظرية الفوضى والمسيحية والحامض النووى والمعانى الخفية للصور والأساطير، عندئذ تظهر لك طاقته الذاتية كموضوعه الأساسى. ويمكن أيضا رغم ذلك أن يبدو - فى مراحل مختلفة من حياته - وكأنه قد وصف تلك الطاقة حرفيا، كلحظة سكون للحركة أو كضوء متقطع أو أى كيان مسنن أو فوار أو يشبه الدماغ أو مجدول.

وتقوم أعمال «دالى» على إدراكه لطبيعة الضوء المتغير والمناظر الطبيعية لمكان معين من العالم. وقد نشأ فى مدينة «فيجوِرس» التى لا تبعد كثيرا عن شاطئ البحر المتوسط، وكانت عائلته تنتقل فى كل صيف إلى مدينة «كاداكيس» الساحلية القريبة. وقد رسم «دالى» عددا هائلا من لوحاته بجوار شاطئ البحر، وتتميز حافة الشاطئ فى ذلك الجزء من شمال شرق أسبانيا بصخور الأديم الجيولوجية ذات النتوءات الحادة، ومن المؤكد أن جانبا محوريا من المنظر الطبيعى كان متعلقا من وجهة نظر «دالى» بطريقة سقوط الضوء على الألسنة الصخرية الممتدة داخل البحر والتى تمتلئ أسطحها بعدد لا يحصى من الضلوع المجعدة الصغيرة. كان «دالى» يرى فى الصباح المبكر أو الشفق تأثيرا هائلا، عندما تسقط أشعة الشمس على الصخور، وهى لحظات كان عادة ما يسجلها فى أعماله. وربما تظهر الأجسام الصلبة كما لو أنها غير مادية، وقد يتجسد الضوء نفسه فى شكل مصهور.

وكان الإحساس بالطاقة التى على وشك الانطلاق، أو بالحركة المقيدة هو الذى يرغب «دالى» - فى جميع الأحوال - فى عرضه باستمرار. ويظهر ذلك فى أماكن غير متوقعة. فكثيرا ما رسم المستطيلات الضيقة نظرا لتشابهها مع عضو الذكورة، ولكنه رسم أيضا الخبز فى أشكال أخرى، لأن قشرة الرغيف - عندما يسقط عليها الضوء - لها حضور متموج على وشك التحرك، وذلك كما ظهر فى لوحة زيتية جميلة عام ١٩٢٦ اسمها «سلة خبز». ويبدو أن توقير «دالى» لـ «فيرمير» له أيضا علاقة بالأسلوب الذى يلمح به بخوف إلى الحركة الاستهلالية من خلال الضوء. إن إحساس «دالى» بانطلاق الطاقة يكمن وراء رسومه العاجلة أحيانا، والتى تعود إلى جميع مراحل حياته، للانفجارات أو الانفصامات عند لحظة معينة، وكذلك وراء محاولاته - الأقل نجاحا - فى السبعينيات مع الصور والمجسمات ثلاثية الأبعاد.

والأهم من ذلك، أن سعى «دالى» وراء الحركة ساعد - جزئيا - فى تجاربه مع الصور المزدوجة. واللوحة التى تحتوى على صورة مزدوجة أو صور متعددة هى تلك التى يظهر فيها - حرفيا - شىء مختلف تماما إذا ما نظر إليها بطريقة مختلفة. وعلى سبيل المثال، ففى لوحته «سوق العبيد مع التمثال النصف المختفى لفولتير» نرى - ضمن أشياء أخرى - عددا من البشر يهيمون فى الأطلال. ولكن بعض النساء فى اللوحة يمكن - طبقا للأسلوب الذى رسم به «دالى» ملابسهم ووجوههم - أن يشكلوا ملامح لوجه الكاتب الفرنسى «فولتير»، كما تبدو - فى نفس العمل - أرداف امرأة فى اللحظة التالية وكأنها قطعة فاكهة فى طبق.

تعد لوحة «طيف وجه» إحدى أعظم لوحات البورتريه الشبحية فى القرن العشرين، بما نحسه فيها من حضور إنسانى قوى، وإن كان غير محسوس، ينبع من شاطئ حريرى ومنظر طبيعى كبير فى الخلفية



ظلال البحر (١٩٥٠)

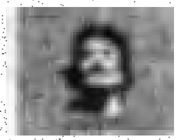
ويبدو أن رسم الصور المزدوجة كان عملا مثاليا بالنسبة لـ «دالى» الذى تجاوز الحدود - فى سعيه للحط من قدر كل الأفكار التقليدية المبالغ فى فنيتها - وأصبح مصدرا للمبدع المبهرجة. ومع ذلك، فهنالك فنانين، مثل «ليوناردو» أو «آرشيمبولدو»، ممن كان لهم - منذ قرون - باع فى الخيالات أو الخدع البصرية، مثل الصور المزدوجة. إن فكرة احتواء اللوحة على فخ يسقط فيه المشاهد هى جزء من ولع السريالية بإرباك الجمهور وإثارة حيرتهم. وقد خاض «إرنست» تلك التجربة، كما نجح «ماجريت» فى ذلك نجاحا باهرا فى لوحته «متنزهات إقليدس The Promenades of Euclids»، والتى يبدو فيها طريق وبرج مخروطى وكأنهما - للوهلة الأولى - برجين.

إن انخراط «دالى» فى الصور المزدوجة، والذى يعود إلى أوائل الثلاثينيات، يترنح من التكلف إلى الروعة الأصيلة. وقد انتقد «بريتون» تلك الصور ووصفها بـ «أحاجى الكلمات المتقاطعة». إن النظر إلى الصور المموهة يعطى فعلا الإحساس بأن الصورة قد اختزلت نفسها. ومما يسبب الإزعاج والضيق - للحظة - اكتشاف أن الكائن العملاق وبلا رأس الذى يظهر أمام الطفل فى لوحة «شبح الجاذبية الجنسية The Spectre of Sex Appeal»، له رأس يتجسد فى الصخور المجاورة. ولكن من المزعج فى النهاية أن تدرك أنه لا يمكن النظر إلى اللوحة بعد ذلك دون أن تظهر لنا فجأة رأس الشبح.

ومع ذلك، ففى بعض محاولات «دالى» استطاعت الصور الكامنة أن تشكل - بنجاح - لوحة أكثر إثارة للحيرة. ففى لوحة «أحجية بلا نهاية Endless Enigma» الكئيبة (١٩٣٨)، والتى يشكل فيها وجه وكلب وإنسان مستلق وعناصر أخرى مشهدا ضخما، فإن الصور الشبحية المتشابكة تخلق عالما مستترا دائم التغير يجعل الصورة تشبه - بشكل متناقض - عملا تكعيبيا، بل عملا تجريديا، وهو بالضبط نوع الصور الذى كان «دالى» يستهجنه.

وتمثل لوحة «أحجية بلا نهاية» أيضا ارتياد «دالى» - ربما بغير قصد - لعالم عاطفى يتناقض مع شخصيته. وتلك اللوحة هى أحد أعمال الصور المتعددة التى رسمها «دالى» وقت انتشار عروض «فيديريكو جارسيا لوركا Federico Garcia Lorca ١٨٩٨-١٩٣٦»، (شاعر ومسرحى وموسيقى أسبانى) الصديق المقرب لـ «دالى» فى شبابه، والذى قتل فى ظروف غامضة عام ١٩٣٦ فى مسقط رأسه «جرانادا» على يد الفاشيين قبيل بداية الحرب الأهلية الأسبانية. وقد بذل «دالى» فى تلك اللوحة جهدا كبيرا، ولكنها تبدو باهتة بجانب بقية أعماله بالمعرض مثل لوحة «طيف وجه وطبق فاكهة على شاطئ» (١٩٣٨ أيضا)، والتى تعد من أقوى لوحات «دالى» على الإطلاق. وتحتوى تلك اللوحة على شاطئ طويل ممتد يمكن أن ينظر إليه أيضا كسطح مائدة، وبه طبق أبيض يشبه الكأس به فاكهة. ويشكل الكأس - مقترنا بامرأة تجلس على الشاطئ - وجها ضخما ينظر إلينا. ونكتشف فى الخلف، فى المنظر الصخرى الساحلى المتصل، كلبا ضخما طوقه عبارة عن قناة. وهكذا.

وتبدو تلك اللوحة مزدحمة أكثر مما ينبغى، ولكن العناصر كلها تتلاحم بروعة حول وجه مهيب مغر، بل وداعر قليلا. إن تصوير الوجه معجزة إبداعية. كان تشكيل إحدى العينين من جرة بعيدة بديعا على نحو خاص، بينما الحيوان المكشر الذى يشبه القناع مقبول على نحو طبيعى. وكانت جبهة «لوركا» ضخمة فعلا بهذا الشكل بحيث تجعل عينيه فى الظل. كان «لوركا» - وهو شاذ جنسيا - محبا جدا لـ «دالى» فى العشرينات، عندما كان - مثله فى ذلك مثل «دالى» و«لويس بونويل» - طالبا فى نزل الطلاب بمدريد. وكان «دالى» - الذى عاش طوال حياته يخشى على ما يبدو أن يصبح شاذا جنسيا - يرفض باحتقار تلميحات «لوركا» الجنسية. ولكنهما بقيا على صلة وثيقة لمدة طويلة فيما يتعلق بأعمالهما



الـديـنـــامو

وكذلك بالنسبة للأحداث الفكرية الجارية عموما. وحتى بعد أن افترقا وانطلق كل منهما فى طريقه، واقترن «دالى» بـ «جالا»، فقد ظل كل منهما فخورا بإنجازات الآخر. وقد لمح «جيبسون» إلى أن مشاعر «دالى» تجاه «لوركا» ربما كانت أعمق من مشاعره تجاه أى شخص آخر عرفه فى حياته.

ومن الغريب أنه لم يرد لدى «جيبسون» أو فى كتالوج معرض «فيلادلفيا» أى تعليق حول وجود كلب فى لوحة «طيف وجه وطبق فاكهة على شاطئ» وكذلك فى اللوحات الأخرى التى تدور حول وجه «لوركا». ومع ذلك، فهذا الحيوان، بحضوره الظريف، هو - على الأقل - عنصر هام لنجاح لوحة «طيف وجه» على الأقل، وليس من الصعب أن ندرك أن «دالى» كان يبعث برسالة معينة باختياره لهذا الحيوان. وعند عرضهما لفيلمهما «الكلب الأندلسى»، كان «بونويل» و«دالى» يفخران - بطرافة - أن «لوركا» هو موضوع الفيلم، فبطل الفيلم مخنث فاشل، وقد جاهد «بونويل» - الذى كان مشتهيا للجنس الآخر - خلال تلك السنين لقطع «دالى» عن علاقته بـ «لوركا» الموهوب الجرىء ذى الجاذبية الشديدة. بل أن طلاب النزل القادمين من جنوب أسبانيا كانوا عادة ما يطلق عليهم - مثل «لوركا» - كلاب أندلسية. وقد أكد «بونويل» علنا أن عنوان الفيلم الذى أنتجه مع «دالى» لا يدل على شىء، حيث لم يظهر بالفيلم أى أندلسى أو أى كلب. ومع ذلك، فعندما استرجع «دالى» ذكرى «لوركا» بعد وفاته، بدا من مشاعره العديدة المختلطة وكأنه يقول: «نعم، لقد كان كلبنا أندلسيا».

وتعد لوحة «طيف وجه» إحدى أعظم لوحات البورتريه الشبحية فى القرن العشرين، بما نحسه فيها من حضور إنسانى قوى - وإن كان غير محسوس - ينبع من شاطئ حريرى ومنظر طبيعى كبير فى الخلفية. ويعد البورتريه غير المباشر أحد إنجازات «دالى» التى لم تلق كثيرا من التقدير. فهو لم يعرف كرسام بورتريه، والمثال الوحيد الواضح لهذا النوع من الرسم فى المعرض هو اللوحة الزيتية لـ «إيزابيل ستايلر-تاس Isabel Styler-Tas» (١٩٤٥)، وهى عبارة عن لوحة ساكنة رغم أنها تشبه الأصل تماما. وفضلا عن ذلك، فإن الوجه الذى نراد كثيرا وبوضوح فى لوحات «دالى» يعود إلى «جالا»، وفى حين أن لوحاته الصغيرة لها، والتى تشبه الصور الفوتوغرافية هى مستوحاة، فإن صوره العديدة اللاحقة لها، والتى تظهر فيها صراحة أو مدثرة فى الملابس، ممثلة لـ «ليدا» أو «مريم العذراء» كانت جامدة. فقد فشل «دالى» فى أن يجعل من وجه زوجته رمزا أو ملمحا لأى عاطفة معينة.

ومع ذلك، فإن أجمل لوحات «دالى» على مدى تاريخه - مثل «طيف وجه» - هى صور مستترة أو غير ملموسة لأفراد، رجال فى العادة. والكثير من أفضل لوحاته فى أوائل الثلاثينيات، مثل «المستمنى الكبير» و«النوم» و«لغز الرغبة» تتضمن - خلسة - بورتريهات لـ «دالى» نفسه متخذا شكل كائن متهدل يشبه حيوان الخلد وله وجه منكمش وأنف مستدق الطرف، وهو شكل يرتكز إلى صخرة معينة فى منطقة «كاداكيس». ويمثل تصور «دالى» الكاريكاتيرى لنفسه فى تلك الأعمال، بعينيه المغلقتين بإحكام ورموشه الطويلة، الحالم الذى يحلم بنفس الصور التى ننظر إليها. وترتكز أجمل لوحات «دالى» فى نهاية الثلاثينيات أيضا على الأشخاص الفرادى المتضمنين - أو المستحضرين - للمشاهد الأكبر التى تحيط بهم، والذين بقوا على مسافة منا. أما لوحة «انطباعات من أفريقيا Impressions of Africa» التى تتميز بألوانها المتوهجة من الأحمر والبنى وتصميمها الأنيق، فتظهر «دالى» نفسه منحنيا على حامل اللوحة، وهى حالة نادرة جدا فى أعماله. ومع ذلك، فإن اللوحة شديدة التعقيد لدرجة أن معظم وجهه محتجب عن المنظر.

وفى لوحة «تحول النرجس» (١٩٣٧) يصعب فى البداية العثور حتى على البطل فى مشهد محموم يوحى بصليب بين القمر و«فيرمونت» فوق كومة من أوراق الخريف. وترمز تلك الصورة إلى احترام الذات حيث لا نتمكن من رؤية وجه البطل أو انعكاسه. وفى لوحة «بناء رخو مع فاصوليا مسلوقة (هاجس الحرب الأهلية)»، فبينما ننظر إلى كائن مخبول يمزق نفسه، فإن ما يمنح تلك اللوحة تأثيرها الدائم له علاقة بالطريقة التى يقتلع بها وجه الشخص خارج الصورة. إننا نبذل جهدا لنرى ذلك.

ولم تعد قدرات «دالى» على الابتكار هى نفسها بعد انقضاء عقد الثلاثينيات، ولكنه بين الحين والآخر كان يخرج علينا بلوحات تؤثر فينا تأثيرا مباشرا، وهى ليست مجرد تعبير عن هواجسه فى لحظة معينة. ومن أفضل تلك اللوحات «بورتريه أخى الميت» (١٩٦٣) و«مصارع الثيران المهلوس» (١٩٦٨-١٩٧٠) وكلتاهما حول رؤية مخادعة لأشخاص. وفى تلك اللوحات الضخمة ليس من الواضح حتى من الذى تنظر إليه. فشقيق «دالى» الأكبر والذى كان يدعى «سلفادور» توفى قبل سن الثانية، ولذلك فمن الصعب أن يكون الشاب فى لوحة «بورتريه أخى الميت»، والذى يطوف وجهه الوسيم - والغامض أيضا - عبر منظر طبيعى شكله حاجز منقط يختلط عند الأطراف مع مشاهد لأناس صغار، هو شقيقه الفعلى. وقد ذكر «دالى» أنه رأى ذلك الوجه فى خصر تمثال «فينوس دو ميلو Venus De Milo». إن هذا العمل الملىء بالأوهام البصرية، والذى صنعه «دالى» ليضم تلك الصورة المزدوجة، يحتوى - ضمن عناصر عديدة أخرى - على عدد من شخصيات «فينوس دو ميلو» ورأس صغير طاف لـ «جالا» وسرب من النحل. ولسوء الحظ، كان للوجه الضبابى لصارع الثيران مسحة استسلامية تدمغ العمل كله بنبرة عاطفية. ولكن طريقة مجىء وذهاب وجه الرجل - أحيانا يكون واضحا تماما وأحيانا يبدو وكأنه اختفى فى ذلك العالم من الأحلام المسرفة فى ألوانها - تجعل من الصورة وكأنها إحدى لحظات التلاشى فى فيلم سينمائى. وكلحظة تحول، تتميز تلك اللوحة بالرشاقة والصفاء مثل غيرها من لوحات «دالى»، ويبدو العمل كله - ليس مصادفة على الأغلب - وكأنه كان آخر مهمة رئيسية له.

ومع ذلك، فقد كان الوجه المألوف لـ «دالى»، والذى يطل علينا بمهابة، هو الإعلان الوحيد عن معرض «فيلادلفيا». وتلك الصورة هى إحدى الصور الفوتوغرافية العديدة لـ «دالى» التى التقطها «فيليب هالسمان». وقد عمل الرجلان معا لسنوات، وبعض اللقطات التى ابتدعاها، والتى نرى فيها «دالى» فى حلته الداكنة أو يتقافز عن الأرض، أو مع الحلى، أو القطط، أو أناس آخرين، أو مع نوافير الماء السابحة أو المتجمدة فى الهواء، تعبر تماما عن حاجته لتقديم الطاقة المطلقة. ولكن صورة «هالسمان» الفوتوغرافية المعروضة حاليا هى لـ «دالى» ذى الشخصية غريبة الأطوار والتى تدفعنا للتساؤل هل ستكون شخصيته أبدا ذكرى بعيدة؟ ومتى يمكن أن يحدث ذلك؟ وهل ستكون للوحاته حياة بذاتها؟

وحتى مع غياب مدير الحلبة، فإن لفن «دالى» بالتأكيد مناخ السيرك، ومحاولة إدراك سبب إنتاجه لكل تلك الخردة ستؤدى بنا دائما مرة ثانية إلى شخصه. ولكن بدون أن نقتنع تماما بالشخصية، فيمكننا أن ندرك بوضوح أكثر أن العديد من أقوى لوحات «دالى» - وربما الوحيدة المحركة للمشاعر - هى تلك التى تدور غالبا حول أشخاص ووجوه تنسحب فى خجل بعيدا عنا: أو لا يمكن رؤيتها إلا تدريجيا، ولا تستطيع الاعتماد على نفسها فقط. وربما كان إدراكنا أنه يداخل مجموعة من أكثر الصور بهرجة لفنان من القرن العشرين، تكمن بعض صور البشر الأكثر انطوائية ورقة فى القرن نفسه، هو فى حد ذاته أفضل أعمال «دالى» من الصور المزدوجة. ■

لم تعد قدرات «دالى» على الابتكار هى نفسها بعد انقضاء عقد الثلاثينيات، ولكنه بين الحين والآخر كان يخرج علينا بلوحات تؤثر فينا تأثيرا مباشرا








دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com

«سياسة الموالد»!

آنا ماديسوف

■■ عندما يبدأ شهر ربيع الثانى فى القاهرة، يعلم الجميع أن الاحتفال بمولد سيدنا الحسين أصبح وشيكا (يعرف هذا الاحتفال فى مصر بالـ «مولد» (عيد الميلاد) والجمع «موالد»، ولكن بدلا من مجرد الإشارة للذكرى السنوية لتاريخ الميلاد أو الوفاة بالتحديد، فإن المولد يشير ببساطة إلى يوم الاحتفال بصاحبه). ويحيى هذا المولد ذكرى ميلاد سيدنا الحسين حفيد النبى محمد (عليه الصلاة والسلام). ومع ثبات تاريخ هذا الاحتفال حسب التقويم القمرى الإسلامى، فإن موعد الاحتفال يتقدم كل عام حوالى عشرة أيام مقارنة بالتقويم الشمسى العالمى. وهذا الاحتفال الشعبى المقام حول المسجد الكبير بالقاهرة والذى يحمل اسم الحسين الذى يسبغ عليه الصوفيون قدسية خاصة، يجتذب المقيمين والزوار من جميع أنحاء مصر باعثين النشاط طبقا لطقوس المولد فى كافة أرجاء الحى الذى يحمل نفس الاسم، ومبدلين نظام ووتيرة المكان (فى النسختين الفرنسية والإنجليزية لهذا الكتاب الذى يتناول تبجيل الأولياء الصالحين من النساء والرجال وأحفاد الأنبياء فى الإسلام الصوفى والطقوس اليهودية الموازية غالبا ما يشار إلى تلك الشخصيات كـ «قديسين»). ويثير هذا المصطلح حساسيات أرثوذكسية معينة، حيث إن اليهودية والإسلام لا يقدسان تلك الشخصيات بنفس مفهوم المسيحية. ولكن الباطنية الصوفية أو الاندماج فى الموالد لا يهتمان بمراعاة الخصائص الأرثوذكسية. من هذا المنظور فإننا سوف نتبادل استخدام تعبيرى «قديسين» و«أولياء الله الصالحين» للتحدث عن الشخصيات الروحانية التى تقام لها الموالد والمبجلين المدفونين فى الأضرحة التى يؤمها زوار الموالد). وفى سياق المحاولات الحمقاء لقوات شرطة العاصمة والحكومة المحلية لإغلاق المكان أمام الاحتفالات الصوفية الشعبية الضخمة، كوسيلة لقمع أى تجمعات جماهيرية حاشدة - وخاصة بعد التظاهرات الشعبية الضخمة فى القاهرة إبان الغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ - فإن هذا الفصل يهدف لشرح المعانى الخاصة والممارسات والمباهج التى تتسم بها موالد القاهرة، ورغم أن الموالد ليست أمرا سياسيا تماما، إلا أنها لا تزال تشكل كيانا مقتضامنا جماهيريا حضريا بديلا، كما تقف عائقا أمام المحاولات الفكرية والجغرافية والدينية لاحتوائها.

يقدم هذا الفصل قراءة للطرق التى يتم من خلالها الاحتفال بالمناسبات العامة فى القاهرة - أو على الأقل المتميزة منها - أثناء الظروف الخاصة التى تخلقها تلك الاحتفالات أو الموالد (هذا الفصل قائم على العمل الميدانى فى القاهرة بين عامى ١٩٩٨ و٢٠٠٣ أثناء الاحتفالات بمولدى الحسين والسيدة زينب - وهما أهم الموالد على الإطلاق - وكذلك أثناء موالد «يونس السعدى» و«أبو العلا» و«فاطمة النبوية» و«عائشة النبوية»). إن تلك الأحداث تشكل مناسبات زمانية مكانية مقدسة خاصة معروفة الحدود، حيث إنها احتفالات شعبية وأضرحة مقدسة فى الوقت نفسه. وأثناء البحث عن الطرق الممكنة لتفسير طبيعة المناسبات العامة، سوف أعود إلى التعريف المقتضب - وإن كان موحيا - لحنا آرينت، لها باعتبارها «ظهور مساحة ممكنة بين أناس يمارسون طقوس وآخرين يتحدثون». وعندما نتعرض لذلك فى سياق الاحتفالات، فإن اللغة ليست كلمات فقط ولكنها تتكون كذلك من إيماءات وسلوكيات ورموز وطريقة إخراج. وبالإضافة لذلك، تتميز تلك الاحتفالات ليس فقط من خلال الحوار والتواصل ولكن أيضا من خلال امتزاج الطبقات والأنماط الاجتماعية والرموز المكانية والسلوكيات. هناك شكليات معينة لتواجد الناس معا - تجاورات ومواقف ومواجهات - لا تتوافر إلا فى الموالد وضمن حشود احتفالية عارمة.

وفيما يتعلق بالجانب التحليلى لمنهجنا، فإننا بحاجة لأن نحدد الفرضيات الأساسية لمشروع البحث وننتبه إلى احتياطات معينة. نحن لن نترصد المظاهر والآثار الدائمة الشائعة التى يستحيل تغييرها تحت ذريعة أننا نتعامل مع مجال غريب، ولن نبالغ كذلك فى إظهار النواحى اللاهوتية الخالصة لتلك الطقوس الشعبية الجماعية.

وبالمثل، فمن غير المجدى أن نجتهد لعمل تصنيف رسمى لما هو دينى ومقدس وما هو احتفالى، أو عمل نوعين لفصل عناصر تلك المجموعة المتشابكة من المواقف والمشاهد غير القابلة للتفكك. لا يوجد مولد بدون جماعة صوفية بالضبط كما لا يوجد مولد بلا ساحة وملاه وأكشاك تجارية. بل إننا - بدلا من محاولة الفصل بين مظهرى العيد - سوف ننظر إليهما باعتبارهما جزءا من كل. وهناك بالفعل منطق وراء التوزيع المكانى لهاتين السمتين؛ ولا يشارك كل من هو موجود بالضرورة فى كل نواحى الاحتفال. ولكن العيد عبارة عن مناسبة عن تنظام كل ما فيه مباح تماما، والتنوعات المتغيرة والمتبدلة يخطط لها عدد كبير من الأفراد والفاعلين. وسوف نتعامل مع مظاهر الاحتفال ومع المقدسات عن طريق تقديم تسلسلات زمنية ومكانية مختلفة عديدة، اعتمادا على الملاحظات التى تم جمعها أساسا من أكبر مولدين بالقاهرة وهما مولدا الحسين والسيدة زينب.

سوف ننظر إلى المكان المقدس كبناء فراغى أقيم حول خيال أولئك المشاركين فى المولد، كمكان حقيقى ضمن منظومة جماعية من الإقليمية «التخيلية» النشطة. ويجب أن نؤكد حقيقة أن المولد لا يأتى فجأة من الفراغ، ولكنه حدث يلتحم بثقافة وتقاليد سكان الحى ضمن منطقتهم. وعندما يحتفل المولد بأحد أهم الأولياء مثل الحسين أو السيدة زينب أو السيدة عائشة فإن ثقافة وتقاليد ومشاركة الأتباع من جميع أنحاء القطر تتدفق إلى القاهرة متعلقة بالمكان. ويعرف المقيمون - وخاصة النساء - مواقع أولياء الله من الرجال والنساء فى أحياء المدينة ويقومون بتحديد تواريخ الاحتفال بهم على التقويم. وعلى سبيل المثال، فقد لاحظت نوال المسيرى فى دراستها لأزقة «السكرية» عام ١٩٧٩ أن مقابر الأولياء تعد من أهم العناصر التى تقوم عليها الجغرافية الأنثوية للقاهرة. ولو نظرنا للمولد باعتباره مناسبة زمانية للذاكرة الحية، فمن الضرورى أن نتذكر أن تلك الذاكرة هى ظاهرة حالية دائمة وهى صلة حية بالحاضر الخالد.

احتفالات الموالد فى المدن
أنها أحداث مزعجة وشعبية
ومعترف بها دينيا ولكنها - نسبيا -
غير متهورة وغير متشددة
وغير سياسية

فصل من كتاب:
Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York

ترجمة: عادل فتحى السيد

الأعياد المصرية

الأعياد هى احتفالات دورية تحدد إيقاع العام للعديد من المرتبطين بالزراعة ولأفراد الطبقة الشعبية بالقاهرة وممثلى المجتمع المدنى الشعبى الذى يشكل أهمية قصوى، مع منظمات الحركة السياسية والطرق الصوفية المصرية، وتلتقى





الجماهير ضمن تلك الفعاليات المقدسة للاحتفال بمولد النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) وآل بيته، وكذلك بموالد الأولياء والقديسين من المسلمين والمسيحيين (وحتى اليهود حتى عهد قريب). وتتراوح أعداد الحضور فى كل تلك الموالد العامة بين عشرات ومئات الآلاف من الناس. وتقام فى القاهرة أكثر تلك الموالد أهمية على الإطلاق، بجانب موالد منطقة دلتا مصر (سيد البدوى فى طنطا وإبراهيم الدسوقى فى دسوق). وطبقا لوزير الأوقاف، يقام فى مصر أكثر من أربعين احتفالاً بموالد الأولياء، بينما يقدر المجلس الصوفى عدد احتفالات موالد مؤسسى الطرق الصوفية بما لا يقل عن ثمانين. ويجب إضافة عشرات من الاحتفالات الصغيرة إلى أرقام تلك الإحصائيات. أن إقامة الاحتفالات واستمرارها يرتبطان بوضوح بالشعبية الهائلة والمكانة الاجتماعية للطرق الصوفية. ولا يقل أعضاء تلك الطرق فى مصر عن ستة ملايين موزعين على أكثر من ١٢٠ طريقة صوفية تتمتع ٧٣ منها بالاعتراف الرسمى. وتنضم الجماعات الصوفية الصغيرة تحت لواء مختلف الطرق الصوفية الرئيسية، ومن أهمها الخلوتية والأحمدية والبرهامية والشاذلية والرفاعية والقادرية.

تقدر الصحف المصرية أن مليون زائر يشاركون فى الاحتفالات الكبرى بمولدى الحسين وشقيقته السيدة زينب، وهو رقم يعد جزافيا ورمزيا فى الوقت نفسه. فقاطنو القاهرة يشاركون بأعداد هائلة فى تلك الاحتفالات، ولكن الزائرين أيضا يأتون فى جماعات من جميع أنحاء مصر تحت رايات العديد من الطرق الصوفية. ويهتم المؤرخون بتلك الاحتفالات اهتماما خاصا باعتبارها مادة للدراسة وخاصة فيما يتعلق بدراسة الصوفية وتنظيمات الجماعات ووظائفها الاجتماعية والسياسية والثقافية وأسرار النشوة والقدسية الصوفية. وسوف نركز هنا على الوظائف الجغرافية والدلالية الحضرية نظرا لأبعادها الهامة المهملة.

ربما بدأت المؤلفات الحديثة حول احتفالات المولد بكتاب «الخطط التوفيقية الجديدة» الذى وضعه «على باشا مبارك» فى نهاية القرن التاسع عشر، أو الإحصاء الوصفى للاحتفالات الذى قام به «مكفرسون» عام ١٩٤١. ويوفر كتاب الصور الذى علق عليه «بيجمان» مجموعة متنوعة من مشاهد الاحتفالات المصرية. وتتضمن روايات الرحالة أحيانا معلومات حول تطور احتفالات معينة فى مناطق محلية محددة. وفى النهاية، فإن المؤلفات المصرية المعاصرة، الروايات «يحيى حقى، ونجيب محفوظ، وعبد الحكيم قاسم» وخاصة السير الذاتية «طه حسين، وسيد عويس»، تستخلص المعانى والقوة من الروابط الاجتماعية والشخصية والحضرية والمكانية المتحدة جميعا فى محيط المولد.

ومع ذلك، فهناك نقص فى المؤلفات «الجغرافية الحضرية» الخاصة بتلك الأحداث، رغم أنه فى بلاد أخرى مثل المغرب تلقى تلك الاحتفالات التى تعقد فى صور أخرى وتحت مسميات مختلفة (مواسم) اهتماما أكبر، وخاصة فى مجالات دراسات علم الإنسان وعلم الاجتماع. ومن الجدير بالذكر أن الصوفية وطرق عرضها الاحتفالية المنتشية الغامضة كانت منذ عهد بعيد موضع نقد شديد من قبل الدولة والسلطات الدينية والطبقة الوسطى. ومن المؤكد أنه بعد النهضة الإسلامية تعرضت تلك الثقافة بكاملها للاتهام بالجاهلية ونظر إلى عدد من الممارسات الاجتماعية باعتبارها بالية وأخذت بالفعل طريقها إلى الاندثار. من الممكن النظر إلى الاحتفالات باعتبارها صورا من التعبير عن الإسلام التقليدى الشعبى غير المتشدد - وربما المتساهل - والذى يتعرض للتجاهل والإهمال، حيث يركز الباحثون اهتمامهم على إسلام الطبقة الوسطى النظرى الجهادى السياسى المتشدد. ومن مفارقات احتفالات الموالد فى المدن أنها أحداث مزعجة وشعبية ومعترف بها دينيا ولكنها - نسبيا - غير متهورة وغير متشددة وغير سياسية. وإنى أؤكد فى هذا الفصل أن الموالد كان ينظر إليها من قبل الدولة حتى وقت قريب باعتبارها لا تشكل نوعا من المقاومة السياسية أو التهديد الشعبى. ربما ترجع تلك النظرة إلى أن تلك الاحتفالات تنحصر داخل مناطق محددة داخل مدينة القاهرة القديمة والمدن الرئيسية وتقام فى إطار خيالى مؤقت قصير الزمن. وربما لا يكون لها على السطح تأثير مباشر على الأمور السياسية، ولكنها تعج باحتمالات وقوع قلاقل وتحالفات وخسائر.

نظام بديع وعملى

ينشأ المولد ويتطور متفاعلا مع الشخصية المكانية والثقافية والتنافسية للحى الذى يقام فيه. فهو يعيد تشكيل المكان فى صورة مراسم نمطية أصيلة تقوم على الرقص الإيقاعى وتتضمن جلب وترتيب وتكوين عناصر الزخرفة ذات المعنى الملائم للمناسبة. ورغم أن الإعداد للمولد يتم عادة بوسائل اقتصادية للغاية، إلا أنه يحقق تأثيرا رائعا. وتنبض الديكورات بالحياة ويكثر استخدام الجدران الزاهية والأضواء الملونة. وتتكرر نفس الصورة فى محيط المكان. وتستكمل المنازل والأكشاك الصورة الإجمالية للمكان بالألوان والأشكال المنسجمة مما يخلق تناغما عاما. فالقمم العالية لمآذن المسجد/الضريح تكللها حبال من الأضواء الملونة المتقطعة ويتزين المسجد الذى يطلق عليه «عروس» الاحتفال. وتنساب حبال الأضواء من المسجد متعرجة فوق الشوارع والأزقة وتطوق تضاريس البنايات المجاورة مشكلة مظلة متذبذبة من الإضاءات المائلة. وتصنع الخيام المستطيلة التى تكسو هياكل خشبية من نسيج سميك ترصع ألوانه الحمراء أشكال هندسية وتصميمات متشابكة. وتحتل تلك الخيام كافة المساحات الممكنة من الجناح الشرقى لمسجد الحسين أو ميدان مسجد السيدة زينب إلى أزقة وساحات المناطق السكنية المحيطة. وتمتلك الجماعات الصوفية الخيام الكبيرة البديعة بأضوائها الداخلية المعلقة وأرضيتها المفروشة بالسجاجيد الشرقية. ويجد أعضاء تلك الجماعات المأوى داخل تلك الخيام التى تعزف فيها الموسيقى وتمارس فيها الطقوس. وتعلو الخيام رايات تعبر ألوانها عن انتمائها لجماعات صوفية معينة (الأسود للرفاعية، والأحمر للأحمدية، والأخضر للبرهامية) وعن الأصول الجغرافية للزوار من محافظات مصر. وبذلك تشهد تلك الرايات على تمثيل المناطق الريفية فى قلب العاصمة، «البرهامية من دسوق» و«الأحمدية من المنيا»، إلخ. وتنتشر أيضا الملاجئ المصنوعة من قماش القنب الخام لتؤوى المزيد من الزوار والمحتفلين والبطانات والعائلات كثيرة الأفراد. وتعسكر تلك الجماعات وسط الشوارع وخاصة المحيطة بالمسجد، أو تحت سلالم البنايات أو فى مداخلها أو على أسطحها أو على الأرصفة أو - فعليا - فى أى مكان يمكن إقامة تجهيزات مؤقتة به. وتتكدس فوق المنصات المزينة أكوام من الحلوى والحمص، وتحمل عربات اليد المتحولة الطراطير والأقنعة والتنورات والزخارف والحلى والتمائم الجالبة للحظ. وهناك أكشاك أخرى فى الشوارع مخصصة للأطفال فقط وتحوى كافة أنواع الألعاب والملاهى مثل الرماية بالبندقية، ولكنها تقدم أيضا عروض الرقص والموسيقى وعرائس الأراجوز. وأحيانا تكتمل مشاهد التسلية بساحات صغيرة للسيارات المتصادمة والأراجيح الدوارة.

ويتفاوت ضجيج وزحام الاحتفالات من يوم إلى يوم (متزايدا باتجاه اليوم الأخير من زمن الاحتفال)، ومن ساعة إلى ساعة (يصل للذروة حوالى الساعة الحادية عشرة مساء أو بحلول منتصف الليل)، وكذلك حسب المكان داخل النطاق غير المتظم للمولد. ويشبه المولد فى ضجيجه وأصواته قطار الملاهى: فهناك فرقعة إطلاق بنادق العنف للتصويب على الجوائز، وصرير الأراجيح البندولية وقعقعة الصنوج والطبول المصاحبة

لا تتوقف الحياة الحضرية للقاهرة أثناء أيام المولد. فالناس يأتون ويذهبون ويتابعون شئونهم ويعملون ويمرون خلال مكان الاحتفال وبجواره

تلا ترجيع الدوارة، ونداءات الباعة المتنافسين لاجتذاب الزبائن، وأصوات الصفير من جماعات الأطفال، وصراخ عرائس المسرح المتشاجرة، والترتيل المنتظم لآيات القرآن، وأغاني الموسيقى الشعبية، ويختلط كل ذلك مع الأناشيد الإيقاعية للذكر الصوفي المنساب من الخيام ومكبرات الصوت. ويسمع المرء أيضا أصوات العشرات من سيارات النقل الصغيرة التي تغزو الحي محملة بمعدات إقامة الخيام مع السجاجيد والكراسي ومولدات الكهرباء والتوصيلات الكهربائية وأجهزة الصوت وكذلك ضروريات الحياة اليومية مثل الطعام ومفارش الطاولات والأسرة وأدوات المطبخ وغير ذلك. وتستمر عملية نصب الخيام وتركيب المعدات وإعداد الساحات عدة أيام. وتبدو الأحياء المضيفة للموالد وكأنما قد انفصلت تماما عن المدينة وتحولت إلى عالم مزدحم يندمج في إيقاع الاحتفال.

وعندما تتغير معالم هذا الجزء من المدينة ويتزين للمولد فإن معالمه الدائمة من بنايات رأسية ومساحات أفقية لا تبقى كما هي. ويتوقف التمييز بين هذين البعدين، مما يخلق تواصلا بصريا من التدفقات والأضواء المتقطعة التي تشبه أجواء الملاهي. ويتحقق أيضا تواصل مؤقت: يلتحم الليل والنهار بالبهجة والضوضاء والحيوية. ويعد المولد احتفالا ليليا في الأساس، ويتم في الليلة الأخيرة للاحتفال الإعلان على الملأ عن موعد المولد في العام المقبل. ورغم تباين الليل والنهار واختلاف إيقاعهما وارتياد كل منهما بنمط مختلف من الرواد المتحمسين، إلا أنهما مزدحمان بنفس القدر. ويبدو المولد من تلك الزاوية كاحتفال هجين لا يستطيع المرء أن يفصل فيه ما بين المقدس والدنيوي. وأكثر ما يحقق المناخ العام البهيج للمولد هو الحيوية والفرحة واللعب. ومن هذا المنطلق، لا يبدو أن المولد عبارة عن حشد مشوش. فالتوزيع المكاني للعناصر التي يتكون منها المولد حسب ارتباطها بالمقدس والدنيوي، يتناسب مع المنطق الحضري والمكاني المترابط البديل للمولد. ويتضح كل ما سبق في التفاصيل ويراه كل المشاركين في الاحتفال وبنفس الطريقة تجمع الموالد بين المتناقضات: أماكن مغلقة وأخرى مفتوحة، مناطق صاخبة وأخرى للتأمل، للتوسع وللتركيز. إن المولد عبارة عن منطقة. فلها مركز وبها مواقع محددة للعروض مضاءة جيدا وصاخبة ومتخلمة، وبها أيضا ممرات جانبية وزوايا وأركان وطرق مسدودة ومناطق مضاءة وأخرى ظليلة. وتتمهر أطراف المنطقة في الغموض، في أماكن رثة ليس فيها إلا بقايا هالات من الأصوات والأضواء تتمدد بينما ينتقل المولد إلى المدينة ذات البنية المنظمة.

كل مولد فريد في نوعه، ولكن جميع الموالد لها كثير من الخصائص العامة المشتركة. فهي دخيلة على مكان موجود بالفعل، وهي تستحوذ عليه وتشوشه جزئيا. وهي تقدم مجموعة من الخصائص السائدة التي تخلق النقيضين في وقت واحد: مناخا فريدا ومبتذلا، ومنظرا طبيعيا أصيلا ومألوفا. وعندما يذهب المقيمون والزوار ضمن هذا السياق إلى المولد فربما يشعرون أنهم في رحلة مثالية إلى مكان يجمع بين الحيرة والثقة في آن واحد، ورغم توقع المكان والزمان إلا أن هناك دائما احتمالاً لعدم الاستمرار أو وقوع مفاجآت. وتبقى التغيرات المحتملة لتضاريس خلفية المكان وترتيبات الاحتفال بلا حدود وحافلة بالفوارق الدقيقة.

وقد يتوقع المرء لتحقيق الترويح عن النفس مع الحفاظ على المناخ المقدس - أن تنتهج الموالد خطة ضوئية مليئة بالظلال والإضاءات الصامتة. ومع ذلك، فالتأثير العكسي هو السائد. فالإضاءة مركزة جدا، وتتميز إضاءة اللمبات متعددة الألوان و- أكثر منها - إضاءات النيون بالسطوع واللمعان الشديدين. ويبدو أن الضوء والضجيج يتنافسان إلى درجة الوصول إلى سياق مشترك والاندماج في ذروة الانصهار. ولا يصبح الليل هنا من الناحية النوعية مضادا لنهار المدينة. وهو يكشف - بدلا من ذلك - عن نفسه بقوة كامتداد للنهار، فهناك المزيد من الناس والأنشطة والضوضاء والأضواء أكثر مما يجده المرء أثناء النهار.

من الذي يتردد على الموالد؟ كل أنواع البشر كما هو واضح، وخاصة الذين ينتمون للمستويات الاجتماعية التي تصنف كطبقات شعبية (هناك مؤشر غير علمي - ولكنه يكشف عن القوة الشرائية - يوجد في نعال المشاركين في المولد، حيث يرتدي جزء كبير منهم (رجال ونساء وأطفال) نعالاً مفتوحة (صنادل بأشرطة من البلاستيك المقولب أو الجلد) تنتمي إلى قاع التسلسل الهرمي للأحذية). إن الاحتفال يجمع المصريين والقاهريين، الباحثين عن اللذة والتقاة، ويحفز إمكانيات أخرى للاختلاط الاجتماعي. ومع ذلك فالاختلاط الأوضح - والأوضح غموضا - هو اختلاط الرجال والنساء. وفي هذا السياق فإن الرجال والنساء يجدون أنفسهم جنبا إلى جنب في المناسبات العامة حيث ما يتم عادة الحفاظ على المسافات بين الجنسين وحيث يقل إلى الحد الأدنى الاتصال البدني والتلامس بين الرجال والنساء، وحيث تكون هناك رقابة لصيقة على وجود النساء وخاصة الشابات منهن.

احتفال وغاية

كيف نتصور أن يدرك المرء المولد باعتباره كيانا جغرافيا؟ كيف يفهم ويحلل الحركة الأبدية داخل مثل هذا السياق محدود المكان والزمان؟ إن الاحتفالات التي تدوم أياماً قلائل لا توفر للباحث وقتا كافيا ليقدم تحليلا كاملا. إن الطبيعة المؤقتة للاحتفال تدفع الباحث للتنقيب عن الأجزاء الصغيرة. ويبدو أثناء الاحتفال أن كل فرد يعيش ويعمل بأسلوب متعجل يجعل من استيعاب تزامن المواقف والمشاهد أمرا مستحيلا. ولذلك فقد قمنا بتجربة تعديل مناهج البحث الاجتماعية الجغرافية لتطبيقها على المشهد الحافل المتنوع للمولد، والتحصيل الفوري للبيانات المجمعة أثناء التجوالات العرضية. وقد قررنا - على مضض - قبول الطبيعة العاجلة للمولد وتعديل إستراتيجيات البحث القائمة على جمع عينات الانطباعات. ومع ذلك، فهناك أيضا مجال أوسع أمام الباحث لمزيد من التحليل الاستقرائي، لأن الاحتفال هو أيضا نتاج طويل الأمد لنماذج تنظيمية اجتماعية حكومية حضرية شبه دائمة ونزاعات ثقافية سياسية. فالمولد عرضة للتناظر وإصدار الأحكام والصراع والتخطيط والموافقة ورقابة الشرطة والتنظيم. ورغم أن التحليل الذي نقدمه في هذا الفصل لا يأخذ تلك الجوانب في الاعتبار، إلا أننا نقر أن البحث المستقبلي لتلك الظواهر من الممكن أن يستكمل دراسات الأعراض والدراسات الاجتماعية الجغرافية لهذا الفصل. وباختيارنا الأسلوب العابر فإننا كنا انتقائيين تماما وقمنا بعزل عناصر الموالد بصورة عشوائية.

ولذلك فإننا نكشف وننقل هنا بعض المشاهد التي صادفناها أثناء الرحلات غير المنتظمة أثناء الموالد، والرسومات التخطيطية المقدمة كصور بلا إطار والتي - بناء على ذلك - قد تظهر كأحداث وقعت عمدا نظرا للطبيعة العاجلة للحظة. وكل ذلك يخولنا أن ننظر إلى الطرق التي تظهر من خلالها التفاصيل الدقيقة وأن نكشف الغطاء الخارجي للأحداث الجسيمة. ويمكن لهذا الأسلوب في قراءة المدينة أن يضفي على لحظات الحدث فعالية خاصة آخذا في الاعتبار - انتقائيا - أكثر المواقف تكرارا ويضعها في سياقها الحقيقي.

إن فضاء الحي أثناء إقامة المولد يبدو حافلا بالاحتمالات والتأويلات. وهو يتألف من «لا نهائية» من الزوايا الصغيرة التي تسودها وتميزها ممارسات متغيرة معدلة. ويتجسد حضور الزائرين أثناء المولد من خلال انتشار الأشياء الموجودة في الشوارع وعلى الجدران وعلى حواف الأرصفة وغيرها. وعند مراقبة الأماكن المكشوفة والمستترة بالتفصيل، يلحظ المرء وفرة من الأشياء والمؤثرات. وإذا كان ميدان الحسين الواقع أمام المسجد الكبير مغلقا أمام الجمهور فإنه ليس كذلك بالنسبة للأغراض. فداخل الساحة المنيعة على طول السور المنخفض الذي تعلوه الحواجز المحددة له تظهر مساحة مخصصة للأمتعة: صف من الحقائب والأجولة وشنط التسوق وأكوام وأحمال، تترك هناك وتؤخذ لاحقا عبر مد الأيدي - بكل بساطة - داخل الساحة. حتى النافورة المركزية (الجافة) امتلأت بأمتعة الزوار. وتستخدم الأعمدة الحديدية المستدقة على بوابات مسجد الحسين لتعليق المعاطف، وتكوم

جمهور المولد هو تشكيل اجتماعي يختلف عن «الغوغاء» في مفهوم علم الاجتماع القديم أو «التجمعات» من وجهة نظر دراسات الحراك الاجتماعي



فوق كل منها ملابس وأكياس مدلاة. أما قواعد البوابات فتستعمل كخزانات لأباريق الشاى والأكواب والصوانى والكؤوس وغير ذلك. وتمتلئ أعتاب نوافذ المسجد بأكوام من الأغراض والأكياس. أما الأشجار القليلة بالحى فتستخدم أيضا كسساند وتكتسى أفرعها بالأغراض. كما توضع الأكياس أيضا حول قواعد أعمدة الإنارة. وتتحدد الأرصفة وأطراف الشوارع بالحصير المفروش على الأرض والذى تحتله جماعات متباينة وتغطيه المستلزمات المستخدمة للأكل والنوم. وعلى نفس المنوال تستغل ممرات ومداخل البنايات السكنية للإقامة والتخزين.

أما وسائل التسلية العامة والخاصة فتختلط وتمتزج جزئيا بينما يعاد تعريف وظيفة كل مكان. يصير الحى مزدحما، ولكن الأشياء منظمة ويستقر كل شخص فى مكانه. وهناك صور أخرى من الدعاية تشمل اللافتات التى تمتد على واجهات المبانى الدينية والسكنية حيث تقطن الجماعات الصوفية، أو تتدلى من النوافذ والشرفات، أو تعلق عبر الشوارع خلف مكبرات الصوت. وتمثل تلك اللافتات كعلامات مرئية ورنانة ترشد إلى أماكن الطرق الصوفية المختلفة. ويضاف إلى ذلك أيضا اللافتات الدعائية للتجارة ورجال الأعمال من أهل الحى.

تستغل جميع المساحات بفضل الحيل العملية الكثيرة التى تضطر إليها الحاجة وكذلك وفقا للابتكار والخيال غير المحدود، حيث يستفاد من مساحات المدن من خلال تمدد أبعادها وأحجامها وبنيتها. ويستهلك كل ذلك من موارد المدينة، ناهيك عن المساحات المشغولة الجديدة التى تجعل المكان أكثر ازدحاما وتعيد تشكيله صانعة منظورا معماريا جديدا. وكذلك يعد تشكيل التفاصيل الحضرية الدقيقة المتعددة - وبصورة فردية - مثل أعتاب النوافذ والأركان المختلفة والأرصفة والأعتاب وغيرها لتصبح من خصائص ودعائم المولد. وتلك الأشياء التى لا تعد شيئا أثناء الأوقات العادية حيث لا يلحظها أحد، تتحول عن وظيفتها المعتادة بسبب الاحتفال. وهكذا يجرى اختيار ألف طريقة وطريقة لترتيب الأشياء ووضعها فى فتحات ومزجها مع ما يحيط بها. ومن بين كافة الاستخدامات المحتملة للمدينة وكل الممارسات المحددة، سنركز على أمر أكثر شيوعا وهو السعى للحصول على مطالبة صغيرة بركن على أحد الأرصفة: فعندما يقوم شخص ببسط قطعة مربعة من القماش ويفرشها فوق رصيف، ربما لا تبدو تلك حيلة ذكية جدا. ولكن لابد أن ذلك القماش يستحضر شيئا من قوة السحر؛ لأن عائلة من ستة أفراد سوف تقضى أسبوعا كاملا بأيامه ولياليه تعيد اكتشاف هويتها الشخصية الحضرية الطبقية الروحانية وتأكل وتشرب وتنام وتحافظ على كرامتها وتعيد التفاوض حول الحدود وتعايش المولد كأكثر أحداث العام إثارة للبهجة، كل ذلك أثناء احتلالها قطعة مربعة من القماش على الرصيف الأسمنتى.

حركات وتوازنات

لا تتوقف الحياة الحضرية للقاهرة أثناء أيام المولد. فالناس يأتون ويذهبون ويتابعون شئونهم ويعملون ويمرون خلال مكان الاحتفال وبجواره. وليس هذا المكان مطلقا ولكنه حضور يقظ تراه هنا وهناك من خلال الديكور والمناظر والسلوكيات التى تدون عمدا فى سجل المولد. وكما يقول «بيير سانسوت»: «إن المكان العام يتأرجح بين الحياة اليومية والاحتفال». ويترجم هذا التردد من خلال الطبيعة المسامية للبيئة الحضرية ومن خلال سلوكيات المولد. فبعض الناس يسيرون بينما يجلس آخرون أو يراقبون أو لا يفعلون شيئا، ولكن الجميع هناك معا مرتبطون بعالم المولد فى المدينة. كيف يمكن أن يرتبط المرء بمشهد واحد أو عمل واحد ثم ينفصل عنه كى يندمج فى قصة أخرى موازية؟ يحدث ذلك ببساطة بالتحول عن المكان سواء بالنظر فى اتجاه آخر أو بمغادرته فعليا. وبتلك الطريقة تجتمع مستويات عديدة من الاندماج فى مشهد واحد أو أكثر وفى وقت واحد أو أكثر، من الحضرى إلى المتفاوت ومن الخضوع إلى اللامبالاة ومن التجربة العميقة إلى السطحية.

فى عصر أحد أيام الاحتفال بمولد الحسين (يونيو ٢٠٠٣) عند الحافة الشرقية للمسجد، استضاف أحد المقاهى المكشوفة فرقة موسيقية. وقام الزبائن الجالسون فى الصف الأول على مقاعد مخملية (وهم من رواد المقهى على ما يبدو) بتحية الفرقة الموسيقية بأوراق من فئة الجنيهات العشرة. يقوم المغنى بشكرهم ورد التحية بمشاركة مالك المقهى. وهناك فى كل مكان زبائن آخرون يجلسون على مقاعد خشبية. وبالخلف توجد صفوف من المتفرجين الواقفين المولعين بالموسيقى وبتوزيع الناس الذى يستثير التعليقات من الجميع. ويوجد خلف المقهى شارع مزدحم تمر به السيارات من حين إلى آخر. وكل سيارة تنجح ببراعة فى المرور فإنها تسترعى انتباه بعض المشاهدين بل يتطوع بعضهم لإرشادها. وفى العادة فإن صوت بوق السيارة هو الذى يقرر مدى تراجع بعض المشاهدين الذين يغادرون المكان بعد اكتفائهم من السمر لمتابعة طريقهم مرة أخرى. وبنفس الطريقة ينتشر أثناء المولد عدد من باعة أشرطة الكاسيت ويبثون الموسيقى. وهناك الكثير من الناس ممن يعبرون تلك المواقع يفسحون طريقهم بواسطة الصفير وطرقعة الأصابع. وبتلك الطريقة تتكرر الكثير من التجوالات الفردية وتلتحم معا أو تذوب تماما من خلال تعاقب متغير غير محدود من الحقائق والمشاهد والنطاقات ذات المغزى على طول خط السير لكل شخص طبقا لحجم الإغواءات وخصوصا إيجابية كل مشارك فى تلك الرحلات والوقت المتاح له. وهكذا تتطور إيقاعات المدينة التى تكون موجهة وشاردة فى الوقت نفسه. ويحدث أثناء المولد اختلاف فى النبرات نتيجة التدافع والطموحات الأبدية غير المتوقعة.

إن جمهور المولد هو تشكيل اجتماعى يختلف عن «الغوغاء» فى مفهوم علم الاجتماع القديم أو «التجمعات» من وجهة نظر دراسات الحراك الاجتماعى. إن جمهور المولد يجمع بين المجهولية والهوية ويقبل باستعراض وتظاهر المشاركين فى آن واحد. كما أنه يسمح للغرباء بالقيام بالزيارة والاختلاط الاجتماعى الحميمى أو - بنفس الحميمية - ينسى تماما وجود أناس آخرين. إن شخصية من يمشى أثناء النوم كما فسرها «إسحق جوزيف» تتشكل كشخص اجتماعى يشبع هويته وشوقه الحضريين بالانغماس فى المناسبة العامة والجمهور (يمكن أيضا الرجوع إلى «باتستى Battesti» فى هذا الكتاب وطرحه للطرق التى يحتفل بها الجمهور الزائر لحديقة الحيوانات بالجيزة بازدحامها، حيث يجادل بأن «الناس هم الذين يوفرون نسيم الحياة والروح للمكان»). ومن داخل المولد تبرز شخصية مجازية متكررة، وهى شخصية «الماشى على الحبال»: فهو يقتحم الألوان حسب مسار متلعثم حافل بالتردد والإغراء واتخاذ القرارات المجازفة. والماشى على الحبال هو أيضا خبير بالتوازن يحتاج فى تقدمه عادة لعمود توازن أو مظلة أو شىء آخر يساعده للحفاظ على الحركة اللازمة ويحدد العمل الكاشف. والأغراض التى يحملها المشاركون فى المولد تساعدهم فى أعمال التوازن المنغمسة فى تلك الحشود: وتعيد تلك الأغراض إلى الذهن أو تستثير دورا أو سلوكا أو عملية معينة ذات مغزى اجتماعى أو روحانى أو جنسى أو مكانى كما سنرى لاحقا فى هذا الفصل.

الليلة الأخيرة

يبدو أنه فى حالة الموالد عندما يشغل المرء فراغا مزدحما بآخرين، يشعر البعض بإدراك كامن. فكل فرد يواجه موقفا يتوقف عليه دائما، بل يعتمد بدلا من ذلك على ماهية أو كيفية الشخص سواء كان امرأة أو - ربما - شخصا ضعيفا. وأثناء تلك الليلة الأخيرة لأى مولد، وخاصة فى الميدانين الكبيرين للحسين والسيدة زينب، يكون تردد وتحفظ البعض (رجالا ونساء) واضحا،

أثناء الليلة الأخيرة لمولد
السيدة زينب يصطف الباعة الجائلون
بعرباتهم عند أطراف الحشود ويتدخلون
لمساعدة النساء اللاتى
يتعرضن للمضايقات

بينما تكون بهجة البعض الآخر بنفس الوضوح. وهكذا تنسحق الأفعال والشخصيات معا بأسلوب شبه منظم يركز على أدوار تكميلية: الذين يلمسون والذين يتعرضون للمس، والذين يتدافعون والذين يتعرضون للدفع. إن تلك الصور الفورية للاتصال تكون مستساغة أو مفروضة، مقبولة أو مرفوضة، ولكنها تفيد فى تقرير التقلبات الدائرة التى تحدد الجماعات المستقرة نسبيا (العائلات والشباب ومجموعات الزائرين وغير ذلك). يبدو أن كل شخص له قراءته الغريزية للجمهور وتركيبته وللتكوينات التى تنساب منه، وهو نوع من التأويل الفورى يدفع الأفراد إلى الدهاليز ويوجههم وفقا لتلك الاستدلالات وليس حسب تقديرهم لأقصر مسافة بين نقطة وأخرى. ويجرى داخل الحشود قياس وتمييز مستويات من العمق والانغماس والتوجه طبقا لمرجعيات راسخة (بعد أو قرب الحوائط والأرصفة وغيرها).

ورغم الحشود والزحام، يعد هذا التصنيف ناجحا نسبياً ويبدو أن الجميع يتكيفون معه. ومع ذلك، فهناك أماكن أو ممرات ضيقة معينة تخل بهذا النظام وتسبب الحيرة: فمن هذا المنطلق تعتبر نقاط عنق الزجاجة مناطق فوضوية يختلط فيها الجميع فى غموض كلما غادروا أو دخلوا الميدان. وعند تلك الممرات الصعبة يتمركز رجال الشرطة. وهم يحاولون السيطرة على انسياب الحشود، بل ويوجهون بعض الضربات بالعصى، ليس بطريقة عشوائية وإنما يميلون إلى استهداف الفتيان لإجبارهم على التقدم والمرور سريعا مستخدمين أذرعهم للحماية حتى يتفادوا الضربات. والهدف من هذا العنف هو كبح شهواتهم الكامنة لمس النساء وردع من يحاول التلكؤ هناك. وفى تلك الأماكن، يعمد الفتيان الذين يراقبون الوضع جيدا إلى انتظار مرور الفتيات كى يندفعوا وراءهن. ويتراوح رد فعل الفتيات بين التردد والضحك والصياح والذهاب هنا وعدم الذهاب هناك، ويزداد التدافع.

وأثناء الموالد الهامة الأخرى ذات السياق التضاريسى المشابه، يقوم بدور الشرطة هنا المدنيون الذين يتصرفون وفقا لنفس الإجراءات. وأثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة زينب يصطف الباعة الجائلون بعرباتهم عند أطراف الحشود ويقفون فوق الصناديق يتفحصون حركة الجمهور ويتدخلون لمساعدة النساء اللاتى يتعرضن للمضايقات، فيشترون الماء على المتحرشين ويصيحون فى الرجال والنساء الذين يحاولون مغادرة الزحام لإرشادهم إلى الطريق للوصول إلى أطراف الميدان وأفضل نقاط المرور.

وهناك طريقة أخرى للحفاظ على المسافات تستخدم أثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة فاطمة النبوية حوالى الساعة الحادية عشرة مساء. يقوم حوالى خمسين شخصا بالرقص حول فرقة موسيقية فوق منصة أحد المقاهى المكشوفة. ومن الصعب أن تحدد بدقة تامة طبيعة هذا الرقص، حيث إن كلمات الأغانى دينية بالطبع بينما الموسيقى يعزفها المصاحبون لحلقات الذكر. ولكن الذكر فى الأساس هو ممارسة جماعية منظمة. يشمل الذكر بالضرورة حركات ميل جانبية عديدة وخفيفة للجسد يقوم بها الرجال والنساء معا. تكون الأرجل مستقيمة بينما تتأرجح الذراعان ويترنح الرأس من جانب إلى جانب. وهناك حشود أخرى من الناس خارج منطقة الرقص المكشوفة المفروشة بالسجاد يرقصون بطريقة أكثر فردية دون الانتباه للآخرين مع مراعاة التوافق مع الإيقاع المشترك. وحتى لو كانت حركاتهم تنتمى بوضوح لنوع آخر من أنواع التعبير، فإن إيماءاتهم وسلوكياتهم تجد فى الذكر ما يشبهها. وهناك كثير من النساء من بين المشاركين بعضهن فتيات صغيرات. ويتحلق حولهن الكثيرون للمشاهدة، ويحدق الكثير من الرجال فى أجساد النساء العارية التى تضفى عليها حركات الرقص الحيوية. ولكن كل أولئك النساء يبقين عيونهن مغلقة، بينما تكون وجوه بعضهن مرهقة فى حين تهيمن تعابير البهجة الغامرة على البعض الآخر. وسواء كانت لا مبالاتهن حقيقية أو زائفة فإنها تبدو مطلقة: فلا توجد اى خلاعة فى إيماءاتهن أو أى إيحاءات متعمدة فى حركات أجسادهن أو استعراضاتهن. ويستمر هذا المشهد الذى يتطور مع التجديد الجزئى والمستمر لأبطاله عدة ساعات. وعلى غرابة هذا الموقف، فرغم أن النساء يرقصن فى الشارع بلا ضوابط طوال الليل، فلا توجد أبدا أى فرصة لتبادل النظرات. فالسياق لا ينفصل عن المولد، والموسيقى التى تحض على الرقص هى ذات طبيعة دينية. ومن الصحيح أيضا أنه ليست هناك لا مبالاة بشأن تعرى أجساد النساء، لأنهن لا يغادرن المكان ولا ينظر الرجال إليهن طوال الوقت ويمكن النظر إليهن من زوايا مختلفة وفى أوضاع مختلفة. إن تلك النساء يحركن أجسادهن ولكنهن لا يستعرضنها، ولا يسمحن لأحد بلمس أجسادهن أو إتاحة الفرصة لأى اتصال ممكن.

إن قراءة تلك الموالد قد تساهم فى اعتبار المدينة مكاناً مفعماً بالحيوية: مكاناً تسوده - إلى حد كبير - الروحانية والرمزية، ولكنه ملىء أيضا بحضور مادى وملموس للديكور والأجساد والأشياء. إن مواسم الموالد فى القاهرة هى مناطق وسيطة تتم فيها وتمارس الاتصالات بين الناس، بل أيضا بين الأشياء والمواقف. وبسبب تلك الحقيقة فمن المناسب أن يوجه المرء اهتمامه إلى الأماكن والأفراد وإلى الأشياء سواء كانت ثابتة أو مائلة. والأشياء فى تلك السياقات الحضرية الاحتفالية تكون فاعلة وتحرك الناس وتوفر المحفزات للنشاط. فعدد لا حصر له من المسابح تلتف حول المعاصم فى حركة لا تتوقف ويمسك الرجال والنساء بمقابض الأقداح بلا توقف لتقديم الشاى للأصدقاء والمارة: ويتعلق الأطفال المحمولون أو المترجلون بجوانب ملابس النساء أو أغطية رؤوسهن. وفيما يتعلق بكثافة الحشود، فإن التقارب المركز يكون أمرا مفروضا. ولكن المشاركين فى المولد يجمعون على زيادة تلك الكثافة بالتماسك فيما بينهم: الذراع بالذراع أو اليد باليد أو احتضان الأكتاف أثناء سيرهم فى جماعات من اثنين أو ثلاثة أو فى صفوف. هل الاتصال بالآخرين يقل أو ينخفض أو يزداد عندما يغوص المرء فى تلك الحشود من الجنسين؟ وهل يعد التشبث بذراع أحد أفراد العائلة أو صديق إشارة للآخرين ضد التوتر الذى يشعر به الفرد وسط الزحام؟ أو هل يعد ذلك محاولة متناقضة للهروب باستعراض الروابط لعدم الإحساس بالوحدة وسط حشد كبير من البشر الآخرين؟ أو هل تلك طريقة لدمج النفس فى هذا التجمع الجماعى للأجساد مع تأكيد الذات من خلال إيماءة مؤثرة ملموسة؟

تعد الموالد من اللحظات الهامة فى حياة الطرق الصوفية. فالطقوس المنتشية التى يمارسونها تزيد من تلاحم المريدين وتشجع الناس على الانضمام إليهم

تلك هى سنة الحياة!

إن زمن الاحتفال الرائع بالمولد هو فترة تتضاءل فيها السيطرة على العائلة والمجتمع وما يحيط بالمرء، ويطلق العنان للسلوكيات التى قد يعاقب عليها أو تختفى خارج سياق المولد. إن الاندماج والحشد والظروف الاستثنائية، كل ذلك يحقق درجة من المجهولية. إن مثل تلك اللحظات التى يميل المرء فيها إلى الاهتمام بشئونه تؤدى إلى تحولات فى السلوك. فكثير من الأفعال التى ترتكب علنا تبقى مجهولة أو يمكن التغاضى عنها: فهى تصبح مقبولة أثناء تلك اللحظات الخاطفة وضمن هذا الحيز المغلق الذى يعد مكانا مثاليا و- جدلا - ضروريا للانتهاك والاستثناء والتساهل تحت غطاء من الاحتفال الدينى. وهكذا يصبح من الممكن التحرش بالفتيات اللاتى يسرن بمفردهن فى تلك المناسبات وهو فعل جرىء يحدث دون ملاحظة فى ظل ظروف مجهولة، وإن كان من الصعب ارتكابه فى مكان يمكن التعرف فيه عليهن. وينطبق ذلك أيضا على الاتصال الجسدى والرقص وتعاطى الكحوليات والمخدرات وارتداء الملابس المبهرجة والاستهزاء والسخرية من «ثوابت» مثل الزواج والطبقة الاجتماعية ورموز الدولة والهوية الجنسية المعتادة. وفى السيدة عائشة، ينظم الشباب المحليين موكبا لعربات اليد عصر آخر أيام المولد. وفوق تلك العربات يقومون بأداء مشاهد مختلفة يقلدون فيها جرسون المقهى وضابط الشرطة واللص ورجال يتنكرون فى ملابس النساء، ويحاكى بعضهم بطريقة ساخرة الزواج وصور موحية غير شرعية للاتصال الجنسى.

ويجب علينا فى جميع الأحوال أن ننوه إلى أن تلك الأنماط من التسلية ليست منهجية أو حاضرة فى جميع الموالد. فكل مولد له مزاجه الخاص، ومثل تلك الغرائب تتقرر فقط بمبادرات محلية ذاتية. ويعد المولد - كمناسبة للكشف عن المستور - لحظة هامة فى حياة الحى، حيث يفسح المجال للفرق الاجتماعية المختلفة للتعبير عن نفسها وتأكيد



ذاتها. إن الفتيان فى ملابس النساء وفى مختلف أنواع الأزياء - والذين يسيرون فى طابور عربات اليد - يمثلون بالتأكيد استفزازا. ويستولى جرسونات المقاهى (الحقيقيون) طوال طريق الموكب على حقوق الحديث حيث يمسكون بمكبرات الصوت ويطلقون التعليقات على الأزياء وعلى الاستعراض بالشارع مع الدعاية أيضا لأعمالهم. وإذا سلطنا الضوء على الأطفال نجدهم متقلبى المزاج ومدللين. وتأتى عائلات بكامل أفرادها للتنزه بينما تطلق الفتيات قدراتهن الإغوائية وينفقن بسخاء على تصفيف شعورهن ومستحضرات التجميل مركزين وكاشفين عن نقاط القوة لديهن.

وتعد الموالد من اللحظات الهامة فى حياة الطرق الصوفية. فالطقوس المنتشية التى يمارسونها تزيد من تلاحم المريدين وتشجع الناس على الانضمام إليهم. وتستغل الاحتفالات الكبرى - على مختلف المستويات - كندوات أو مجالس عامة. ومن الملحوظ تماما فى الخيام المتميزة المقامة فى الميدان نفسه وجود ممثلى الدولة وأعضاء المجلس الصوفى وكبار أعضاء الطرق الصوفية والشيوخ المؤثرين وذوى النفوذ.

محاصرة المولد

نظرا لعجزها عن منع تلك التجمعات - ناهيك عن تنظيمها - قد تلجأ السلطات لاستخدامها فى أغراض سياسية. ففى ديسمبر ١٩٩٤ جرى استغلال مولد السيدة زينب كقاعدة للحملة الانتخابية. وكان من أبرز خصائص هذا الاحتفال العدد الضخم والعرض السخى للأضواء والألعاب النارية المستمرة والتى ترجع إلى بذخ «فتحى سرور» عضو البرلمان عن تلك المنطقة. وقد كشفت صوره واللافتات باسمه فى الاحتفال بالمولد عن نيته للترشيح فى الانتخابات التشريعية المقبلة المزمع إجراؤها فى خريف ١٩٩٥. كما أكد ذلك على حضور الدولة وتواجدها فى الحى حيث أن «فتحى سرور» هو أيضا رئيس مجلس الشعب.

وفى صدام مع قوات الشرطة، قتل ثلاثة من الإسلاميين فى نفس حى السيدة زينب فى فبراير ١٩٩٤. ولكن صلات رجل السياسة وقاعدته السياسية فى السيدة زينب أمنت استمرار الاحتفال رغم إلحاح جهات أخرى من الدولة بوجوب إغلاق المنطقة. وبعد ذلك بعام (فى ديسمبر ١٩٩٥) جرت إقامة مولد أكثر روعة وإضاءة من أى وقت مضى، للتأكيد على نجاح «سرور» فى الانتخابات السابقة. ومن الأدلة الأخرى اللافتات الموالية التى تهنئ «سرور» والتى أقامها تجار ووجهاء المنطقة الذين جاملوا الحى بتمويل الإضاءة. ومن الواضح أن تلك الرعاية ترجمت إلى ارتفاع مكانتهم الشخصية وتحقيق الشهرة لهم ولأعمالهم. وباعتبار المولد حلقة وصل بين الأعياد العامة والخاصة فإنه لا يفيد فقط كثيرا من الشخصيات الرئيسية من خلال الاتصالات التفاعلية، وإنما يوفر لهم أيضا مكاسب محتملة ودرجة من الحماية تضمن أحيانا - إن لم يكن دوما - استمرار الاحتفال الشعبى.

بعد قمع الاحتجاجات واسعة النطاق فى القاهرة ضد الغزو الأمريكى للعراق فى ربيع عام ٢٠٠٣، مارست الحكومة درجة عالية جدا من السيطرة على الميدان الكبير أمام مسجد الحسين. وقامت قوات الشرطة باحتلال الميدان بصفة دائمة. وأثناء الاحتفال بالمولد التالى (يونيو ٢٠٠٣) تمت مصادرة المساحة العامة المفتوحة الكبيرة أمام المسجد. ولم يسمح بدخول خيمة واحدة أو أى لعبة أو عربة يد أو تخصيص باحة لمطعم أو مقهى، ولم يتمكن أحد من البقاء داخل المكان للراحة أو الصلاة، ولكن كان يسمح فقط بالمرور المباشر. وبسبب إغلاق المساحة المفتوحة الكبيرة لميدان الحسين والتى تعودت معظم الطوائف على التجمع فيها، كان على المولد أن يتمدد ويتلوى خلال الشوارع والأزقة، لقد تبعثر المولد ولكنه لم يختف.

وقد أضفى هذا الإخلاء من المركز إلى المناطق المحيطة ومن الفسيح إلى المحصور، أضفى على المولد مناخا أكثر تشوشا وأقل اتساقا. لقد بدا وكأن المولد قد تهدم. وبعد إقصائها إلى الأزقة المزينة أصبحت مقار الجماعات الصوفية غير مرئية تقريبا. ولكنهم جاهروا بوجودهم من خلال توصيل صوتهم باستخدام مكبرات الصوت الموجهة ناحية الميدان. وطوال فترة المولد لم تتوقف قوات حفظ النظام المكونة من حوالى عشرين شرطيا موجودين باستمرار فى طوق أمنى دائم عن ردع كل من يحاول الجلوس أو يستند إلى الأسوار الحديدية للميدان. وبعد الظهر كانت عربة مياه تقوم برش الأرصفة الحارة لمنع الناس من الجلوس. وعلى نفس المنوال منعت الشرطة الناس من إيقاف سياراتهم هناك. وكانت تتم مصادرة الطاولات والكراسى والمفارش والأطباق من المقاهى والمطاعم التى تستخدمها بالمخالفة للقواعد الجديدة، ويلقى كل ما يتم مصادرته فى سيارات نقل. وكان على مالكى تلك الأشياء دفع غرامة مالية لاستردادها. ومع ذلك، فكل يوم مع تقدم الليل تدريجيا واقتراب المولد من الليلة الأخيرة، أصبح من الأصعب تطبيق تلك القيود والإجراءات القهرية وأصبحت أقل حزما. وعلى الرغم من تعزيزات الشرطة تمكن الناس فى الليلة الأخيرة من التغلب على الحظر، باستثناء الحظر على الدخول إلى مركز الميدان أثناء الصلاة والذى قام نطاق من قوات الشرطة بالمحافظة عليه.

وبحلول موعد آذان العشاء يوم الجمعة السابق على الليلة الأخيرة لمولد الحسين (١٩ يونيو ٢٠٠٣) كان المسجد قد امتلأ تماما. واستقرت الحشود الزائدة أمام المدخل الجنوبى بجانب المسجد.

بعد قمع الاحتجاجات فى القاهرة ضد الغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، مارست الحكومة درجة عالية من السيطرة على الميدان أمام مسجد الحسين. وقامت قوات الشرطة باحتلال الميدان بصفة دائمة

وقد دفع ضيق المكان بعض الرجال لتسلق الأسوار الحديدية للميدان وخلع أحذيتهم للانتظام فى الصلاة فوق النجيل. وقامت زمرة رجال الشرطة بإيقاف المجموعة الأولى من الرجال الذين قاموا بتلك المحاولة. وقد حاولوا دفعهم للعودة، ثم استسلموا فى النهاية بعد أن لاحظوا الأعداد الغفيرة للواصلين للمكان. وتشكلت سريعا صفوف عديدة من المصلين. بل انضم إليهم بعض رجال الشرطة لأداء الصلاة التى أقيمت فى النهاية فى الميدان العام الذى امتلأ عن آخره رغم أن الدولة أمرت بإغلاقه وإخلائه. وبعد أداء الصلاة غادر الجميع باستثناء رجال الشرطة. وقد تكرر نفس المشهد فى الأيام التالية حتى الليلة الأخيرة.

توفر الموالد الكبيرة المكان اللازم لالتقاء الريفيين والحضريين والقرويين والقاهريين والجماعات الأخرى حول اهتماماتهم التى تزيد من تلاحمهم وتؤكد هوية الطوائف الاجتماعية الموجودة. كما أنها تساعد فى توفير المناخ المناسب لتأكيد الشعور بالانتماء لطبقات تلك الجماعات (الطرق الصوفية، والقرية، وأحياء القاهرة، وشبكات الأعمال، وغير ذلك)، وكذلك توفير الفرصة لتجميد معايير السيطرة الاجتماعية وتخليد شعائر الصداقة المكانية الروحانية. وتعد الموالد فترات ضرورية للفرد والمجتمع. كما أن المولد هو مكان وزمان يتيح فرص لا حدود لها للشفاعة الروحانية (أو المدد) والتعبير عن آمال ورغبات وأمنيات جديدة. ومن المفترض مسبقا أن النبى (عليه الصلاة والسلام) يكون موجودا ويشار إلى معجزاته المختلفة. وبخلاف الكثير من الأحداث المتكررة والتى يتميز تاريخها بالحنين الشديد، ينظر للموالد من قبل المشاركين فيها باعتبارها خالدة ودائمة ولا يمكن مقارنتها بسواها. وهكذا فإن المولد - بالتحديد - ناجح دائما ويتم تقييمه عامة وعلى الدوام باعتباره «كان جيدا جدا هذا العام كما هو دائما».

هل ستتمكن جماهير موالد القاهرة - مثل السائرين على الحبال فى الملاهى - من التغلب على موجات القمع الجديدة وتدخلات الشرطة؟ إن إصرار الطبقات الشعبية على استمرار الموالد واهتمامهم المتزايد بقوة الاحتفال والصلاة ومرونتهم فى التوافق مع المستجدات يقدم دليلا على استحالة كبت الموالد تماما.



قـــــدرى حـــفـنـى

فـي الصـــــراع العـربى الإســرائيلى

أين يقف فرويد؟

﴿﴾ أشرت فى تقديمى لأطروحتى للحصول على الدكتوراه فى علم النفس فى مطلع عام ١٩٧٤ إلى أن اهتمامى بمعرفة إسرائيل كان نتيجة مباشرة لهزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧، إذ قررت بوضوح فى أول سطور التقديم، وتحت عنوان إقرار بالفضل واعتراف بالتقصير.

«بدأ اهتمامى بموضوع هذه الدراسة أثر هزيمة يونيو سنة ألف وتسعمائة وسبع وستين، أى بعد أن مضى على قيام الكيان الإسرائيلى ما يقرب من ربع القرن. وتلك نقيصة لا يخفف إقرارى بها من إحساس بوطأتها. ولا يجدى أى تبرير قد أصطنعه لها فى التقليل من مسئوليتى عنها. وكل ما آمله هو أن يسهم اعترافى بها فى الحيلولة بينى وبين التقاعس من جديد، وفى دفع غيرى من أبناء جيلى نحو المحاولة فى هذا المجال، وفى تعويذ جيل الباحثين والدارسين الجدد من وصمة التقاعس عن دراسة العدو».

ولم أكن وحدى من بين المشتغلين العرب بالعلوم النفسية الذى دفعته هزيمة يونيو إلى إعمال تخصصه العلمى فى محاولة فهم ما جرى، وسوف أشير فى هذا السياق إلى نموذجين فحسب من المحللين النفسيين المصريين، مصطفى زيور، وصبرى جرجس.

أما الأول مصطفى زيور فقد كان وظل محللا نفسيا فرويديا أرثوذكسيا حتى النهاية، ورغم أن المحللين النفسيين فى العالم الغربى بحكم صهيونية غالبيتهم وقفوا بعلمهم إلى جانب نشأة إسرائيل الدولة، ودافعوا بقدر ما وسعهم الجهد عن مبررات تلك النشأة، وكان طبيعياً والأمر كذلك أن يجد المتأمل فى سير حياة العديد من أقطاب حركة التحليل النفسى أن الخيوط متداخلة متشابكة بين ممارستهم العملية للنشاط الصهيونى والتحليل النفسى. ورغم ذلك فقد اختلفت توجهات مصطفى زيور رائد مدرسة التحليل النفسى فى مصر عن نظيرتها فى بلدان العالم الغربى من حيث الموقف من قضية الاستعمار الصهيونى لفلسطين.

مـصـطـفـى زيـور

لم يكن قد مضى وقت طويل على كارثة ١٩٦٧. كانت مصر مازالت تلملم جراحها، ومازال السؤال ملحاً: كيف حدث ما حدث؟ ولماذا؟. فى تلك الحقبة المبكرة من معاناة الوطن، نشر مصطفى زيور فى أغسطس ١٩٦٨ مقالاً ضافياً عن الشخصية الإسرائيلية. اختتم زيور مقاله بدعوة وجهها إلى شباب علماء النفس العرب «أن ينهضوا إلى مستوى المسئولية. إن عليهم واجباً وطنياً وقومياً، وأمامهم رسالة علمية لا بد أن يفطنوا إليها، وهى إسهامهم فى إجراء البحوث السيكولوجية المتصلة بقضية المصير العربى». ولعله من المناسب أن نطل معاً إطلالة موجزة على أهم ملامح رؤيته لطبيعة الصراع العربى الإسرائيلى، مقتصرين على ملامح ثلاثة:

الملمح الأول: أن مصطفى زيور يختلف اختلافاً قاطعاً مع تعاطف غالبية المحللين النفسيين مع التجربة الصهيونية. فيشير فى مقاله إلى ما انتهى إليه الطبيب النفسى اليهودى منكوفسكى من أن الكثير من الأطفال اليهود الذين أدت خبرة القهر النازى التى عاشوها مع ذويهم فى معتقل بوخنفالد الشهير إلى العديد من مظاهر الاضطراب النفسى، قد استطاعوا أن يستعيدوا بعض الاتزان حين انتقلوا للعيش فى إسرائيل. ويقف زيور ببصيرة المحلل النفسى الفرويدى، وبحس العربى الوطنى ليقرر «أن الاتزان الذى تحدث عنه منكوفسكى لا يعدو أن يكون تنظيماً للتوحد بالمعتدى فى المجتمع الإسرائيلى فى مواجهة العرب، أى أن التوحد بالمعتدى أصبح شيئاً مشروعاً، بل مطلوباً مستحسناً لدى المواطن الإسرائيلى».

الملمح الثانى: حرص زيور على ألا ينزلق إلى منزلق مازال يغرى الكثيرين من المشتغلين بعلم النفس من حيث النظر إلى الصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعاً نفسياً فحسب، محدداً بدقة دور العوامل النفسية فى هذا المجال. يقول زيور: «وغنى عن البيان أننى أطرح هذا السؤال فى نطاق علم النفس وحده، أى أننى أبحث عن الدوافع النفسية وراء هذه الظاهرة وهذا لا يعنى أننى لا أريد أن أقيم وزناً للعوامل غير النفسية (السياسية - الاقتصادية - الإمبريالية) التى ساهمت فى انبثاق هذه الظاهرة».

الملمح الثالث: استطاع زيور بحدسه النادر أن يكتشف، ونحن مازلنا نلعق جراح الهزيمة، أمراً ما زال الكثيرون منا يجدون غضاضة فى تقبله فضلاً عن التعبير عنه، إنه حرص أصحاب القرار فى إسرائيل على استمرار مناخ الحرب، ونفورهم من الدعوة للسلام. يقول زيور «إن الحرب الفعلية لا تترك للفرد الإسرائيلى فرصة مواجهة نفسه، تلك المواجهة التى يخشى أن تفضح هويته المستعارة».

كانت تلك هى استجابة زيور لكارثة يونيو. دفعته إلى الاختلاف اختلافا جذريا مع توجهات مجمل المحللين النفسيين الغربيين، ولكنها لم تدفعه إلى خلع رداء التحليل النفسى، أو حتى إدانته سياسيا.

صـبـرى جـرجـس

والنموذج الثانى الذى اخترناه لتسليط الضوء عليه هو صبرى جرجس. فى أبريل ١٩٦٩ انتهى صبرى جرجس من إعداد كتابه المعنون «التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى: أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سيجموند فرويد». ورغم أن الكتاب يحمل تاريخ نشر ١٩٧٠، إلا أنه كان متاحا بالفعل فى أواخر ١٩٦٩، وقد قام عبد الجليل حسن بتقديم عرض نقدى للكتاب فى العدد الصادر فى أكتوبر ١٩٦٩ من مجلة الكاتب المصرية، ولم يلبث صبرى جرجس أن علق على ذلك العرض النقدى. وبادر عبد الجليل حسن بكتابة تعقيب نهائى يحمل ما دار حوله الحوار اختار له عنوانا «الصهيونية وليس فرويد»(١) ولعل إيراد النص الكامل لذلك التعقيب يجسد ما أثارته تلك القضية من جدل بين المثقفين المصريين آنذاك. يقول عبد الجليل حسن:

«قبل أى شىء آخر أود أن أشكر الدكتور صبرى جرجس على اهتمامه بالرد على ما كتب عن كتابه الهام «التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى» فى العدد الأسبق. وأشهد أنه كان بارعاً فى رده وفى عرض وجهة نظره وموضوعياً فى مناقشته الهادئة. ولا يسعنى إلا أن أخجل من عبارات الثناء التى وجهها إلى - تلطفاً منه وفضلاً. والمهم أن هذا الرد المستفيض قد أتاح للقارئ العربى فرصة ثمينة لتوضيح الخطوات الفكرية والمسيرة الشخصية التى رافقت هذه الدراسة. وإنى أدرك - بتعاطف شديد - أن فكرة الكتاب لم تنبثق فى سهولة ويسر، فقد ظلت ميول هذا الطبيب النفسى البارز الذهنية والوجدانية لسنوات طويلة مع التحليل النفسى، وبعد تردد وصراع داخلى حاد، دعاه الواجب العلمى والقومى إلى إخراج هذه الدراسة الجادة. وهذا الموقف الشجاع من المؤلف من موقع علمى ووطنى جدير بالتقدير بل والإشادة. والمقال الذى كتبه فى العدد الماضى بمثابة وثيقة مكملة للكتاب ولا غنى له عنها.

وإنى أؤكد لعالمنا النفسى اللامع أن ذلك ليس رداً على رده بقدر ما هو محاولة لاستيضاح بعض النقاط التى أراها هامة بل بالغة الأهمية. والدكتور الفاضل يعرف قبل أى باحث آخر أن كتابه لابد أن يثير الجدل والنقاش والخلاف الطويل. وهناك الكثير جداً الذى نتفق حوله بل إنى أوافقه تماماً على كل ما قاله فيما يتصل بخشية إثارة شبهة معاداة السامية. ولكن تبقى بعض القضايا العامة والتفصيلية التى ينبغى التعرض لها حتى يمكن حسمها أو توضيحها على الأقل، مثل القضية التى سماها الأستاذ المؤلف بالتوجيه الحضارى للتحليل النفسى والفكر الفرويدى وهى نظرة تقييمية أساسا ولكنها مع هذا قضية هامة ينبغى للمشتغلين بالتحليل النفسى الفرويدى عندنا والذين يدرسونه ويعلمونه صباح مساء ويشيئون له الأقسام بالكليات مناقشتها لأنه مسألة تمس صميم أساسا ويترتب عليها مواقف عملية من التحليل النفسى دراسة وتدريساً. فهذا عالم نفسى كبير من جلة علمائنا يدين التحليل النفسى الفرويدى بأدلة لا يستهان بها ولا





> **تحرير اليهودية والأفراد اليهود فى الدول الأخرى من الصهيونية الآن لا يمكن أن يتم إلا بتحريرهم من «دولة» إسرائيل وتصفية هذا الكيان الصهيونى، مصدر العدوان المستمر علينا**

يمكن مواجهة خبرته ودراسته هذه بالصمت. وعلى كل فليس يعنينا بحال من الأحوال التعرض لمثل هذه القضية أو الدفاع عن فرويد كما سبق أن قلت فى العدد الأسبق.

ولكن القضية التى أريد طرحها والتى أرجو أن نصل إلى اتفاق حولها، ليقينى بأهميتها واتصالها أساساً بتحديد وتوضيح موقفنا من الصراع المصيرى الطويل، هى قضية تمحيص دعوى الصهيونية وزعمها العلاقة العضوية بينها وبين الديانة اليهودية والتراث اليهودى. ولكى أوضح هذه القضية فيمكننا أن نصوغها فى السؤال التالى: هل الصهيونية هى التعبير السياسى الحديث عن الديانة اليهودية؟ وبعبارة أخرى: هل الصهيونية هى الصيغة السياسية «القومية» للديانة اليهودية والتراث اليهودى؟

من الواضح أن هذه القضية مازالت غير واضحة بشكل كاف. فنحن نتصور أننا نجيب بالنفى عن هذا التساؤل حين نفرق بين الدين اليهودى واليهود وبين الصهيونية والصهيونيين غير أن هذا لا يكفى. فليست هذه التفرقة دليلاً على أننا نجيب بالنفى لأننا ننقضها حين نسلم ونناقش ونؤمن بأن «شواهد التاريخ اليهودى كله والفكرة الصهيونية منذ نشأت عقب الغزو البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد تشير إلى أنه ليس من الحكمة والاستهانة بالأساس الدينى للصهيونية واستبعاده لمجرد رغبتنا فى تجنب الخلط بين الاثنين».

وأن العديد من الأبحاث والدراسات فى العالم العربى (راجع مثلاً كثيراً من الكتب التى يصدرها معهد الدراسات العربية تلجأ عند دراسة الصهيونية إلى دراسة التاريخ اليهودى منذ الغزو البابلى وقبله وتدرس ما تسميه الجانب التوراتى والتلمودى الصهيونية. وبذلك فإن هذه الدراسات جميعاً التى تتحدث عن أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، واليهود فى التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وكما يصورهم التلمود... إلخ تحمل إجابة ضمنية أو صريحة بالإيجاب على السؤال الذى ذكرناه، وهى إجابة خاطئة ولا تخدم قضيتنا. وهذه الدراسات جميعاً وبلا استثناء تستهدف غاية ونية طيبة وتحاول الكشف عن سيئات هذا التاريخ وما حفل به من ألوان الغدر والالتواء والنفاق والعنف والدموية، إلا أنها جميعاً أيضاً فى نهاية الأمر تجيب على السؤال الذى وضعناه بالإيجاب بل وتؤكد هذا الجواب، وهى بذلك تؤيد - عن غير قصد طبعاً - وجود علاقة تاريخية طويلة، من التلاحم العضوى الوثيق بين الصهيونية وبين الدين اليهودى والتراث اليهودى أو بعض عقائده الرئيسية على الأقل. ويترتب على هذا بشكل ضمنى الاعتراف بدعوى الصهيونية أنها «التعبير السياسى الحديث» عن الديانة اليهودية. فالديانة كانت حجتها الظاهرة وصيحتها العالية لتجميع اليهود وإقامة «دولة» يهودية على أرضنا واغتصاب فلسطين بالذات واستيطانها بوهم أنها أرض الميعاد، وأن هناك «وحدة تاريخية طويلة» تجمع يهود العالم أى أنها حولت هذه الديانة إلى قومية.. ولذا فإننا عندما ننساق فى التأكيد على مناقشة أصول الصهيونية فى الديانة اليهودية وتراثها نبدو كما لو كنا نسلم - ضمناً - بادعاء الصهيونية نفسها بأنها هى (التعبير السياسى الحديث والوحيد) عن اليهودية وعن الأفراد المنتشرين فى العالم الذين يدينون بهذا الدين، والذين تسميهم بالشعب اليهودى أو الأمة اليهودية. وبذلك نساهم فى عدم التشديد على الحقيقة الجوهرية التى ينبغى التأكيد عليها فى كل أعلامنا وفى موقفنا إزاء عدونا وهى أن الصهيونية حركة سياسية استعمارية استيطانية حديثة لا علاقة لها حقيقة، قوية أو غير قوية، بما يسمى بالحنين اليهودى التاريخى لأرض الميعاد، فهى حركة حديثة اصطنعت قومية واستغلت الديانة اليهودية للتوصل إلى هدف استعمارى محدد فى فلسطين. وأن الإجابة بالإيجاب التى تحملها مثل هذه الدراسات التى أشرنا إليها إنما تلقى شيئاً من الضباب وعدم وضوح الرؤية على التصور والتصوير الصحيح للصهيونية وطبيعتها الاستعمارية وبالتالى على طابع معركتنا التحريرية لأرضنا فى فلسطين.. فالصهيونية «حركة سياسية» وليدة الربع الأخير من القرن التاسع عشر وتحمل طابعه الاستعمارى وتعبر عنه، وهى صيغة خاصة من صيغ السياسة الاستعمارية لهذه الحقبة، وتلك هى الحقيقة التى لا يمكن إغفال إبرازها بحال من الأحوال وهى نقطة المقتل فى الحركة الصهيونية.

والبحث فى أصول الصهيونية هام جداً وحيوى للغاية ومطلوب باستمرار، ولكن لا ينبغى التماسه فى تاريخ الديانة اليهودية أو التراث اليهودى - التوراتى أو التلمودى أو السرى أو الباطنى أو التصوفى (ولا يعنى هذا ألا ندرس بكل استفاضة مثل هذا التراث دراسة علمية) وإنما يلتمس فقط فى منشئها القريب وظروف القرن التاسع عشر السياسية، وسياسته الاستعمارية على التحديد، تلك السياسة التى لجأت إلى كل أساليب استغلال التفتيت والتفرقة الطائفية واستخدام النزاعات الدينية ولجأت أيضاً كنظير للطائفية ومقابل لها إلى أسلوب التجميع واستغلال ما كان يسمى (بالمسألة اليهودية). فكما حاول الاستعمار الأوروبى أن يستغل الطائفية والتفرقة الدينية فى الهند وفى العالم العربى لتحقيق أغراضه فى السيطرة، نجح كذلك فى استغلال المسألة اليهودية فى تجميع اليهود. وقد وفرت له الدعوة الصهيونية الزعامة والباعث - من داخل «الجيتو الصغير» فى حوارى المدن الأوروبية ودفعهم إلى «الجيتو العدوانى الكبير» فى العالم العربى فوق أرض فلسطين ليشكلوا، كما قال هرتزل نفسه، جزءاً من السد الأوروبى بوجه آسيا ومركزاً طليعياً للمدنية فى وجه البربرية. وعندما كان هرتزل يتحدث على هذا النحو لم يكن يتبنى لغة الاستعمار فى القرن التاسع عشر فقط - كما كتب أورى أفنيرى الصهيونى عضو الكنيست الإسرائيلى (راجع مقالة فى كتاب من الفكر الصهيونى المعاصر - سلسلة كتب فلسطينية - ص ٣٤١) - ولكن الاستعمار كان قد تبناه والتحم بهذه الدعوة التحاماً عضوياً وثيقاً. فالصهيونية تاريخياً ولدت فى القارة الأوروبية «وانحدرت من يقظة القوميات». وكانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الغربى فى نزعه الأخير» على حد تعبير أفنيرى نفسه. ولكنه كصهيونى يجعل الصهيونية «مظهراً ثانوياً» لهذا الاستعمار ويزعم أنها بدأت كحركة بعث قومى واجتماعى يهودى. فالصهيونية تقدم بالنسبة للتاريخ الاستعمارى نموذجاً فريداً لسياسة استغلال الدين، وقد كتب الكثير عن سياسة استغلال الاستعمار الغربى للطائفية ولكن لم يلتفت بما فيه الكفاية للوجه المقابل لهذه السياسة أعنى تجميع أصحاب الدين الواحد لخدمة أغراضه أيضاً. ومن هنا كان تبنيه دعوى الصهيونية (الدينية) وتحويلها إلى (قومية سياسية) يهودية ثم رسم مخطط مدروس لزرعها فى الأرض العربية فى فلسطين تحت ستار أرض الميعاد، فالتلاحم الحقيقى والرئيسى إذن ليس بين الصهيونية والديانة اليهودية ولكنه بين الصهيونية والاستعمار الغربى وكان التدشين الرسمى لهذا التلاحم فى إعلان وعد بلفور أما المظهر الثانوى هنا فهو تعبير الصهيونية عن اليهودية والتراث اليهودى، فلم تكن هى تعبيراً عنه بقدر ما كانت استغلالاً له فقط باعتبارها حركة فاشية رجعية فى مضمونها واستعمارية استيطانية توسعية فى طبيعتها وهدفها وإمبريالية فى ارتباطها ومنشئها واستمرار

وجودها. ومن هنا تتحدد بالقطع أيديولوجية المواجهة العربية وهي أيديولوجية حركات التحرير الوطنية المسلحة.

وقد يحسن هنا أن نشير إلى الاتجاه اليهودي الذي يناوئ الصهيونية ويرفض أن تكون تعبيراً عن اليهودية ويرى أن اليهودية دين وليست قومية، ويمثل هذا الاتجاه المجلس الأمريكي اليهودي، ويتزعم هذه الدعوة الحاخام المريزجر صاحب كتاب «اليهود دين لا قومية»، وهؤلاء وغيرهم من اليهود الذين يعارضون الصهيونية يتمسكون بمساواتهم في الحقوق شأنهم شأن سائر المواطنين في دولهم وأن اليهودية دين لا علاقة لها بالسياسة ... ولا يخدعنا من هذا المجلس مناوئته للصهيونية فهو يعارضها على أساس ديني ومصلحة محلية لليهود الأمريكان ولا يخفي هذا المجلس نشاطه في مساعدة إسرائيل في كل بياناته، ولم يعارض هذا المجلس قط وجود دولة إسرائيل وهو فقط ينظر على إسرائيل كدولة أجنبية ويتعاطف معها وهو يسعى إلى أن تكون دولة إسرائيل جزءاً من الشرق الأوسط ! وكل ما يعمل له هو الدعوة إلى الانفصال بين إسرائيل واليهود الذين يعتبرون مواطنين في دول أخرى .. فالمشكلة الصهيونية أذن لا تكفي مناوءتها ومعارضتها حتى من جانب اليهود ولا يبحث عن أصولها من جانبنا في الدين اليهودي وإنما توضع أساساً في إطارها الاستعماري، وتحرير اليهودية والأفراد اليهود في الدول الأخرى من الصهيونية الآن لا يمكن أن يتم إلا بتحريرهم من «دولة» إسرائيل وتصفيته هذا الكيان الصهيوني، مصدر العدوان المستمر علينا، ومظنة الضمان من الاضطهاد بالنسبة لليهود التي تمنعهم من الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها كمواطنين عاديين وتظل تعزلهم في مجتمعاتهم.

وأما القضية الثانية التي تتصل فعلاً ومباشرة بدراسة الدكتور صبري جرجس الطريفة وهدفها المحوري فهي قضية العلاقة بين الصهيونية وفكر سيجموند فرويد ويمكن صياغتها في هذا السؤال: هل الفكر الفرويدي تعبير عن التراث اليهودي؟ وبعبارة أخرى هل كان التحليل النفسي الفرويدي هو الصيغة النفسية للتراث اليهودي الصهيوني؟ ... فإنني لا أرغب في معالجة هذه القضية الآن، لأن البحث في أصول التحليل النفسي ورده إلى مصادره سواء في التراث اليهودي أو بالأحرى في التراث الغنوصي الباطني الشائع في مختلف الأديان وربط ذلك بالأفق الحضاري للنظريات «العلمية» مسألة اكتفي فقط بإثارتها وبما أشرت إليه من رأي سابق حولها وأن ذلك ليس خاصاً بهذا التراث وحده دون غيره ولن نتوسع في هذه النقطة.

ولم أكن بعيداً عما يجري من جدل فكري صاخب بهذا الشأن، فحاولت من قبل يونيو ١٩٦٧ أن أناقش تصدي التحليل النفسي للعديد من القضايا الثقافية والحضارية العامة، وبلورت رؤيتي لطبيعة العلاقة بين التحليل النفسي والصهيونية في مقال نشر في مجلة شئون فلسطينية في مايو ١٩٨٩ بعنوان «سيجموند فرويد والصهيونية»، وبعد مضي ما يزيد على عشرة أعوام أعدت طرح الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً في فصل بعنوان «فرويد بين العلم والصهيونية» ضمن فصول كتاب «لمحات من تاريخ علم النفس» الذي أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠. كانت الوثائق والكتابات المتوافرة آنذاك ترجح بوضوح أن فرويد ينتمي إلى الفكر الصهيوني ويتعاطف مع المنظمات الصهيونية القائمة في ذلك الوقت.

كنت أظن بعد أن انتهيت إلى ما انتهيت إليه في كتاباتي السابقة أنني قد أغلقت ذلك الملف بالنسبة لي بعد أن قلت ما لدي معتمداً على ما أتيح لي من وثائق وكتابات آنذاك، ومضت السنوات فإذا بالجديد من الوثائق المحجوبة يزاح عنها الستار لتضيف إلى الصورة العديد من التفاصيل التي تضعها في إطار جديد تماماً. لقد كان فرويد منتمياً بالفعل لفكر صهيوني بل ومتعاطفاً مع تيار صهيوني بعينه، ولكنه لم يكن التيار الصهيوني «المنتصر» الذي أقام دولة إسرائيل التي نعرفها. كان تياراً صهيونياً آخر سرعان ما تلاشى بعد اغتيال أبرز قادته.

ليس أصعب على الكاتب من إعادة فتح ملف انتهى منه خاصة إذا كان ما سيضيفه إلى ذلك الملف يتناقض بدرجة أو بأخرى مع ما سبق أن خلص إليه. ولكن لم يكن بد من المراجعة، خاصة إذا كان الرجوع إلى الحق لا يعني إنكار الماضي أو التنكر له.

نظرة جديدة: فرويد مازال يتحدث

كنت أتجول كعادتي خلال أبريل ٢٠٠٢ بين مواقع شبكة الإنترنت، ومررت عابرا على موقع شهير من مواقع الشبكة يحمل اسم «متحف فرويد»، ولم أكن أتوقع جديداً. صحيح أن وفاة فرويد في سبتمبر ١٩٣٩ لم تكن نهاية للتحليل النفسي، ولا حتى بداية لذبوله. لقد ظل التحليل النفسي حتى اليوم قائماً متطوراً سواء على مستوى النظرية أو الممارسة أو حتى التنظيم، وفي المقابل ظل النقد للتحليل النفسي مستمراً. كل ذلك صحيح بل وقد لا يستوقف النظر. ولكن الجديد، وهو ما شدني للتوقف أمام ذلك الموقع هو أن يتردد صوت فرويد بعد مضي ستون عاما على وفاته معلقاً على أحداث جارية مثل الانتفاضة الفلسطينية وحرب الصحراء واستشهاد الطفل الفلسطيني محمد الدرة والعمليات الاستشهادية وما إلى ذلك.

يحتل متحف فرويد -الذي يحمل الموقع اسمه- ذلك المنزل الذي كان يقيم فيه فرويد وعائلته حين فروا من ملاحقة النازي لهم إثر احتلال النمسا عام ١٩٣٨. تلك الملاحقة التي أدت إلى مقتل إخوة فرويد الأربعة الأكبر منه في معسكرات الإبادة النازية.

و ظل المنزل مقرا لإقامة فرويد وممارسته للتحليل النفسي حتى وفاته عن ٨٧ عاماً في ١٩٣٩/٩/٢٣، واستمر المنزل مقرا لإقامة أسرة فرويد حتى عام ١٩٨٢ حين توفيت صغرى بناته وهي المحللة النفسية الشهيرة أنا فرويد بعد أن عاشت في المنزل ٤٤ عاما بعد وفاة والدها، وأوصت بأن يتحول بعد وفاتها إلى متحف يختص بتجميع كل ما يتعلق بحياة فرويد من مقتنيات ووثائق ومخطوطات. ويكفي لتصور حجم تلك الوثائق والمخطوطات أن نشير إلى أن عدد الخطابات المتبادلة بين فرويد وآخرين والتي يضمها أرشيف المتحف تتجاوز ٦٠٠٠ خطاباً.

و تحول المنزل بالفعل إلى متحف تولت اريكا دافيز Erica Davis مهمة إدارته، وتولى ميشيل مولنار Michael Molnar مسئولية الأرشيف، كما تولى المحلل النفسي البريطاني ايفان وارد Ivan Ward إدارة قسم التعليم بالمتحف، وأنشأ وارد ضمن المواقع التي يضمها قسم التعليم موقعاً يحمل اسم «فرويد اليوم: وجهات نظر شخصية»، ويعرف ايفان وارد ذلك الموقع الذي بدأ ممارسة نشاطه منذ نوفمبر ٢٠٠٠ بقوله: «سوف يحتوي ذلك القسم من موقع المتحف على الشبكة مواد تتعلق بما يجري في العالم من أحداث قد تبدو خطيرة أو تافهة. وسوف تتضمن تلك المواد أيضاً بعض فقرات من السير الذاتية. وسوف يكشف ذلك كيف كان يمكن لفرويد شخصيا أو لأسلوب التحليل النفسي في التفكير أن ينظر إلى المواقف اليومية والأحداث المعاصرة. وبذلك فإن ما يحتويه الموقع لا يعبر بحال عن أي موقف رسمي لمتحف فرويد. وكافة المواد المطروحة قد قام بكتابتها ايفان وارد مدير قسم التعليم بالمتحف، إلا إذا تمت الإشارة إلى غير ذلك. والقراء مدعوون للإسهام بتعقيباتهم الموجزة التي تربط بين أفكار فرويد والقضايا الاجتماعية المعاصرة، أو أية أمور أخرى تثير اهتمامهم. لقد أثار أسلوب عرض بعض الفقرات شيئا من الغموض، إنني أو غيري حين نستخدم عبارات من مثل «لعل فرويد قد يقول آنذاك ...» أو «لعل فرويد قد يحس...» فإن ذلك لا يعدو أن يكون تشبيها يجسد فكرة «فرويد اليوم». وينبغي قراءة تلك الفقرات كما لو كانت «إنني أعتقد أن فرويد كان سيقول ....».

وبدأت نشرات الموقع بنشرة تحمل تاريخ سبتمبر-نوفمبر ٢٠٠٠ واستمرت تتوالى على فترات غير منتظمة إلى أن بلغت ثماني نشرات لتحمل آخرها حتى اطلاعي على الموقع تاريخ أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٣، وهو التاريخ الذي تم بعده إغلاق الموقع.

ولعل استعراضاً سريعاً لعناوين بعض ما تضمنته تلك النشرات من موضوعات قد يساعد على تبين توجهها، بل وقد يلقي الضوء على مبرر إغلاقها. لقد كان ضمن عناوينها على سبيل المثال «الصراع العربي الإسرائيلي» «أن تكون صديقاً للعرب»، «حاملو القنابل الانتحارية»، «المستوطنون اليهود الجدد»، «أمهات الحرب»، «الدين»، «يوم ذكرى ضحايا الهولوكوست»، «محمد المسكين» والمقصود به محمد الدرة الطفل الفلسطيني الشهيد، وكان عددها الأخير يتضمن: «فوائد الحرب»، «النيران الصديقة».

ولم يمض ما نشره ايفان وارد في هدوء، ولقد رصدت جريدة هاآرتس تلك الأصداء العنيفة التي أحدثها المقال والتي تتالت إلى أن تم إغلاق الموقع. في مقال بقلم شارون ساديه Sharon Sadeh نشر في هاآرتس بعنوان «هبوة فرويدية معادية لإسرائيل في لندن»[2] جاء فيه أن المحلل النفسي Lewis Aron من جامعة نيويورك قد صدم ولم يصدق عيناه حين تصفح الموقع المشار إليه، وأعلن أنه قد تم تسخير اسم الموقع وكلمات فرويد للسخرية من إسرائيل وتشويه سمعتها من خلال افتراءات تنضح بالحقد، وقام على الفور بنشر بيان احتجاج على شبكة الإنترنت[3] سرعان ما وقع عليه ٤٠٠ شخص خلال أسبوع واحد.

ويشير آرون -وفقاً لمقال الهاآرتس- إلى ما نشره الموقع متعلقاً بالهولوكوست حيث يقرر إيفان وارد أن تلك الجريمة التي وقعت في مجتمع أوروبي متطور لم تكن لتحدث لو لم ينجح النازيون في إقامة آلة بيروقراطية منظمة دفعت الملايين للإقدام بحماس على ارتكاب مذابح الهولوكوست دون أي مبرر اقتصادي أو سياسي أو حتى عسكري، وينتقل إيفان وارد بعد ذلك مباشرة للإشارة إلى أنه ليس أفضل لإحياء لذكرى الهولوكوست من الإشادة بموقف أولئك



تــم تــرشــيـــح فرويد وكـذلـك ايـنـشـتـايـن للـتـدريـس فـى الـجـامـعـة الـعـبـريـة. واعـتـذر فرويد عـن قـبـول ذلـك الـعـرض شـأنـه شـأن العـديد من كبار المثقفين اليهود آنذاك

الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا الانصياع لأوامر قادتهم بإطلاق النار على الفلسطينيين خلال الانتفاضة دون الانزلاق إلى تلك الكذبة المغرية: إننا ننفذ الأوامر فحسب. ويرى آرون أن إيفان وارد بتلك المقارنة إنما يشبه إسرائيل بألمانيا النازية.

ولم يشفع لإيفان وارد دفاع ايريكا دافيز عنه وعن مشروعية نشر مقالات تعبر عن وجهات نظر أصحابها، ولم يشفع له كذلك ما عبر به عن صدمته مما أثارته كتاباته من ردود فعل غاضبة حادة، وأنه حين أشار إلى رفض الجنود الإسرائيليين إطاعة أوامر قادتهم إنما كان يبرز صورة مناقضة لما أقدم عليه النازيون من انصياع أعمى.

فرويد وانتفاضة البراق ١٩٢٩

لقد صدرت أولى نشرات موقع «فرويد اليوم: وجهات نظر شخصية» مع اشتعال انتفاضة الأقصى على الأرض الفلسطينية إثر زيارة شارون للمسجد الأقصى، وتحمل النشرة خطابا يحمل تاريخ ٢٦ فبراير ١٩٣٠ وجهه فرويد من فيينا إلى حاييم كوفلر ممثل إحدى المؤسسات المعنية بمساندة اليهود والتي انتشرت في أوروبا إثر انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول. كان كوفلر قد طلب من فرويد باعتباره من صفوة اليهود التوقيع على بيان يدين المظاهرات العربية العنيفة التي اندلعت في فلسطين عام ١٩٢٩، والتي كان ضمن ضحاياها ١٠٠ مستوطن يهودي.

ولنبدأ بعرض النص الحرفي للخطاب.

فيينا في ٢٦ فبراير ١٩٣٠

سيدي العزيز

إنني لا أستطيع تلبية طلبك؛ إذ ليس في مقدوري التغلب على إحساسي بالنفور من إرهاق الرأي العام بوضع توقيعي على الوثيقة، وذلك فضلا عن أن الوقت الحرج الراهن لا يبدو مشجعا للإقدام على ذلك. إن من يرغب في التأثير على الجماهير ينبغي أن يقدم لهم ما هو مثير وملتهب، ومن ثم فإن تقييمي المتوازن للصهيونية لا يبدو مناسبا لتحقيق ذلك. ليس من شك في أنني أتعاطف مع أهداف الصهيونية، كما أنني فخور بجامعتنا في أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا. ولكنني من ناحية أخرى لا أظن أن فلسطين يمكن أن تصبح دولة يهودية، فالعالمين المسيحي والإسلامي ليسا على استعداد لوضع أماكنهم المقدسة تحت حماية يهودية. إن ما يبدو لي معقولاً هو تأسيس وطن قومي يهودي على أرض تكون أقل تشبعاً بالتاريخ. ولكنني أعلم أن وجهة النظر المنطقية هذه لن تلقى حماساً من قبل الجماهير، ولا دعماً ماليا من جانب الأغنياء. ومن ثم فإنني أخلص مع الأسف إلى أن ذلك التعصب الذي يبديه شعبنا دون أن يستند إلى أساس إنما يتحمل جانبا من المسئولية عن إثارة عدم الثقة لدى العرب. إنني لا أتعاطف مطلقاً مع تلك الطاعة غير الرشيدة للآباء والتي تتحول معها قطعة من الحائط الهيرودوتي إلى أثر قومي، مما يمثل تحدياً لمشاعر أبناء البلد.

والآن فلتحكم بنفسك إذا ما كان لمن له مثل هذه الرؤية الناقدة، أن يكون الشخص المناسب لمساندة شعب مأخوذ بأمل خادع

خادمكم المطيع

فرويد

ولعلنا لاحظنا كيف أن فرويد قد اتخذ موقفين قد يبدوان متناقضين إذا لم نضع في اعتبارنا تعدد وتصارع التيارات داخل صفوف الصهيونية. إنه يعلن بوضوح قاطع أنه متعاطف مع أهداف الصهيونية، وأنه فخور بجامعتنا في أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا»، ثم يستدرك مستبعدا إمكانية أن فلسطين «يمكن أن تصبح دولة يهودية، فالعالمين المسيحي والإسلامي ليسا على استعداد لوضع أماكنهم المقدسة تحت حماية يهودية»، ثم يعلن ما يبدو له منطقيا من وجهة نظره مقررا «إن ما يبدو لي معقولاً هو تأسيس وطن قومي يهودي على أرض تكون أقل تشبعا بالتاريخ» أي أنه كان أقرب إلى فكرة إقامة دولة يهودية على غير الأرض الفلسطينية، وهي الفكرة التي ترددت في الأوساط الصهيونية قديما حول إقامة الدولة اليهودية في سيناء أو في أوغندا، واندثرت تلك الأفكار تماما. ويبدو فرويد مدركا تماما لتلك الحقيقة إذ يقرر «لكني أعلم أن وجهة النظر المنطقية هذه لن تلقى حماساً من قبل الجماهير ولا دعما ماليا من جانب الأغنياء». ويختتم فرويد خطابه بفقرة بالغة الدلالة يحدد فيها بوضوح أن التعصب اليهودي يتحمل جانبا من المسئولية عما حدث في انتفاضة ١٩٢٩ واصفا العرب بأنهم أبناء البلد natives إذ يقول «إنني أخلص مع الأسف إلى أن ذلك التعصب الذي يبديه شعبنا دون أن يستند إلى أساس إنما يتحمل جانبا من المسئولية عن إثارة عدم الثقة لدى العرب. إنني لا أتعاطف مطلقاً مع تلك الطاعة غير الرشيدة للآباء والتي تتحول معها قطعة من الحائط الهيرودوتي إلى أثر قومي، مما يمثل تحديا لمشاعر أبناء البلد».

لعله من المناسب قبل أن نمضي في تحليل موقف فرويد أن نلقي نظرة سريعة على أحداث فبراير ١٩٢٩، أو ما يعرف بانتفاضة البراق

ماذا حدث في فبراير ١٩٢٩؟

شهدت فلسطين خلال العشرينيات ثلاثة اضطرابات هامة بين العرب والصهيونيين هي اضطرابات القدس في إبريل ١٩٢٠، واضطرابات يافا في مايو ١٩٢١، واضطرابات البراق في أغسطس ١٩٢٩. ويرجع محمد بديع شريف في كتابه المعنون مدخل لدراسة مطامع اليهود في فلسطين قديما وحديثا بداية اضطرابات البراق إلى أنه «في ٢٣ ايلول ١٩٢٨ جاء اليهود بأدوات جديدة إلى حائط المبكى واقاموا ستاراً يحجز الرجال عن النساء». ويورد ناجي علوش في كتابه المعنون «الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢–١٩٤٨»، الصادر عن مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ورابطة الأدباء في الكويت عام ١٩٧٤ تفصيلاً لما حدث:

تتلخص القضية في أن اليهود اعتبروا أن الحائط الغربي من المسجد الأقصى هو من بقايا الهيكل . وكانوا يقومون بزيارته في المناسبات الدينية ، ولم يكن لدى العرب عموماً والهيئات الإسلامية خصوصا أي مانع في ذلك، شريطة عدم إحداث تغييرات . وكان الموضوع محسوماً في زمن السيطرة العثمانية، ولكن الوضع تغير بعد السيطرة البريطانية على فلسطين وصدور تصريح بلفور. وكان أن بدأت الهيئات اليهودية، صهيونية وغير صهيونية، تسعى لتغيير الأمر الواقع فيما يتعلق بحائط المبكى .

وأخذ اليهود يحاولون التغيير تدريجيا بممارسة الطقوس الدينية، وبإحضار مقاعد وما شابه؛ أي أنهم حاولوا أن يجعلوا من المكان معبداً. وكادت تحدث مشكلة في أيلول ١٩٢٥، مما دفع السلطة إلى اتخاذ قرار يحظر فيه على اليهود « أن يجلبوا إلى الحائط كراسي ومقاعد، حتى ولو كانت الغاية منها جلوس الطاعنين في السن والعجزة عليها».

وأنشأ اليهود سنة ١٩٢٨ لجنة للدفاع عن حائط المبكى، أخذت تقوم بنشاطات لهذه الغاية. وبدأت سنة ١٩٢٨ الاحتكاكات من جديد. فقد اضطر أحد موظفي الحكومة البريطانية أن يرفع ستاراً وضعه اليهود بالقوة في ٨/٢٤/ ١٩٢٨، وهو يوم عيد الغفران، فأرسلت

المراجع اليهودية شكاوى إلى الحكومة البريطانية وإلى الأمم المتحدة.

وتوجه المجلس الملى اليهودى بعد شهرين تقريباً (تشرين الثانى) برسالة إلى الطائفة الإسلامية جاء فيها:

«وعليه فإننا نصرح هنا بالحقيقة التى لا تشوبها شائبة، وبإخلاص تام، بأنه لن يخطر ببال أحد من اليهود المساس بحقوق المسلمين فى أماكنهم المقدسة. ولكن يجب على إخواننا العرب أن يعترفوا هم أيضاً بتلك الحقوق التى لليهود على أماكنهم المقدسة فى البلاد».

وتضيف الرسالة أن البراق الذى يقدسه اليهود كان «مكاناً لتأدية الصلاة والزيارة بدون أية ممانعة أو أقل معارضة، جيلاً بعد جيل. ولذلك فإن من البديهى أن الشعب اليهودى لا يميل إلى أقل تساهل فى هذا الحق المقدس الذى ثبت له على مر العصور والأجيال. وهكذا فإن أى محاولة ترمى إلى إلغاء أو تحديد هذا الحق، والتدخل فى أنظمة الصلاة والتقاليد اليهودية تعتبر مساساً عظيماً بعواطف الأمة اليهودية، وطعنة نجلاء فى صميم قلبها...».

وتذهب الرسالة إلى أن ما يطلبه المجلس الملى اليهودى ما هو إلا «عبارة عن طلب طبيعى باحترام حق اليهود لا أكثر ولا أقل...». ثم تدخلت اللجنة التنفيذية الصهيونية، فقدمت احتجاجاً إلى حكومة فلسطين «بشأن البناء الذى أخذ المسلمون يشيدونه فى الطرف الشمالى من حائط المبكى...».

وحين طلب من الطرفين أن يقدموا وثائقهم، قدم العرب ما يلزم أما هيئة الحاخامين فقررت «أن إبراز البيانات الكتابية قد يضعف الحقيقة الناصعة بأن للطائفة اليهودية حق السلوك إلى الحائط وإقامة الصلاة فيه...» وكان أن أوقف البناء، وحولت القضية إلى مستشارى التاج. وبعد أن تسلم المندوب السامى قرارهم كتب رسالة إلى المراجع العربية وأخرى إلى المراجع الصهيونية، وجاء فى رسالته إلى المفتى أنه يحق لليهود أن يقيموا صلواتهم دون أن يلحق بهم إزعاج، وبناء عليه جرى السماح باستئناف البناء.

وانعقد المؤتمر الصهيونى السادس عشر فى الفترة ما بين ٢٨ يوليو، و١١ أغسطس ١٩٢٩ فى زيوريخ، وكان موضوع حائط المبكى من ضمن المواضيع التى ناقشها. وخلال انعقاد المؤتمر أصدرت «جمعية حراسة المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة» بياناً جاء فيه: «عاد اليهود منذ انعقاد المؤتمر الصهيونى فى زيوريخ إلى الاعتداء المتوالى على البراق الشريف... ويقوم المؤتمر الصهيونى الذى سيستمر إلى ٨ آب ١٩٢٩ بمحاولات واسعة النطاق لاستثارة اليهود فى العالم، مبديا السخط على الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة البريطانية فى مسألة البراق...» وقامت لجنة الدفاع عن حائط المبكى بإصدار بيان مماثل بعنوان «نداء إلى شعب إسرائيل فى جميع أنحاء العالم» جاء فيه: «لئن سكتنا أو اعتمدنا على سياسة زعمائنا خسرنا حائط المبكى، ذلك المقام الوطنى المقدس، الذى هو من أنفس مقتنياتنا... هلموا إلى مساعدتنا، وعاونونا فى هذا الكفاح العادل لاسترداد هذا الحائط، ولا شك أن النصر سيكون حليفنا».

وجاء عيد يوم الغفران اليهودى الخميس ١٥ أغسطس ١٩٢٩ حين قادت منظمة بيتار اليهودية المتطرفة مظاهرة اتجهت إلى الحائط فى محاولة للاستيلاء عليه، وعلت الهتافات «الحائط حائطنا» وتم رفع العلم الصهيونى على الحائط وأنشد المتظاهرون نشيد الهاتيكفا. وخلال صلاة الجمعة فى الأسبوع التالى مباشرة أى فى ٢٣ أغسطس، أحس الخطباء أن الجو ينذر بالخطر ولذلك عمدوا إلى محاولة تهدئة الجماهير، ولكن بعض الحضور صعدوا إلى المنبر ودعوا الجميع إلى عدم الاهتمام بما قاله الخطباء، لأنهم غير مخلصين لقضية المسلمين. وخرج المصلون إثر الصلاة فى مظاهرة غاضبة، وبدأت الاشتباكات الدموية.

فرويد وانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠

ذلك ما حدث آنذاك عام ١٩٢٩، وحين أعاد إيفان وارد نشر خطاب فرويد القديم أشفعه بتعليق قال فيه:

«فيما يتعلق بالموقف الراهن (سبتمبر ٢٠٠٠) فإننا نستطيع افتراض أن فرويد سوف يسعد عند سماعه أنباء تفيد أن غالبية سكان إسرائيل يعتبرون أنفسهم يهوداً علمانيين (كما كان فرويد يعتبر نفسه)، وأنهم يتعاطفون مع تزايد الدعوات داخل إسرائيل للانسحاب من المناطق المحتلة. ولعله لن يندهش على أية حال من أن اليهود الأصوليين المتدينين لا يولون اهتماماً كبيراً بما تنص عليه الكوديشيم سيدرا Kedoshim sidra والتى يعتبرها البعض بمثابة «جوهر الديانة اليهودية»: أحب جارك كنفسك».

ولم يمض تعليق إيفان وارد فى هدوء، فسرعان ما تلقى تعقيباً ناقداً من المحللة النفسية يوديت يونج Yudit Jung بعنوان «فرويد والصهيونية: مزيد من الحوار» جاء فيه:

«قبل أن أصبح محللة نفسية، كنت أعمل فى السلك الأكاديمى بحثاً وتدريساً فى ألمانيا، وإسرائيل، والولايات المتحدة. وكان موضوع أطروحتى: «تطور الهوية القومية لدى الطبقة العاملة فى روسيا، وبولندا، وفلسطين فى الفترة من ١٨٨٩-١٩٢٩». واقتضى منى ذلك أن أكون على معرفة وثيقة بجذور الصهيونية، وكذلك بالحركة الثقافية غير الصهيونية المعروفة باسم البوند The Bund. لقد أمضيت ثلاث سنوات أبحث فى أرشيف الدولة فى أورشليم عن السياسات التى أدت إلى تأسيس دولة إسرائيل، حيث أتيح لى الاطلاع على الوثائق الأصلية والمصورة الخاصة بوزارة الخارجية البريطانية O.F، وملفات المخابرات المتعلقة بالأنشطة السياسية لكل من المستوطنين اليهود والأهالى العرب. لقد كان الاطلاع على تلك الوثائق محظوراً منذ ١٩٣٨-١٩٦٨ نظراً لما تتضمنه من «معلومات سياسية حساسة»، ورفعت جولدا مائير ذلك الحظر عام ١٩٦٨، ولم يلبث أن فرض الحظر من جديد عام ١٩٧٣ ولمدة خمسين عاماً جديدة باعتبارها مازالت تتضمن معلومات تعتبر شديدة الحساسية للرأى العام.

ومن بين العديد من الخطابات الأخرى، تضمنت تلك الوثائق صوراً من المناقشات التى جرت بين فرويد ورفاقه من اليهود الألمان فى إسرائيل وخارج إسرائيل من الذين كانوا يودون إغراءه بقبول منصب فى الجامعة العبرية التى جرى إنشاؤها آنذاك. لقد تم ترشيح فرويد وكذلك اينشتاين للتدريس فى الجامعة العبرية. ولقد اعتذر فرويد عن قبول ذلك العرض شأنه شأن العديد من كبار المثقفين اليهود آنذاك. إن الخطاب الذى نشره «متحف فرويد» ينبغى أن يفهم فى سياق صداقة فرويد لقادة الييشوف Yishuv عامة، وأولئك المنتمين لحزب «السلام» بوجه خاص. إن المهاجرين اليهود القادمين من بلاد تتحدث الألمانية، والذين تعرف الكثير منهم على بعضهم البعض فى الجامعات الأوروبية، قد انضووا معا تحت قيادة حاييم أورلوسوروف Chaim Orlosoroff لإقامة «حزب السلام» الذى ضمت صفوفه العديد من المثقفين اليهود البارزين من ذوى الأصول الألمانية مثل مارتن بوبر Martin Buber.

لقد حظى النقاش الذى كان يدور حول الملاءمة العملية للصهيونية العلمانية بمشاركة واسعة من أبناء الجماعة اليهودية الأوروبية، وليس فحسب من أعضاء الييشوف، بل أولئك المستوطنون الذين قدموا مؤخرا من أوروبا إلى فلسطين. ولم يكن فى مقدور مثقف يهودى بارز مثل فرويد المقيم فى فيينا موطن تيودور هرتزل Theodor Herzl إلا أن يكون مشاركا فى ذلك الجدل الجارى آنذاك. ولكن فى حدود معرفتى فإن فرويد لم يتخذ أبدا على الإطلاق موقفاً رسمياً معادياً للصهيونية، بهدف الحيلولة دون مزيد من التطور للدولة الإسرائيلية. كذلك فإنه لم يقطع قط روابطه بجذوره اليهودية وظل محتفظاً بعضويته فى جماعة بناى برث Bnei Brith طوال حياته.

لقد أشار فرويد بوضوح فى الخطاب الذى نشره المتحف إلى «... أن تقييمى المتوازن للصهيونية لا يسمح بذلك... إننى أتعاطف مع أهدافها (كذا) وفخور بجامعتنا فى أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا». لقد كانت لدى فرويد شكوك فيما يتعلق بالإمكانية العملية لمشروع الييشوف، ولكن ليس فيما يتعلق بأخلاقيات أهداف المشروع.

صهيونى من نوع خاص

لقد بدأت الصورة تتضح. إن الصهيونية لم تكن أبدا نسيجا واحدا، وكان التباين بين تياراتها شديدا وما زال كذلك، وكان فرويد متعاطفا مع واحد من التيارات الصهيونية النشطة آنذاك، وبالتالى فقد كان معارضا لتيارات أخرى، ولم تكن تلك الحقيقة متاحة لى آنذاك.

ترى ما هى ملامح ذلك التيار الصهيونى الذى كان الأقرب لفكر فرويد؟ يبدو أنه ذلك التيار الذى أشارت إليه يوديت يونج مطلقة عليه اسم «حزب السلام» وغنى عن البيان أنه مجرد تشبيه، فليس ثمة حزب من الأحزاب الصهيونية يحمل هذا الاسم. إنه تحديدا فريق حاييم أورلوسوروف. ترى من هو حاييم أورلوسوروف؟

العديد من شوارع المدن الإسرائيلية تحمل اسمه، فضلا عن كيبوتز جيفات حاييم، ومستوطنة كفار حاييم، ومستوطنة كيريات حاييم وغيرها. حاييم أورلوسوروف أحد رواد الصهيونية الأوائل. ولد فى روسيا عام ١٨٩٩، ونزحت أسرته إلى ألمانيا حيث نشأ ودرس فى جامعة برلين التى حصل منها على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد. هاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٤. رأس حزب الماباى وكان صديقا حميما لحاييم وايزمان الذى شاركه فى تبنى العديد من آرائه وأفكاره. لقد تبنى فكرة أنه ينبغى أن تتسع الوكالة اليهودية لعضوية غير الصهاينة باعتبار الصهيونية تيار داخل حركة يهودية أشمل. كان ينادى بضرورة الاعتراف



بالآمال القومية للعرب، ورغم أنه عايش فترات الاضطرابات العنيفة بين العرب واليهود إلا أنه ظل مؤكدا إمكانية التواصل بين الصهاينة والعرب، حتى أنه اجتمع فى أبريل ١٩٣٣ مع حاييم وايزمان وأصدرا بيانا يدعو إلى تعاون ثنائى القومية Bi-national بين العرب واليهود.

وكان طبيعيا أن يلاقى مثل ذلك التوجه رفضا عنيفا من العناصر الصهيونية المتطرفة وعلى رأسها تيار زيف جابوتنسكى. ولم يعش حاييم أورلوسوروف طويلا بعد بيان أبريل ١٩٣٣، فقد أطلق عليه شابان يهوديان الرصاص فى يونيو من نفس العام، ورغم أنهما قد نفيا ارتكابهما الجريمة إلا أن المحكمة أدانت أحدهما ويدعى ابراهام ستافسكى وحكم عليه بالإعدام إلا أن المحكمة لم تلبث أن نقضت الحكم وأفرجت عنه لعدم كفاية الأدلة. ولقد صرح أحد قادة تيار جابوتنسكى إثر واقعة الاغتيال بأنه «ينبغى أن نعتبر ذلك الشاب الذى أطلق الرصاص على أورلوسوروف فى عداد القديسين»[٤].

كان فرويد إذن أقرب إلى ذلك التيار الصهيونى الذى لا ينطلق من رؤية توراتية لأرض الميعاد ولشعب الله المختار. تيار يرى ضرورة أن تكون لليهود دولتهم دون قهر لشعب آخر، ويصرف النظر عن إمكانية ذلك أو استحالته، فقد كان فرويد فى نهاية الأمر صهيونيا ولكن من نوع خاص، كما كان أيضا يهوديا من نوع خاص.

كان فرويد إذن أقرب إلى ذلك التيار الصهيونى الذى لا ينطلق من رؤية توراتية لأرض الميعاد ولشعب الله المختار. تيار يرى ضرورة أن تكون لليهود دولتهم دون قهر لشعب آخر

ويهودى من نوع خاص

يتفق ما سبق من موقف خاص لفرويد من الصهيونية، مع كون فرويد ليس باليهودى التقليدى، بل كان أقرب إلى ذلك الفريق من اليهود العلمانيين. لقد كان يهوديا ينتمى لتاريخ اليهود فى أوروبا، بل وفى ألمانيا بالتحديد. يشعر بمشاعر الأقلية اليهودية التى عانت ما عانت من اضطهاد المجتمع الأوروبى، ولكنه لم يكن مؤمنا بالديانة اليهودية ولا بغيرها من الديانات. لقد كان يهوديا من نوع خاص.

فى عام ١٩٨٧ صدر لبيتر جاى Peter Gay كتاب يحمل عنوانا بالغ الدلالة «يهودى لا يؤمن بإله: فرويد، والإلحاد، وخلق التحليل النفسى» وإذا كان عنوان الكتاب يستوقف الانتباه، فإن المؤلف، بل ودار النشر يستحق كلاهما وقفة.

المؤلف مؤرخ معروف، أستاذ للتاريخ فى واحدة من أشهر الجامعات فى الولايات المتحدة الأمريكية هى جامعة يال Yale، فضلاً عن تخصصه فى التحليل النفسى الذى درسه فى معهد وسترن نيو انجلند للتحليل النفسى Western New England Psychoanalytic Institute، كما إنه عضو شرف بالرابطة الأمريكية للتحليل النفسى American Psychoanalytical Association، ولقد استثمر المؤلف جمعه بين تخصصى التحليل النفسى والتاريخ فى أن يحتل مكانة بارزة كمؤرخ للتحليل النفسى ولمؤسسه سيجموند فرويد على وجه التحديد، فقد صدر له عام ١٩٧٨ كتابه المعنون «فرويد، واليهود، وغيرهم من الألمان: سادة وضحايا» Freud, Jews, and other Germans: Masters and Victims، كما صدر له عام ١٩٨٤ المجلد الأول من كتابه «الخبرة البرجوازية: من فكتوريا إلى فرويد» The Bourgeois Experience: Victoria to Freud وقد حمل هذا المجلد كعنوان فرعى «تربية الحواس» Education of the senses، وصدر المجلد الثانى من الكتاب عام ١٩٨٦ يحمل عنوانا فرعيا «العاطفة الغضة» The tender passion، وفى عام ١٩٨٥ صدر له كتاب «فرويد لدى المؤرخين» Freud for Historians، وفى عام ١٩٨٨ صدر له كتابه الفريد «فرويد: حياة من أجل عصرنا» Freud: A life for our time

تولت نشر الكتاب جامعة يال بالاشتراك مع كلية الاتحاد اليهودى فى كنكيناتى، وهو الأمر الذى يستوقف النظر إذ يوحى بأن هدف المؤلف قد يكون إثبات يهودية فرويد، وهو ما يتنافى مع توجهات المؤلف كما تفصح عنها بقية مؤلفاته فضلا عن العبارة التى انتقاها المؤلف من مراسلات فرويد ليستهل بها كتابه، بل ويقتبسها فى عنوان الكتاب: «ترى لماذا لم يتمكن أى من المؤمنين من خلق التحليل النفسى؟ لماذا كان علينا انتظار يهودى لا يؤمن بإله على الإطلاق؟» ولم تكن تلك المفارقة لتفوت على صاحب الكتاب، فهو يشير فى مقدمة كتابه إلى أن مادة الكتاب قد تبلورت خلال سلسلة من المحاضرات ألقاها بدعوة من كلية الاتحاد اليهودى فى ديسمبر ١٩٨٦، ويعلق قائلا[٥]:

«قد يبدو موضوع تلك المحاضرات غريبا بالنسبة لمعهد لاهوتى، إلا أن رجال اللاهوت قد دأبوا حقيقة وطيلة قرون على الاستمتاع بمحاجاة غير المتدينين، ربما لتحدى مهاراتهم الجدالية».

ثم يمضى قائلا:

«فى إحدى مقالاته عن فنيات العلاج يروى فرويد قصة طريفة عن مندوب وثائق تأمين على الحياة، ورجل دين. ويسوق فرويد هذه القصة هجوما على أولئك المعالجين النفسيين الذين يقبلون بتنازلات فيما يتعلق بأساسيات ممارساتهم الفنية سعياً لحلول توفيقية، ولكن القصة تكشف فى نفس الوقت الحاد فرويد. مرض مندوب وثائق تأمين على الحياة معروف بالحاده مرضا شديدا، ووافق تحت إلحاح أسرته أن يستقبل كاهنا، وكانت الأسرة تأمل أن يتمكن الكاهن من كسب المريض إلى صفوف المؤمنين قبل أن يموت، واستمر لقاء الكاهن بالمريض فى غرفة مغلقة مدة طويلة. واستبشر الأهل بذلك خيرا إذ أن مريضهم الملحد لم يطرد الكاهن. أخيرا خرج الكاهن من الغرفة مجهدا معلنا إنه لم يتمكن من هداية المريض المحتضر، بل إن المريض أقنعه بالتوقيع على وثيقة تأمين على الحياة».

لقد كان فرويد يهوديًا من نوع خاص. كان ملحداً لا يكف عن إعلان إلحاده، وفى نفس الوقت يعتز كل الاعتزاز بأصوله الحضارية اليهودية. لقد حرص على استمرار عضويته فى جماعة بناى بريث (أبناء العهد) اليهودية حتى وفاته. ومع ذلك قد أورد ارنست جونز كاتب السيرة المعتمد لحياة فرويد، ورفيق دربه فى مسيرة التحليل النفسى، فى الصفحة ٢٤٦ من صفحات المجلد الثالث من سفره الشهير المعنون «حياة سيجموند فرويد وأعماله»، أنه فى صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٣٩ أى بعد مضى ثلاثة أيام على وفاة فرويد قد تم إحراق جثمانه، كما تم الاحتفاظ بالرماد فى إحدى الجرار الإغريقية الأثرية التى كان يفضلها فرويد من بين مقتنياته. وغنى عن البيان مدى تعارض ذلك مع التقاليد الدينية اليهودية إلى حد أن إحدى الفتاوى اليهودية المنشورة على شبكة تنص على أنه «إذا ما طلب يهودى حرق جثمانه فينبغى إهمال الطلب، فإذا ما نفذ طلبه فمن نفذوه يشاركونه العقاب الإلهى» كان فرويد كذلك صهيونيًا لا جدال، ولكنه كان صهيونيا من نوع خاص.

كذلك فقد أورد جونز فى الصفحات ١٣٧-١٣٨ من نفس المجلد المشار إليه، أن فرويد قد تلقى قبيل وفاته بشهر واحد دعوة لكى يتولى رئاسة مؤسسة YIVO وهى مؤسسة بحثية يهودية شهيرة تأسست فى بولندا عام ١٩٢٥ ثم انتقل مقرها الرئيسى إلى نيويورك منذ عام ١٩٤٠ وهى تهتم أساسا باليهود الأشكنازيم من حيث التاريخ والمجتمع والثقافة وكان رئيسها موزوس جاستر Moses Gaster قد توفى قبيل أن يعرض المنصب على فرويد . وقد أملى فرويد رده

بالإنجليزية على هذه الدعوة. ويشير جونز إلى هذا الرد باعتباره الخطاب الوحيد من خطابات فرويد الذى لم يكتبه بيده. الخطاب مؤرخ فى ١٩/٨/ ١٩٣٩ يعتذر فيه فرويد عن قبول المنصب، مرجعاً اعتذاره بالإضافة إلى حالته الصحية إلى «تلك المعارضة العنيفة التى أثارها كتابى عن موسى والتوحيد فى الدوائر اليهودية، يجعلنى أشك فى أنه قد يكون من صالح مؤسسة YIVO أن تحمل اسمى كرئيس لها».

لقد كتب فرويد إلى تشارلز سنجر خطابا يحمل تاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٣٨؛ أى قبيل عام من وفاته يقول فيه «إننى لم أخف عدم إيمانى قط سواء فى كتاباتى، أو فى حياتى الخاصة».

التحليل النفسى اليوم فى العالم العربى والإسلامى

شهد قصر اليونسكو فى بيروت فى مايو ٢٠٠٥ ندوة تحت عنوان «التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى»، وقد عرضت جريدة السفير موجزا أعده اسكندر حبش لما دار فى هذه الندوة فى عددها الصادر فى التاسع من مايو ٢٠٠٥: حيث استهلت عرضها بالإشارة إلى أنه فى أحد التأويلات التى تطلق عادة على التحليل النفسى، أنه شهد تموضعه وانطلاقته فى البلدان التى عرفت نظاماً ديمقراطياً كاملاً. من هنا يأتى السؤال: هل ثمة تحليل نفسى فى العالم العربى والإسلامى؟.

«قد يكون هذا السؤال حاضراً فى أعمال الندوة التى شهدها قصر اليونسكو خلال الأيام الثلاثة الماضية (الجمعة والسبت والأحد)، والتى دعت إليها الجمعية اللبنانية للتحليل النفسى» وأشرف عليها، علمياً، كل من اللبنانى شوقى عازورى والفرنسية إليزابيت رودينسكو، وبمشاركة باحثين ومحللين نفسيين من فرنسا والعالم العربى، فى ظل رعاية السفارة الفرنسية متمثلة بالبعثة الثقافية فى بيروت.

إشارة الديمقراطية هذه كانت واضحة بشكل كبير فى كلمة شوقى عازورى الافتتاحية التى اعتبر فيها «أن التحليل النفسى هو الديموقراطية»، وربما كنا نستطيع أن نذهب إلى أكثر من ذلك، حين نجد أن مجتمعنا يرزح تحت تظلم شمولية: سياسية ودينية، كما نجد الكائن وهو مغيب بشكل كبير، لمصلحة هذه «النحن» الجماعية التى تملك «حلولا جاهزة» لجميع مشكلاته الفردية حتى وإن كانت لا تتقاطع أبدا مع «تركيبته» العصابية. هل بهذا المعنى تفتقد الديمقراطية؟ أى نقع فى الخوف، ليس فقط من إطلاق المكبوت، بل أيضا فى مواجهة «السلطات النفسية» التى تمارس رقابتها علينا، أو التى نجعلها تراقبنا بشكل لا واع؟ ربما كان الدين كسلطة يمارس حضوره «الطاغى»، إذ يكفى أن نعود إلى العرب الأقدمين الذين عالجوا مشكلة النفس، لكنهم فى لحظة حاولوا أن لا يتخطوا النص الدينى، أى تركوه السقف الذى حدد نقطة وصولهم. بهذا المعنى نستطيع أن نؤول كلمة جان دكرويه الرئيس الشرفى للجامعة اليسوعية الذى تحدث عن «اكتشافات التحليل النفسى والإيمان الدينى» وقد قصد الأب اليسوعى، «المصالحة» التى حدثت ما بين التحليل النفسى والكاثوليكية والتى تبنتها الكنيسة عبر أحد الباباوات السابقين. من هنا قد تكون النقطة الغائبة عن مؤتمر الجمعية اللبنانية هذا، الاستماع إلى وجهة نظر رجل دين مسلم فى قضية التحليل النفسى، لتفسير علاقة الإسلام بهذا الفرع المعرفى.

على كل، لم يدر المؤتمر كله حول التحليل النفسى، بالمعنى الضيق والحرفى للكلمة، بل تعداه إلى فروع معرفية أخرى، كالفكر والفلسفة والتاريخ والسياسة ووضع المرأة الراهن فى علاقتها بالعالم العربى والإسلامى. ربما هذا التنوع، هو ما أعطى للمؤتمر اتساعه ومعناه الثقافى الواسع؛ أى كانت للمشاركات المعرفية الدور فى عدم الوقوع فى زاوية ضيقة ومحددة، بل جعلته ينفتح على آفاق لا بد زادت الكثير من المعرفة للمستمع الذى تابعه، وإن كان هذا المستمع قليل العدد نسبياً، إذ لم يأت الكثيرون بسبب عدم إلمامهم باللغة الفرنسية، لذلك كان من الضرورى إيجاد ترجمة فورية للعربية، على الأقل، لو عملنا بمتن التحليل النفسى الذى يقول بأنه يرتكز على الكلام، أى على اللغة، لغة المجتمع.

إنها على كل ملاحظة لا تعنى الانتقاص من قيمة ما حدث، فبعض الأوراق التى قدمت، كانت على جانب كبير من الأهمية، كتلك التى قدمها المحلل التونسى فتحى بن سلامة الذى يبحث فيها ما بين «الغير والآخر» انطلاقاً من كتابات ابن عربى، وورقة كريستيان جامبى «خطابات السلطة الأربعة فى الإسلام»، أو كتلك التى قدمتها الباحثة الجزائرية سعاد أيادا «الحجاب ونزع الحجاب: التمثيل فى الإسلام»، وقد عالجت الباحثة موضوعها انطلاقاً من وجهة نظر فلسفية، وقالت إنها اختارت هذا الموضوع «لأن الحجاب لا يزال حاضرا على مفترق العديد من نقاشاتنا». وقد لجأت أيادا إلى استقراء الآيات والأحاديث التى تناولت هذا الموضوع. هذه الورقات التى قدمت فى اليوم الأول، سرعان ما جعلت المؤتمر يسلك طريقا شد إليه الحضور الذى عاد وتابع اليوم الثانى، بالحماسة ذاتها.

بداية اليوم الثانى كانت مع جليل بنانى الذى تحدث عن «كيفية إبداع التحليل النفسى مجددا فى المغرب»، وانطلاقاً من تجربته الشخصية كمحلل نفسى، يدخلنا إلى تفاصيل المجتمع المغربى، من خلال عرضه لبعض الحالات العيادية. هذه الحالة العيادية، إذا جاز التعبير، كانت حاضرة بقوة فى «شهادة» اللبنانية أنيسة الأمين «مرآة معاصرة وشيعية». نص مكتوب بلغة شعرية، من حيث الظاهر، لكنه يرسم مسارا عميقاً لكيفية اكتشاف «وعى» لهذه المرأة التى مرت بعدد من الحالات المختلفة. قبل أن «تكتشف» موقعها الفعلى، الذى تريده لنفسها. تلعب الأمين فى نصها على خطين، ارتباطها بكربلاء كظرف تاريخى واجتماعى وثقافى ولحظة اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى، بكونه لحظة راهنة، أتاحت لها بأن تعيد سؤال تاريخها كله. شهادة الأمين من النصوص الجميلة التى تدخلنا إلى قلب وضع «المرأة» المعاصرة، من هنا اختلافها عما قدمته المغربية صوفى بمسيس فى اليوم الأول حول «أوضاع النساء فى المغرب: مجازفات المجتمع والانكسارات الاجتماعية». الاختلاف يبدأ بهذا العرض التأريخى، الذى لم يصل إلا لهذه البديهية «أوضاع المرأة أوضاع صعبة فى المجتمع العربى بأسره لا فى المغرب فقط»!!

بشىء من «يوتوبيا» حوار الثقافات والحضارات جاءت ورقة اللبنانى أنطوان قربان (على الرغم من جمالها وأهميتها)، حول «الحجاب والقناع». من خلال مقارنة لمفهومى القناع فى الغرب والحجاب فى الشرق، حاول المحاضر أن يقرأ المجتمعين بسيرة «معكوسة» عبر رسومات متفرقة للقديس جاوجريوس (أو الخضر فى الدين الإسلامى) وهو يصارع التنين. من خلال قراءة هذه الأعمال الفنية للقديس، وهى موزعة ما بين رسومات روسية ومصرية (الفيوم) وإيطالية الخ، يبرهن كيف أن المفهوم الغربى كان أكثر ارتباطا بمفهوم القناع الذى يخفى الوجه، ليخلص إلى الهدف الذى يبحث عنه: «كم كان فى الثقافة الإسلامية الكثير من الثقافة البيزنطية، وكم كان هناك فى الثقافة الغربية الكثير من الثقافة الإسلامية».

الحلقة الأخيرة التى دارت بعد ظهر أمس، جاءت أكثر تاريخية سياسية، إذ قدم فيها كل من جو باحوت ورقة حول «الإسلام والغرب: الغيرية المستحيلة؟»، وسمير قصير «الفرد وعصر الأنوار فى العالم العربى المعاصر». المنطلق المحاضر الأول من حملة بونابرت على مصر الذى يحددها بالصدمة الأولى، وليعرض مشقة هذه العلاقة بين الشرق العربى والغرب. ليصل أنه من المستحيل أن تكون هناك علاقة بين الاثنين فى ظل مفهوم الانغلاق والخضوع الذى لا يزال يتحكم بها. فى حين تحدث قصير عن دور التوضويين فى عملية صوغ فكر جديد، وإن لم يستمر فى ظل حالات سياسية، أعادته إلى الوراء.

التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى «أكثر من أن يكون مؤتمراً حول التحليل النفسى. لقد نحا إلى معالجة العديد من الجوانب الثقافية، وربما هنا تكمن أهميته المعرفية، التى من المفيد أن تتكرر»[٦].

خـــاتـمـــة

لعله ليس مألوفا أن يقدم كاتب على إعلان مراجعته لما سبق أن انتهى إليه؛ ولا أجد حرجا فى أن أعبر عما أحسست به من مفاجأة حين اكتشفت أننى حين كتبت ما كتبت كان ثمة تفاصيل غائبة آنذاك، ولكنى لم أجد بدا من الإقدام على إعادة النظر، ولعل ما شجعنى على ذلك، أن ما اكتشفته مؤخرا وإن عدل من حقيقة انتماء فرويد للصهيونية، فإنه لم يفسر إقدام فرويد على إضفاء تلك الغلالة من السرية على تنظيم التحليل النفسى. ذلك ما قد تكشفه وثائق جديدة أو رؤية جديدة ما زالت فى علم الغيب. ■

١ ـ الكاتب، السنة التاسعة، العدد ١٠٥، ديسمبر ١٩٦٩

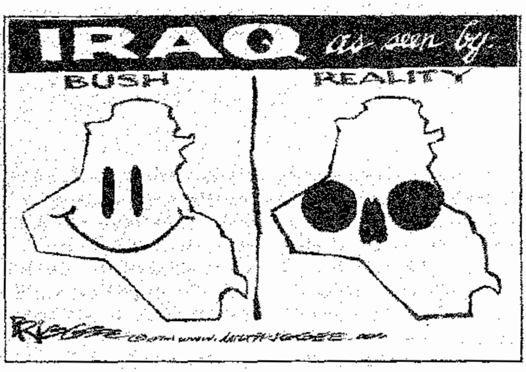
2 - Sadeh, Sharon "An antiIsrael Freudian slip in London", Haaretz. July ٣٠، ٢٠٠٦

3 - http://www.ipetitions.com/petition/Protest_Freud_Museum/

4 - "Yitzhak Rabin Remembered", Sermon given November 30, 2001, by Rabbi Samuel M. Stahl

5 - Gay peter, A godless Jew: Freud, atheism, and the making of psychoanalysis, Yale University press, New Haven and London, in association with Hebrew Union College Press, Cincinnati, 1987

٦ ـ اسكندر حبش، التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى- ندوة قصر الأونيسكو، مفترقات تاريخية وثقافية كبرى، ٩ مايو ٢٠٠٥



انتحـــار المـــدن!

باقـــر ياســين العــزيز

**الليل فى بغداد لا ينتظر حلول الظلام،
لقد بدأ الناس يتركون المدينة ويعودون إلى بيوتهم
بينما الساعة تقترب من الخامسة عصراً**

بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣ عدت للعراق لازور من بقى حياً من الأهل والأقارب والأصحاب وكان ما شاهدته من خراب عميم في كل مكان في العراق قد شكل عندي صدمة فاجعة وقد أثار ما شاهدته مفارقات حزينة سأحاول وصف بعضها تحت عناوين منفصلة:

العبور مشياً على مجزرة
الجسر القديم فى بغداد

رغم انتشار الموت الاعتباطى فى كل مكان من بغداد إلا أن الحنين لمشاهدة الأماكن القديمة واستعادة الذكريات التى تثيرها تلك الأماكن هى التى دفعتنى أن أعبر الجسر القديم مشياً على الأقدام متجهاً من جانب الكرخ إلى الرصافة دون أن أفكر بالمخاطر والعواقب لغريب مثلى منقطع عن بغداد ما يقرب من أربعين عاماً... وبدأت المشى فى تلك المنطقة التى وجدتها كالحة، بائسة، موحشة، مخربة، متخلفة، بعد أن كانت تزهو وتعج بمحلاتها ومخازنها ومقاهيها الشعبية وحركة السكان فى شوارعها وأزقتها الفرعية... بينما ينتصب الآن وسط الساحة الواقعة فى نهاية الجسر من جهة الكرخ تمثال ضخم لوزير الدفاع العراقى فى النظام السابق الفريق عدنان خير الله طلفاح، وهو ابن خال الرئيس صدام ورفيقه وصديق صباه وعمره.

إن تمثال عدنان بقى واقفاً فى مكانه دون أن يخرب أو يدمر بينما أبيدت كل التماثيل التى أقامها النظام السابق فى كل انحاء العراق..

ولهذا التمثال قصة تقول: إن عدنان خير الله قد أنقذ حياة أحد رجال الدين الشيعة المعروفين واسمه الدكتور أحمد الوائلى عندما طلب منه فى السر أن يترك العراق، لأن صدام كان قد قرر قتله... ولهذا لم يقترب أحد من تمثال عدنان ولم يمسه بسوء.

وعلى كل حال فالتمثال لا يوحى بشىء هام بل الجسر الهرم الموحش هو موضع الذكرى الحزينة الموحية للخواطر.

لقد كان هذا الجسر هو المسرح الذى جرت فوقه المذبحة الشهيرة عام ١٩٤٨ والمعروفة بمذبحة الجسر ويسميها البعض انتفاضة الجسر وكانت تلك المذبحة قبل وقوعها عبارة عن مظاهرة للاحتجاج ضد إبرام معاهدة بورتسموت التى وقعها النظام الملكى مع إنكلترا والتى اعتبرتها الحركة الوطنية بأنها معاهدة استعمارية تمس باستقلال البلاد... وقد أصرت الشرطة فى ذلك اليوم على منع المظاهرة من عبور الجسر بينما أصر المتظاهرون على عبور الجسر وعندما امتلأ الجسر بالبشر وغصت جوانبه بالمتظاهرين انهمر رصاص الشرطة على المتظاهرين دون رحمة ودون توقف.

ومنذ خطواتى الأولى التى بدأتها فوق الجسر بدأت أتذكر ما قرأته قديماً من كتابات ونصوص فى وصف مذبحة الجسر كان أحدها يقول: «وما أن وصلت صفوفهم الأمامية بالكاد إلى الضفة الغربية حتى فوجئت بنيران لا رحمة فيها أطلقت عليهم من فصيل عربات مدرعة... وقتل العديد من المتظاهرين على الفور أو جرحوا... وكان نزيف الجماهير مريعاً وتناثرت الجثث فى كل مكان وكان بعضها معلقاً على سور الجسر وسقط بعضها الآخر تحت الجسر وجرفه التيار...». ودون إرادة منى وجدت نفسى أتحسس سور الجسر بيدى واقترب من طرف السور لألقى نظرة إلى الأسفل البعيد وأسمع هدير الماء المرعب لنهر دجلة تحت الجسر الشاهق. فلعل هنا فى هذا الموضع بالضبط وحيث تمسك يدى بالسور مات أولئك العراقيون الوطنيون وتعلقت جثثهم على هذا السور فى عام ١٩٤٨ عندما خرجوا للاحتجاج على المعاهدة السياسية التى وقعها النظام مع بريطانيا... لقد كانت تلك المذبحة أحد الدواعى الهامة التى تسببت فى ذلك التمرد العسكرى الهائل الذى قاده الجيش العراقى بعد ذلك بعشر سنوات ليفجر ثورة العراق عام ١٩٥٨ التى سحقت النظام الملكى بأكمله وأبادت أكثر المسئولين من مؤيديه وأتباعه...

إن العنف الدموى فى العراق يتوالد ويتضاعف بمتوالية مرعبة تتواصل فيها المقدمات بالنتائج فى دوران تصاعدى مخيف لا يتوقف عبر السنين والقرون...

وفى الطرف الآخر من الجسر على الضفة الأخرى كان يلوح أمام ناظرى بناء المدرسة المستنصرية وهو بناء عباسى أنشأه الخليفة المستنصر بالله العباسى ولا أعلم كيف استطاع هذا البناء أن يفلت من موجات الدمار الشامل المتكرر التى تعرضت لها بغداد... ولعلها المصادفات وحدها هى التى أبقت هذا البناء واقفاً حتى اليوم..

كانت المدرسة المستنصرية تقف على طرف النهر تتفرج صامتة وهى جاثمة عند نهاية الجسر على جهة اليمين ولعلها مثلى تستذكر وتستعرض الأحداث وتفكر بما جرى ويجرى لكنها أطول منى عمراً بمئات الأضعاف فهى لابد أن تستذكر ليس مجزرة الجسر التى نفذتها شرطة النظام الملكى عام ١٩٤٨ الميلادى فحسب بل حتى مجزرة المغول التى نفذها هولاكو فى ذات المكان عام ١٢٥٨ للميلاد عندما اجتاح بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وأحرق المدينة وأقام فيها المذابح والخراب.

كانت خطواتى رتيبة ومتسارعة بعض الشىء بسبب الخوف من انفجار أو صدام مسلح أو رصاص ينطلق بسبب أو بدون سبب ليقتل أى شخص منهم بدون سبب وقد أكون أنا ذلك الشخص اليوم...

وفى منتصف الجسر عادت بى

إن العنف الدموي في العراق يتوالد ويتضاعف بمتوالية مرعبة تتواصل فيها المقدمات بالنتائج في دوران تصاعدي مخيف لا يتوقف عبر السنين والقرون...

الذكرى لواقعة جزئية مثيرة جرت بين وقائع تلك المذبحة تذكرها الكتابات التي دونت أحداث ذلك اليوم والتي أتذكر منها النص التالي: «بعد دقائق انهمر سيل من طلقات الرصاص ولم يتمكن أحد من عبور الجسر سالماً إلا فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تدعى عدوية الفلكي أما رفاقها الأربعة الذين كانوا بجانبها وآخرون وراءهم فقد سقطوا، وتوقف إطلاق النار ولم يعد الجسر الآن إلا صدى تمتمات الألم وصرخات الحزن».

لقد انصرف ذهني للتفكير بمصير تلك الفتاة الصغيرة، عدوية الفلكي وهل ما زالت على قيد الحياة؟ إن عمرها الآن أكثر من سبعين عاماً، ولقد سمعت قبل مدة إن إحدى الإذاعات أو الفضائيات قد أجرت مقابلة مع تلك الفتاة العجوز التي بقيت على قيد الحياة بعد أن أفلتت من بين أصابع الموت صدفة وفي لحظات من الزمن الضائع من عام ١٩٤٨، وعليك أن لا تستغرب إذا عرفت أن الكثيرين في العراق ممن هم على قيد الحياة قد أفلتوا مصادفة من الموت المنتشر في كل مكان في هذه البلاد المسكونة بالعنف والموت القسري.

وفي زحمة الخواطر والذكريات التي تعبر سريعة في مخيلتي وأنا مازلت أمشي فوق الجسر القديم تنبهت أن السيارات والناس والمشاة قد أصبحوا مسرعين أكثر وأكثر وكأنهم يريدون مغادرة المكان على عجل ولم يكن هناك ما يستوجب العجلة لكنني تذكرت أن الليل في بغداد في هذه الأيام يبدأ عند العصر وقبل مغيب الشمس على غير ما هو معروف في كل مدن العالم لأن الليل في بغداد يعني الخوف والموت والرعب والخطف والتسليب والانفجارات.

لذلك فالليل في بغداد لا ينتظر حلول الظلام، لقد بدأ الناس يتركون المدينة ويعودون إلى بيوتهم بينما الساعة تقترب من الخامسة عصراً.

منائر سعيد بن جبير الشاهقة

كنا متجهين بالسيارة من بغداد إلى البصرة. وفي منتصف المسافة يبدأ الطريق يقترب من مدينة الكوت التي هي في الأصل مدينة بنيت في الموقع القريب من موقع مدينة واسط التي كانت عاصمة الحجاج والتي ذاع صيتها في العصر الأموي حيث انطلقت منها كل الجيوش الإسلامية التي فتحت بلدان آسيا في الشرق وصادف أن الطريق الرئيسي الذاهب إلى البصرة مقطوع بسبب أعطال في أحد الجسور مما اضطر السائق وهو من أهل المنطقة أن يسلك طريقاً أخرى باتجاه منطقة الغراف والسير بمحاذاة الأهوار الجنوبية. ومنذ أن بدأنا السير باتجاه السهول المنبسطة الواسعة الشديدة الخصوبة أصبحت المنطقة بمناظرها الفسيحة الساكنة مثيرةً وموحية ليس لأنها جميلة وشاعرية بل لأنها كانت تحتضن مدينة واسط عاصمة الحجاج التي انطلقت منها الجيوش العربية باتجاه قارة آسيا بأكملها حتى حدود الصين. إن المنطقة الآن ساكنة هادئة صامتة ليس فيها صليل للسيوف ولا جلبة للجيوش ولا زحامات للقادة والقبائل على دار الإمارة لتقابل أمير العراق ذي السطوة والجبروت الحجاج بن يوسف الثقفي.

وفي مستوى الأفق البعيد في نهاية أحد الطرق الزراعية الفرعية بدت لنا منائر شاهقة تحيط بقبة زرقاء تتلجلج في الأفق البعيد وكأنها تغرق بالسراب ثم تطفو...

كان الصمت يلف الجميع داخل السيارة ربما بسبب الخوف الذي يشعر به الجميع حيث تشيع في المنطقة حوادث التسليب والخطف والقتل... ولم يكن أحد يتحدث داخل السيارة بكلمة واحدة...

وفجأة قطع السائق ذلك الصمت قائلاً: يا أستاذ (موجها الكلام لي) هل شاهدت تلك المنائر البعيدة؟. قلت: نعم...

قال: هذا مقام الصحابي سعيد بن جبير. صحت بدون تردد: توقف أرجوك وخذني إلى هناك. قال: يا أستاذ لا أستطيع... المنطقة خطرة وفيها تسليب وقتل وخطف والوقت جاوز الظهر، ويجب أن نصل قبل المغيب..

قلت: أرجوك توقف وخذني إلى هناك!... ورضخ لإصراري ورجائي وعندما كانت السيارة تتجه نحو قبر سعيد بن جبير الصحابي المفكر الفقيه المسالم الذي أعدمه الحجاج ظلماً كنت أستجمع ذاكرتي لعلي أتذكر ما كان يقوله الحجاج وفق ما تنقله المصادر قبل وفاته ندماً على إعدامه لابن جبير حيث تجمع الروايات أن الحجاج عندما مرض مرضه الأخير الذي توفي فيه كان يرى سعيد بن جبير كل يوم في المنام وهو يعاتبه ويلومه عما فعله به وبالناس من ظلم ومظالم وتذكر الروايات أن الحجاج كان يردد أمام زواره أنه خائف كيف سيواجه سعيد بن جبير يوم القيامة، وكيف سيتحمل وزر دمه وكان يلهج بهذه الكلمات حتى وفاته...

وكان سعيد بن جبير الرجل التقي الورع المسالم ينصح الحجاج ويلومه ويوجهه دائما ويحاول أن يثنيه ويمنعه عن المظالم وقتل الناس وسفك الدماء لكن الحجاج لم يستجب. وحين أثيرت الشبهات والوشايات عن تعاطف بن جبير مع ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث التي كادت أن تطيح بحكم الحجاج والتي سحقها الحجاج فيما بعد بمعركة دير الجماجم وقتل جميع المشتركين فيها لم يتردد عن استدعاء سعيد بن جبير وإعدامه على الظن وبقرار متسرع.

بعد انتهائنا من زيارة ضريح ابن جبير ذي القبة الكبيرة والمنائر العالية. كان من البديهي أن أسأل ويسأل كل إنسان.. وأين قبر الحجاج؟.. كان الجواب ليس للحجاج قبر وبالفعل ليس للحجاج قبر في العراق... عاد الصمت سيد الموقف.. وكان من الطبيعي أن أصمت طويلاً بعد ذلك الجواب الصاعق ونحن نواصل سيرنا متجهين نحو مدينة العمارة على تخوم الأهوار الموحشة لأن المفارقة الصارخة كانت أكثر تعبيراً عن أي كلام يمكن أن يقال... فهذا ما بقي من الحجاج وحكم الحجاج...

يوم الجمعة ببغداد

في العراق يمكنك أن تواجه الخراب وأخبار الموت وقد عششت حتى في الهوامش وفي الثنايا الحياتية الصغيرة.

شارع المتنبي في بغداد يتحول يوم الجمعة إلى مهرجان للكتب ويباع فيه كل شيء حتى المخطوطات الثمينة المنهوبة والمسروقة... كنت في ذلك السوق وكنت عائداً من الخارج وأنا محكوم بالإعدام غيابياً من قبل سلطات النظام الذي رحل والذي أصبح يسمى بالبائد وقعت عيني على كتاب بعنوان: (مذكرات الفريق طونزند) مطروحاً على الأرض ولا أحد يلتفت إليه فاشتريته فوراً والفريق طونزند هو قائد الحملة البريطانية لاحتلال العراق عام ١٩١٤ والذي أسرته القوات العثمانية في معركة الكوت جنوب بغداد واقتيد مشياً على الأقدام إلى الأستانة وتعرض لأنواع من الشدائد والمخاطر، أما مؤلف الكتاب فهو اللواء حامد أحمد الورد كان ضابطاً مقرباً من النظام ثم أعدمه النظام كغيره ممن أعدموا... لكن المفارقة المثيرة أن هذا اللواء وعند انتهائه من تأليف الكتاب وقبل أن يلقى مصيره كان قد أهدى نسخة من الكتاب بخط يده وهي ذاتها النسخة التي وقعت بين يدي صدفة وقدمها إلى الفريق حسين كامل وزير الدفاع وزوج ابنة الرئيس صدام حسين وهو الرجل المعروف الذي صال وجال في العراق ثم أعدم وقطعت رأسه في بغداد أيضاً... وهكذا اجتمعنا نحن الأربعة في هذه اللحظة أنا المحكوم بالإعدام ومازلت حياً بالصدفة وطونزند الذي لاقى ما لاقى منذ دخوله إلى العراق ومؤلف الكتاب المعدوم والمهدى له الكتاب حسين كامل المعدوم ومقطوع الرأس أما خامسنا فهو الكتاب ذاته المنهوب من أحد البيوت أو القصور التي انقلب الزمان على أهلها في العراق الذي مازال يدور ويدور في دوامة العنف والموت والانقلابات منذ خمسة آلاف سنة. (وللأسف تعرض شارع المتنبي في مارس الماضي لتفجيرات دموية راح ضحيتها العشرات واختلطت دماؤهم بحبر الكتب التاريخية والفريدة.. المحرر).

أخبرك يا بدر...
خرب المهربون قرية جيكور

في البصرة وبعد أن زرت بيت بدر شاكر السياب المهجور والمهمل في النسيان في بساتين أبي الخصيب جنوب البصرة ذهبت لقبر السياب الموجود قرب ضريح الحسن البصري بمقبرة الزبير بن العوام وأخبرته بأن المهربين قد أنشأوا ميناء للتهريب على شط العرب قريباً من جيكور القرية التي طالما تغنيت بها ونقلت صيتها لكل أنحاء العالم... فمعذرة يا بدر لا نستطيع أن ندعو أحداً لزيارة جيكور فكل شيء هناك يغرق في الخراب...

إذا أردنا أن نقدم الأدلة ونسوق الأمثلة على تواصل العنف الدموي فوق أرض الرافدين عبر قرون عديدة، فبإمكاننا أن نستعرض عدد المرات التي سقطت فيها مدينة بغداد أو تعرضت فيها للاحتلال منذ تأسيسها عام ٧٦٢ ميلادية وحتى سقوطها الأخير على يد الأمريكان في عام ٢٠٠٣ للميلاد رغم أن عمر مدينة بغداد منذ تأسيسها وحتى اليوم لا يزيد عن خمس المدة التي نريد أن نرصد فيها أحداث العنف الدموي في بلاد الرافدين والبالغة خمسة آلاف سنة.



إن مدينة بغداد التي أنشأها الخليفة المنصور عام ٧٦٢ م / ١٥٤ هـ قد سقطت إحدى وعشرين مرة وفي كل مرة تعاد فيها وعلى نحو متكرر ذات المشاهد والوقائع والمآسي والمصائب وتكاد كتب التاريخ تكرر ذات الكلمات والعبارات التي تصف الأحداث المحزنة والمشاهد فالروائح الكريهة المنبعثة من الجثث الآدمية المكدسة في الشوارع والأزقة والساحات والحرائق المشتعلة في جميع الأحياء وأعمال النهب والسلب والسطو المسلح تشاهد في كل مكان من المدينة، بينما الدمار والخراب يشمل المساكن والمنازل والمقرات الحكومية في الوقت الذي تتحول فيه المدينة إلى ساحة حقيقية للمعارك الطاحنة التي تسفر في نهاية الأمر عن منتصرين جدد يصرون على الانتقام والثأر وهم يبحثون عن رجال الحكم السابق وأتباعهم وأنصارهم السابقين الخائفين المنهزمين المختفين في بيوت المدينة وحاراتها وفي كل مرة عندما يجلجل صوت العنف والموت في أرجاء المدينة يغيب ويسكت فيها صوت الرحمة والشفقة والتسامح والتآخي... وتخصص الجوائز والمكافآت الثمينة لمن يدلي بمعلومات عن المختفين والهاربين الذين تطلب رؤوسهم. وفي ذات الوقت يشيع بين العامة الحماس والنشاط لارتكاب المظالم فتكثر الوشايات الكيدية وتنشط الإخباريات المغرضة من أجل التنكيل والاقتصاص من الهاربين المحسوبين على النظام السابق الذي يسمونه عادة بالنظام البائد وفي العراق اليوم هناك خمسة أنظمة يسمى كل واحد منها بالنظام البائد ابتداءً من النظام الملكي وانتهاءً بنظام الرئيس صدام حسين..

وخلال الفوضى والتغيير يجري في كل مرة نهب المؤسسات العامة وتدمير الكنوز والآثار والشواهد الثمينة.

إن هذه المشاهد وهذه الوصوفات قد تكررت أكثر من عشرين مرة في بغداد منذ تأسيسها.

ولعل من المفيد أن نذكر بأن سقوط بغداد على يد المغول بقيادة هولاكو لم يكن هو السقوط الأول بل هو السقوط الثاني حيث إنها سقطت في المرة الأولى على يد المأمون ابن الرشيد الذي كان ولياً للعهد ووالياً على خراسان وبعد أن استفحل الخلاف بينه وبين أخيه الأمين الذي أزاحه عن ولاية العهد زحف المأمون على المدينة بجيشين وطوقها من كل جانب وضربها بالمنجنيق وأقام الحرائق فيها ودام حصاره لبغداد مدة عام كامل وفي النهاية استسلم الخليفة الأمين وابن الرشيد أيضاً الذي كان بداخل المدينة وطلب مقابلة أخيه المأمون لعله يجد طريقاً للصلح، لكن قائد الجيش الذي كان يطوق بغداد طاهر بن الحسين رفض ذلك وقتل الأمين وقطع رأسه وأرسل الرأس للمأمون واجتاح المدينة فسقطت بغداد لأول مرة بقوة الجيش القادم من الخارج...

وكان ذلك عام ٨١٣ ميلادية أي قبل سقوطها على يد المغول والذي جرى عام ١٢٥٨م بأربعمائة وخمسة وأربعين عاماً... ثم توالت السقوطات حتى كان آخرها في عام ٢٠٠٣ للميلاد على يد الجيش الأمريكي ودول التحالف...

وهنالك مؤشر أو دليل آخر يؤكد تواصل منهج العنف الدموي في بلاد الرافدين ذلك هو أن الغالبية العظمى من حكام العراق قد ماتوا قتلاً ولم يموتوا موتاً طبيعياً أو على الفراش عدا بعض الاستثناءات القليلة النادرة. وهذا الأمر ينطبق على جميع الذين تولوا الحكم في بلاد الرافدين ابتداء من الحاكم السومري لوكال زاكيزي الذي حكم عام ٢٣٦٥ قبل الميلاد وحتى صدام حسين. كما أن جميع قادة المذاهب الإسلامية ورواة الحديث والشعراء والأدباء يتعرضون للعنف الدموي العراق. وفي صفحة محزنة من التاريخ العراقي يمكننا أن نرصد من خلالها ما تعرض له عدد كبير من قادة المذاهب الإسلامية والأئمة ورواة الحديث والشعراء والكتاب والأدباء من اضطهاد وتنكيل وقتل وسجن واغتيالات. ولعل ما يلفت النظر ويؤكد القناعة بشمولية منهج العنف في وادي الرافدين هو أن ذلك الاضطهاد والتنكيل وقطع الرقاب لم يقتصر على مذهب أو اتجاه أو رأي أو اجتهاد دون آخر بل شمل جميع المذاهب والاجتهادات على تباينها واختلافها ويمكننا أن نستشهد بمقتل الزبير بن العوام وطلحة في البصرة ومقتل الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة وجرح الإمام الحسن بن علي وتعرضه للتطاول والإهانة في الكوفة ومقتل الإمام الحسين بن علي في كربلاء ومقتل سعيد بن جبير في واسط وتعرض الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب للتهديد بالقتل في الكوفة ومقتل زيد بن علي بن الحسين مؤسس المذهب الزيدي وإرسال رأسه إلى الشام وصلب جثته بالكوفة وكذلك مقتل مصعب بالزبير وقطع رأسه في العراق ومقتل إبراهيم بن عبد الله وهو من أحفاد الإمام الحسن بن علي بالبصرة وإعدام الإمام أحمد بن نصر الخزاعي أبرز رواة الحديث في العصر العباسي...

أما قادة المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى المعروفون فقد تعرضوا جميعاً دون استثناء إلى صنوف الأذى والقهر والإذلال والإهانة والتعذيب ولم يسلم أحد منهم من ساطور العنف في العراق. فالإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير (٧٠٠ - ٧٦٧م) قد تعرض إلى الإهانة والجلد والحبس في العراق بأوامر من مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية لأنه رفض أن يتسلم منصب القضاء، كما أن المنصور العباسي وضعه في السجن حتى وفاته عام ٧٦٧م. أما الإمام مالك بن أنس الأصبحي (٧١٣ - ٧٩٥م) وهو مؤسس المذهب المالكي فقد أهين بالجلد والحبس أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لأنه أفتى بجواز الخروج على بيعة المنصور. أما الإمام الشافعي محمد بن إدريس الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠ م) وهو مؤسس المذهب الشافعي فقصته المثيرة تتلخص بما يلي: بعد القضاء على ثورة العلويين التي انطلقت في مكة أيام هارون الرشيد جيء بعدد من الأسرى وأحضروا أمام الرشيد فأمر بقطع رؤوسهم جميعاً غير أن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد طلب من الرشيد أن يعفي أحد هؤلاء المعتقلين قائلاً للخليفة: يا مولاي أتأذن لي بهذا؟! قال له: خذه، فأخرجه الفضل بين الربيع وأبعده جانباً ثم قطعت رؤوس الآخرين على الفور.. كان ذلك الرجل الذي استثناه الربيع من الإعدام في تلك اللحظة الحاسمة هو الإمام الشافعي..!! وبعد نجاته من ذلك المغطس الدموي العراقي هاجر الإمام الشافعي إلى مصر وعاش فيها حتى وفاته ودفن في الفسطاط وفيها قبره. أما الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥ م) وهو مؤسس المذهب الحنبلي وإمام المحدثين فقد أهين بالضرب والحبس أيام المعتصم بعد أن رفض القبول بنظرية خلق القرآن التي شاعت في العصر العباسي.

أما الشعراء فقد شملهم التنكيل والقتل في العراق على نطاق واسع وللاستشهاد نذكر من أولئك الشاعر طرفة بن العبد الذي قتله الملك عمر بن هند حاكم العراق في الحيرة قبل الإسلام والشاعر أعشى همدان الذي قتله الحجاج في الكوفة والشاعر الكميت بن زيد الأسدي الذي قتل في بلاط حاكم العراق يوسف بن عمر الثقفي في الكوفة في عهد الأمويين والشاعر سديف بن ميمون الذي قتل بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور والشاعر بشار بن برد الذي قتله الخليفة المهدي ثم بكى عليه بعد أن تأكد من براءته من تهمة الزندقة والشاعر أبو نخيلة الذي قتله عيسى بن مدي ولي عهد الخليفة المنصور والشاعر بن الرومي الذي قتله الوزير العباسي القاسم بن عبيد الله بالسم والشاعر صالح بن عبد القدوس الذي قتله هارون الرشيد والشاعر دعبل الخزاعي الذي هجا الخلفاء العباسيين فقتلوه والشاعر علي بن جبلة الذي قتله الخليفة المأمون بقطع لسانه من الحنجرة. والشاعر المتصوف الحسين بن منصور الحلاج الذي أعدمه الواثق بجلده ألف جلدة وقطع يديه ورجليه ثم قطع رأسه وإحراق

كانت خطواتي رتيبة ومتسارعة
بعض الشيء بسبب الخوف من انفجار
أو صدام مسلح أو رصاص ينطلق بسبب أو بدون
بسبب ليقتل أي شخص مبهم بدون سبب
وقد أكون أنا ذلك الشخص المبهم



جثته وإلقاء الرماد فى نهر دجلة، والشاعر المتنبى الذى قتل ونهبت أمواله وخيله وحاجياته والشاعر الفضل بن سهل وزير المأمون الذى اغتاله الخليفة المأمون ذاته والشاعر محمد بن عبد الملك الزيات الذى قتله المتوكل داخل تنور من حديد وإلى آخره.

أما الكتاب فتعرض عدد كبير منهم للقتل وقطع اللسان.

إن أولئك الذين ذكرناهم لم يعيشوا فى عصر واحد ولم ينتموا إلى مذهب واحد أو رأى أو موقف أو فكر واحد فأى عنف دموى شمولى يجلجل فى العراق ذلك العنف المتواصل الذى سحقهم جميعاً بعجلاته الشرسة التى لا ترحم؟ عبر كل تلك القرون.

وإضافة إلى ذلك فإن عدداً غير قليل من أولئك القادة والأئمة لم يسلم من الأذى والاعتداء حتى بعد مماته فقد روى أن جثمان الإمام على قد نقل من قبره إلى قبر آخر حتى لا يتعرف الخوارج على مكانه خوفاً أن ينبشوه ويعبثوا به: أما قبر الحسين بن على فقد هدمه الخليفة المتوكل بعد ما يقرب من مائة وسبعين عاماً من استشهاده.

أما قبر الإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير فقد هدم وخرب وأزيل من الوجود فى بغداد بعد وفاته بحوالى ثمانمائة وخمسين عاماً (٨٥٠ سنة) وكان ذلك فى عام ١٦٢٣ .

كما تعرض قبر الشيخ عبد القادر الكيلانى للهدم والتخريب والاعتداء وقد تم تحويله فى فترة من الفترات إلى إسطبل للحيوانات كذلك هدم قبر طلحة وقبر الزبير بن العوام فى البصرة فى القرن الثامن عشر للميلاد بعد أكثر من ألف عام على وفاتهما...

غير أن تلك القبور التى تعرضت للإهانة قد أعيد بناؤها وعلى نحو مبالغ فيه من التقدير والإجلال والتعظيم والاحترام وفى فترات متفاوتة أخرى من الزمن... فقد أعيد بناء تلك الأضرحة والقبور وأقيمت فوقها مراقد ومزارات فخمة عظيمة تعتبر من آيات الفن الإسلامى والهندسة المعمارية وصور فائقة للإبداع والزخرفة الهندسية فى العالم. إن عظمة المقامات الموجودة الآن فى العراق وفخامتها مثل مقام الإمام على بن أبى طالب فى النجف والإمام الحسين فى كربلاء ومقام أبى حنيفة النعمان والشيخ عبد القادر الكيلانى وموسى الكاظم فى بغداد ومقام طلحة والزبير بن العوام فى البصرة وغيرها كثير ما هى إلا شواهد تؤكد فى وجه من الوجوه صورة التناقض والازدواجية فى معالم الشخصية العراقية ببعدها الاجتماعى والنفسى والسلوكى تلك الشخصية المتسرعة المسرفة فى سيرها المتناقض نحو البغض والمحبة، نحو الانتقام والتسامح، نحو القسوة والرقة، نحو البخل والكرم، نحو الهدم والبناء، نحو الموالاة والرفض... وقد لخص الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى كل ذلك ببيته المشهور عندما قال:

تريك العراقى فى الحالتين
مسرفٌ فى شحه والندى

انعكاسات منهج العنف الدموى المتوارث على ثقافة الفرد العراقى وبنيته السلوكية المعاصرة

ما أصعب الكتابة تحت هذا العنوان وبالأخص على كاتب عراقى يريد أن يقول الحقيقة ويرفض أن يكتب فى الكذب والرياء والتدليس والدجل والعنجهية.

ولعل السعى نحو إيجاد المخرج والحلول اللازمة للمصائب الراهنة هو العذر والعزاء الذى يسوغ لنا التفتيش والتنقيب والكتابة فى طبيعة البنية النفسية والسلوكية والفكرية للفرد العراقى والتدقيق فى الجذور التاريخية لثقافته وآرائه ونزعاته بوضوح وبتشخيص محايد.

فإذا نحن اليوم دققنا فى سلوك الفرد العراقى المعاصر وفى بنيته النفسية بتبصر وحرص وموضوعية شديدة سنجد عدداً من المزايا الإيجابية الجيدة فى هذه الشخصية الإشكالية، مثل الكرم الفائق والطيبة والشجاعة والوضوح والجدية والقدرة الاستثنائية على إتقان المهارات الصعبة والفنون الحياتية الدقيقة والمعقدة، وكذلك البرعة فى تلقى واستيعاب الخبرة العالية فى الاختصاصات المهنية والعلمية والفكرية، إضافة إلى الصلابة وقوة الاحتمال والتماسك الذاتى أمام المحن والشدائد.

لكننا فى ذات الوقت سنجد بين تلك الصفات الجيدة والإيجابية صفتين سلبيتين بارزتين خطيرتين تلازمان وترافقان الإنسان العراقى فى سلوكه ويومياته وثقافته الاجتماعية والسياسية، وهما:

أولاً - صفة النزعة الفردية:

وتتمثل هذه الصفة بمجموعة من المفردات تجدها واضحة فى سلوك وتصرفات الفرد العراقى مثل التسرع الانفعالى المباشر فى رد الفعل، والتفرد فى اتخاذ القرار حتى فى القضايا المصيرية، الميل لانتهاج أسلوب المواجهة والتحدى عند امتلاكه وسائل القوة القاهرة، حدة فى الطبع وافتقاد المرونة وضعف القدرة على التواصل مع الفرقاء والعزوف عن الاستمرار فى التفاعل مع الآخرين عند ظهور بوادر ودلائل الخلاف والتباين معهم فى المواقف والآراء، الميل الفطرى والرغبة القهرية نحو التظاهر بالقوة والسطوة والغلبة عند تحقيق النجاح أو الانتصار، الميل الدائم لإظهار المبالغة فى الكرم الفردى وبالأخص فى الولائم الجماعية لاستجلاب الاهتمام وتكريس مظاهر الذات الفردية وتأكيد قوة ومكانة الذات الشخصية.

ثانياً . القسوة والميل للحسم بوسائل العنف الدموى:

وهى الصفة التى نطلقها تعويضاً عن مجموعة من المفردات المتفرقة والمعانى المختلفة فى المدلولات السلوكية التى تصادفنا فى تصرفات الفرد العراقى اليومية بشكل عام فهو فى الغالب ميال للحزم والحسم فى كل الأمور وبسبب ذلك فهو أقرب إلى حالة التذمر وعدم الرضى، كما أنه سريع الاستثارة، شديد الغضب، متطرف فى رد الفعل، ثأرى النزعة مع مبالغة فى الاقتصاص، يكره الحلول النصفية أو التوافقية ويراها من دلائل الضعف والميوعة، يفضل الحسم للوصول إلى النتائج ولو بمحصلة ضعيفة، واضح ومباشر فى عرض مطالبه ولا يجيد المناورة، وهو مفاوض غير بارع فى استحصال حقوقه بالوسائل السلمية لأنه قصير النفس فى الحوار والإقناع، وشديد التطير تجاه التحدى أو مواقف القهر والاستغفال الموجهة ضده وفى هذه الحالة يلجأ دون تردد للانتقام والعنف والاقتصاص الشرس والتنكيل المفرط، كما أن استعمال القوة والعنف بما فى ذلك العنف الدموى هو أفضل أشكال استرداد الحقوق لديه دون النظر إلى النتائج مهما كانت ولعله لا يتبصر بالعواقب ولا يهتم بها ولا يحسب لها حساباً حين لجوئه لاستخدام العنف، وعندما يستخدم العنف غير الضرورى وغير المبرر فإنه يوجد لنفسه المتعالية التبريرات والأعذار والدوافع الأخلاقية لتفسير سلوكه غير اللائق.

غير أننا لابد لنا من الإشارة أن هاتين الصفتين، صفة النزعة الفردية وصفة القسوة والميل للحسم بوسائل العنف الدموى قد لحقتا بالإنسان العراقى والتصقتا به كنتيجة للظروف الخارجة عن ذاته وإرادته بسبب التاريخ المشحون بالأحداث الدموية والمجازر المتواصلة على مدى قرون عديدة. لذلك فهما ليستا، فى الغالب، صفتين فطريتين فى طبعه، بل صفتان مكتسبتان دخيلتان عليه لكنهما طبعتا سلوكه العام بطابعهما ودخلتا فى بنيته النفسية والروحية بالتدريج بسبب تواصل تطبيق المنهج الدموى للدكتاتوريات الحاكمة المتعاقبة فى العراق. فالنزعة الفردية وصفة العنف الدموى هما الصفتان البارزتان اللتان كانتا أكثر حضوراً فى التاريخ العراقى على مدى خمسين قرناً، لذلك فإن الفرد العراقى ما دام ورث تلك الثقافة فهو تربة مناسبة وخصبة لنمو وظهور صفات ومعالم الشخصية الدكتاتورية ولعل العراقى المعاصر لا يعى هذه الحقيقة ولا يدركها ولا يعترف بها وربما ينكرها ويستغربها ويستبعدها عن ذاته لكنها

مدينة بغداد التى أنشأها الخليفة المنصور عام ٧٦٢ م / ١٥٤ هـ سقطت إحدى وعشرين مرة وفى كل مرة تعاد فيها وعلى نحو متكرر ذات المشاهد والوقائع والمآسى والمصائب

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

مدينة مسيحية

أبحرنا أربعين يومًا وصلنا فيها إلى ليفورن، وهى مدينة جديدة وهى دليل على عبقرية دوقات توسكانيا الذين جعلوا من قرية مملوءة بالمستنقعات أعظم مدن إيطاليا ازدهارًا.

والنساء فيها يتمتعن بحرية واسعة: إنهن يستطعن رؤية الرجال من خلال بعض النوافذ التى تسمى غَيْرات (Jalousies)؛ ويستطعن الخروج كل يوم مع بعض العجائز: ولا يضعن على وجوههن إلا قناعًا شفافًا (لا يستر ما وراءه سترًا تامًا) وإخوان أزواجهن وأعمامهن وأخوالهن والأحفاد يستطيعون رؤيتهن، دون أن يستنكر الزوج من ذلك شيئًا.

إنه لمشهد رائع أن يرى مسلم لأول مرة مدينة مسيحية. ولن أتحدث عن الأشياء التى تسترعى الانتباه كاختلافنا فى المبانى والملابس والعادات الأساسية: إن فى جميع ما أرى حتى فى التزهات شيئًا طريفًا يجعلنى أشعر شعورًا غريبًا لا أستطيع التعبير عنه.

سنرحل غدًا إلى مرسيليا، ولن نطيل فيها الإقامة. وخطتى أنا وريكا أن نتجه بلا توقف إلى باريس التى هى قاعدة الإمبراطورية الأوروبية.

إن المهاجرين يؤمون دائمًا المدن الكبيرة التى تعتبر كموطن عام لجميع الأجانب. وداعًا. وكن على يقين من أننى مقيم على حبك.

من ليفورن فى ١٢ من شهر صفر سنة ١٧١٢ .

التغيير الحاد فى المزاج والتقلب المفاجئ غير المتوقع فى المواقف والنزوع الدائم شبه القهرى نحو التمرد والانشقاق ونقض العهود والخوض فى وقائع حدثت وحصلت كثيراً فى التاريخ العراقى

تبدو مفروضة عليه عندما تنعكس عفوياً وتلقائياً وعلى نحو لا إرادى فى سلوكه وتصرفاته اليومية سواء على الصعيد الاجتماعى أو السياسى.

ولعل هذا الوصف والتحليل بما احتوى من قسوة أو شراسة يمكن أن يساعدنا على تفسير كل التصرفات والمواقف العامة أو الخاصة التى اتخذها ويتخذها العراقيون الحكام أو الأفراد أو الجماعات فى شتى المواضيع والمجالات فى الحاضر والماضى والتى بدت للكثيرين منا بأنها غريبة واستثنائية أو متناقضة وغير معقولة أو لعلها خارج المنطق والمألوف.

إن توارث مثل تلك الوصوفات المتنافرة واجتماعها فى شخصية واحدة لابد وأن يخلق منها شخصية إشكالية وازدواجية شرسة متمردة وحادة ومتقلبة المزاج ومثيرة للحيرة وطموحة جموحة فى أغلب الأحيان.

ما قيل فى العراق والعراقيين

وبناء على ما ذكرناه فى الفقرات السابقة فقد حيرت هذه الشخصية العراقية الإشكالية المزدوجة العنيدة الصعبة المستعصية المتقلبة الكثير من الحكام والقادة والملوك والخلفاء والأمراء والكتّاب والمفكرين والغزاة والمحتلين.. فعجزوا عن فهم هذه الشخصية أو ترويضها كما عجزوا عن تفسير الكثير من مواقفها السلوكية والنفسية المثيرة والمفاجئة، كما أخطأوا فى تقدير أو حساب الكثير من التوقعات والنتائج خصوصاً فى الأحداث الفاصلة أو خلال الانقسامات والانشقاقات والفتن.

فالتغيير الحاد فى المزاج والتقلب المفاجئ غير المتوقع فى المواقف والنزوع الدائم شبه القهرى نحو التمرد والانشقاق ونقض العهود والخوض فى السجالات والخلافات والانشغال فى الجزئيات وتسجيل المواقف والمزايدات فى الأوقات الحرجة الفاصلة هى وقائع حدثت وحصلت كثيراً فى التاريخ العراقى، وكان لها نتائج كارثية غيرت مسار الأحداث وأوقعت المصائب فى كثير من المرات.. والمجال لا يتسع هنا لاستعراض العشرات وربما المئات من تلك الوقائع المثيرة والصادمة، لكننا لابد لنا من الاستشهاد ببعضها لكى لا نبقى فى العموميات وفى الإطلاق العام للأحكام غير المفسَّرة وغير المحددة. وسنقتطع هنا حيزاً صغيراً لنذكر فيه بعض الشواهد بتركيز مشدد لعلنا نستوفى توضيح الفكرة التى تحدثنا عنها فى السطور السابقة وسنختار الشواهد دون ترتيب زمنى أو عقائدى...

ففى حرب صفين التى تواجه فيها جيشان، جيش معاوية وجيش أهل العراق بقيادة الإمام على بن أبى طالب وعند وقوع خديعة التحكيم التى أدارها معاوية وعمرو بن العاص بدهاء وكفاءة عالية انقسم جيش الإمام على على نفسه فوراً وتوزع إلى كتل وشيع وأحزاب وفرق متناحرة ودخلوا فى سجالات ونقاشات فكرية وبيزنطية عقيمة فاستعصى على الإمام على جمع كلمتهم أو توحيد صفوفهم بأى حال من الأحوال وتدهورت الأمور إلى أسوأ الحالات بسبب المبالغة والغلو حتى اضطر الإمام إلى مقاتلة بعض المنشقين من جيشه من أهل العراق.. وكانت النتيجة فيما بعد اغتيال الإمام على ذاته فى الكوفة وإذا أردنا الاستشهاد بما عاناه الإمام على من أهل العراق فإن علينا أن نستذكر بعض أقواله فى خطبه الكثيرة المشحونة بالغضب والتقريع والأحكام القاسية بحق أتباعه من أهل العراق الذين أتعبوه وخذلوه بعنادهم وفرقتهم وتشتتهم حتى تمنى لو لم يرهم ولم يعرفهم حيث يقول فى إحدى خطبه «لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سقماً، قاتلكم الله لقد شحنتم صدرى غيظاً وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان».

أما موقف أهل العراق من تحرك الإمام الحسين وسلوكهم المتناقض والمتقلب تجاهه إنما يمثل ويؤكد مشهد الشخصية المتقلبة المزدوجة فقد نقضوا عهودهم له ورفضوا الوقوف معه أو مناصرتهم له فوجد نفسه محاصرا



ومطوقاً عندما وصل إلى العراق، ولم يجد معيناً أو ناصراً.. وبقية القصة معروفة...

أما ما حصل لمصعب بن الزبير في العراق في عام ٦٩٣ ميلادية فلا يخرج كثيراً عما حصل للإمام الحسين وحين وصل خبر مقتله وقطع رأسه إلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة خطب في الناس وقال: «وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعواني، إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل ثمن».

كذلك فإن ما حصل لزيد بن علي بن الحسين إمام المذهب الزيدي لا يخرج عن هذا الإطار ولا يختلف عن هذه الدلالات حين استجاب لإصرار وإلحاح أهل الكوفة عليه بإعلان الثورة وحين أعلن الثورة وبدأ الصدام مع الجيش الأموي بقيادة يوسف بن عمر تفرقوا عنه وكانت النتيجة مقتله وقطع رأسه...

وقد أثارت النزعة المتناقضة في الشخصية العراقية تعجب واستغراب الصحابي عبد الله بن عمر حيث تشير الرواية المنقولة عن الترمذي: «أن رجلاً من أهل العراق سأل ابن عمر عن (حكم) دم البرغوث يصيب الثوب فقال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق يسألون عن (حكم) دم البرغوث وقد قتلوا ابن بنت محمد صلى الله عليه وسلم».

والتاريخ العراقي القديم والحديث يعج بمثل هذه الأحداث التي تصب في هذا الاتجاه وفي العصر الحديث فقد استعصى سلوك التقلب السياسي الحاد في مواقف السياسيين العراقيين على الكثيرين من الأجانب فأصيبت العثمانيون بالذهول من تلك المواقف خلال الحملة الإنكليزية لاحتلال العراق عام ١٩١٤، كما سبب ذلك الحيرة والاستغراب أيضاً لدى الدبلوماسية البريطانية السيدة (مس بيل) التي رافقت الحملة وكانت مستشارة للحاكم البريطاني فسألت الملك فيصل الأول مستفسرة عن أسباب هذا السلوك المتناقض الذي تشهده يومياً عند السياسيين العراقيين الذين لا يستقرون على موقف سياسي واحد.

وإذا أردنا الاستشهاد بما جرى للرئيس العراقي السابق صدام حسين فبإمكاننا أن نقول بأن من أوشى به ودل على مكان وجوده هو أقرب المقربين إليه. بينما كان قابعاً في تلك الحفرة التي ربما يعجز حتى إبليس عن اكتشافها...

وأخيرا وعلى الرغم من كل ما قلناه وما سمعناه وما عرفناه، وما قاله ويقوله ويعرفه الآخرون عن الشأن العراقي فإن عوامل تقدم ونهوض هذه البلاد العظيمة بشعبها العريق مازالت قائمة وموجودة..

غير أن ذلك لا يمكن أن يتحقق دون القيام بعملية تثقيف متيجية كبرى تشمل جميع أهل البلاد من أجل تغيير الثقافة الدكتاتورية المتوارثة والمعشعشة في أعماق الفكر المخزون في العقل العراقي.

كذلك فإن عوامل وإمكانية توفير الثراء والرخاء والتقدم والسعادة والحرية للشعب العراقي موجودة ومتوفرة من خلال وجود الثروات الهائلة المتعددة المصادر في العراق ومن خلال التاريخ الحضاري ليس في رفع المستوى المعاشي والاقتصادي والحياتي لشعب العراق فحسب بل في تغيير الثقافة السلوكية والنفسية والاجتماعية للفرد العراقي خصوصا إذا ترافقت ببرنامج منهجي للإصلاح الاجتماعي والنفسي مع أهمية توفير الاستقرار السياسي لفترة معقولة وتوفير الحريات الحقيقية غير المستنسخة وغير الموجهة لا أمنيا ولا حكومياً، وإضافة إلى كل ذلك بل أهم من كل ذلك إقامة سلطة القانون والعدل التي يمكنها أن تفتح المجال وتعطي الفرصة لملايين الزهور المعطرة أن تتفتح وتنمو وتنشر عطرها وجمالها في كل اتجاه.

كما أن الأصالة العريقة والتراث الحضاري الهائل لهذه البلاد سيشكلان أساساً متيناً لأي نجاح يمكن أن يحققه الشعب والمجتمع العراقي المجاهد.

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

الفرنسيون

لقد حللنا بباريس منذ شهر، كنا فيه في حركة دائبة. فالمرء قبل أن يسكن في حاجة إلى إعداد تام، وإلى أن يجد الناس الذين يتجه إليهم، وإلى أن يؤثث مسكنه بالأشياء الضرورية التي يحتاج إليها دائمًا.

باريس كبيرة كإصطفهان، فالمنازل فيها عالية إلى درجة أن الناس يحلفون أنها لم تعمر إلا بالفلكيين. ومن السهل أن تدرك أن مدينة مبنية في الهواء، فيها ستة بيوت أو سبعة بعضها فوق بعض، غصت بالسكان، إذا خرج جميع سكانها في الشارع فإنه يضيق بهم.

قد لا تصدقني في ذلك، فمنذ شهر من وجودي هنا: كنت لا أجد أحدًا يسير في المدينة. ليس في الدنيا أناس يستغلون أجسامهم كالفرنسيين، إنهم يجرون، بل يطيرون. فعربات آسيا البطيئة، وخطى جمالنا المنتظمة، تصيبهم بدوار. وأنا الذي لم أتعود مطلقًا هذا الانطلاق، أغدو وأروح على قدمي دون أن أغير مشيتي، أنطلق أحيانًا كما ينطلق المسيحي فلا أكاد أسير حتى أتلطخ من رأسي إلى قدمي، ولا أستطيع أن أغفر ما ينالني من ضربات الأذرع المتتالية بانتظام. وحدث أن رجلاً كان آتيًا من ورائي، فصدمني صدمة أدارتني نصف دائرة. وصدمني آخر من الناحية الأخرى فأوقعني فجأة حيث صدمني الأول. ولم أسر إلا مائة خطوة حتى تحطمت كأني سرت عشرة فراسخ.

عن باريس في ٤ من ربيع الآخر سنة ١٧١٢

خرافة المزايا النسبية

صلاح العمروسي

※ تعانى الأغلبية الساحقة من البلدان النامية (عدا دول النمور الآسيوية، والصين، وعدد آخر من البلدان الصناعية الجديدة) من ضعف حاد فى معدلات النمو، وفى المحل الأول فى معدلات النمو الصناعى، وذلك على مدى ما يقرب من ربع القرن.

وهذه فترة طويلة كانت كفيلة فى حالات أخرى، كما فى كوريا وتايوان بشكل خاص، بتجاوز كبير لعوامل التخلف وردم جانب كبير من الفجوة بينها وبين البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة، أو التحول إلى مصاف البلدان الصناعية الجديدة.

ويكفى ان نذكر أن البلدان منخفضة ومتوسطة الدخل معا (التى تندرج فيها الأغلبية الساحقة من البلدان النامية) لم يتجاوز معدل نمو الصناعة (التى من المفترض أن تمثل القطاع الأكثر ديناميكية فى الاقتصاد) ٦.٣٪ فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات وحتى بداية القرن الحالى.

ولم تكن المؤشرات فى مصر أحسن حالا من ذلك المتوسط العام حيث لم تحقق الصناعة فى العقدين المذكورين سوى ٣.٣٪، ٦.٤٪ على التوالى.

وتتضح كم هى فداحة الفرصة الضائعة الناجمة عن ذلك الأداء الفاشل، من المقارنة مع الأداء الناجح، بشكل ملفت للنظر، لبلدان شرق آسيا التى حققت نموا صناعيا عاليا وصل إلى ٨.٤٪، ١٠.١٪ فى العقدين المذكورين، ولكن الأداء الصينى كان أكثر لفتا للنظر، حيث وصل إلى ١١.١٪، ١٣.١٪ على التوالى (جميع البيانات السابقة مأخوذة من مؤشرات التنمية العالمية World Development Indicators WDI) الصادر عن البنك الدولى).

وبالطبع لا يقتصر الأمر على تلك المعدلات الكمية، فهذه المعدلات لم تكن لتتحقق لولا التحولات النوعية فى تطور الصناعة المحلية، التى تشمل اكتساب قدرات محلية تكنولوجية وعلمية ومعرفية فى سياق التطوير النوعى للهيكل الصناعى من الصناعات الاستهلاكية والخفيفة إلى الصناعات الثقيلة لإنتاج السلع الوسيطة والرأسمالية (أى صناعة الآلات والمصانع).

وهذه الصناعات الأخيرة يطلق عليها الصناعات القاعدية لأنها تمكن الصناعة فى أى بلد من النهوض والتطور على أقدامها الخاصة، ومن ثم التحول إلى ما يسمى البلدان الصناعية الجديدة.

ويلاحظ أن نزعات الاكتفاء الذاتى حينما أحاطت بتجارب التطوير النوعى للهيكل الصناعى والقدرات التكنولوجية قد أضرت فى التحليل الأخير بمحاولات التطوير نفسها، حيث أدت إلى تخلف فى المستوى التكنولوجى عن المستويات العالمية.

ومن هنا ضرورة الاستمرار فى التفاعل الإيجابى مع منجزات البلدان الصناعية الأخرى، لاسيما الأكثر تقدما ورسوخا. ويلاحظ أن هناك بلدانا أخرى مثل الهند والبرازيل والمكسيك الخ. اتجهت نفس الوجهة نحو التحول الى بلدان صناعية جديدة وذلك على الرغم من أن منجزاتها كميا ونوعيا كانت أقل زخما عن بلدان شرق آسيا والصين.

وفى المقابل، فإن البلدان العربية والأفريقية، مع بلدان نامية أخرى، تعتبر الأسوأ أداء فى العالم فى مضمار التطور الصناعى، والتى يمكن تصنيف أغلبيتها الساحقة بين ما يسمى «العالم الرابع».

ويكاد يكون هناك إجماع من الدارسين غير المتحيزين على أن الأداء الصناعى والتنموى الناجح فى الأغلبية الساحقة من قصص النجاح الآسيوية، على خلاف مزاعم الاقتصاديين النيوكلاسيك والبنك والصندوق الدوليين، يرجع إلى تدخل الدولة فى الاقتصاد، والذى اتخذ تاريخيا أشكالا عديدة.

وفى المقابل ارتبط الأداء الصناعى الفاشل فى البلدان النامية المشار إليها، بانسحاب الدولة من قيادة التنمية وترك الأمر برمته إلى يد السوق الخفية، وذلك وفقا لبرامج التكيف الهيكلى التى فرضها البنك والصندوق الدوليان على مختلف بلدان العالم النامى.

وتنطلق تلك البرامج من الاعتقاد بأن التجارة الحرة هى محرك النمو لكل البلدان سواء كانت بلدانا متخلفة أو متقدمة، ومن ثم فإن الآليات العفوية للسوق العالمية، أى يد السوق الخفية، هى التى تحدد خصائص التخصص العالمى، الذى يحدد لكل بلد ما ينتجه، أى دوره فى تقسيم العمل الدولى وفقا لنظرية «المزايا النسبية».

وحول هذه النظرية يدور هذا المقال، من أجل إيضاح أن منطقها الداخلى ينطوى على ذلك الفشل الصناعى، أو بعبارة أخرى لم ينجم ذلك عن مجرد أسباب عملية أو عن رداءة الأداء، وإنما نشأ عن أسباب تتعلق بالسياسة الاقتصادية وأسسها النظرية.

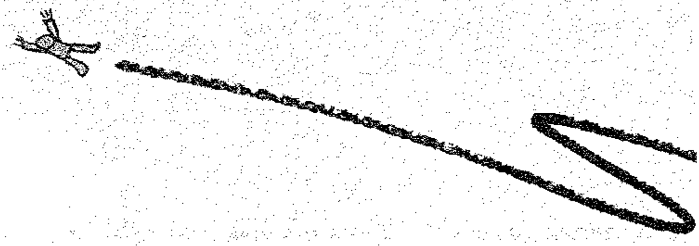
بين المطلق والنسبى

ترجع نظرية المزايا النسبية comparative advantages، فى صياغتها الأولى إلى الاقتصادى الكلاسيكى الشهير ديفيد ريكاردو، قبل أن يدخل عليها اقتصاديو مدرسة النيوكلاسيك تطويرات لاحقة.

وقد يتصور البعض أن تلك النظرية بتعديلاتها تعبر عن حقيقة لا يطولها الشك، على حين أننا لسنا سوى إزاء نظرية من النظريات، بل لعلها تمثل وجهة نظر أيديولوجية تزيف الواقع بأكثر مما تظهر أو تكشف علاقاته الحقيقية، حيث تؤدى إلى تقنيع المصالح التوسعية للرأسمالية المتقدمة التى تستهدف السيطرة على الاقتصاد العالمى.

وكثيرا ما يجرى الخلط بينها وبين نظرية أخرى، أقدم منها، وتتناقض معها فى جانب من جوانبها، ونعنى بها نظرية المزايا المطلقة absolute advantages وهى ترجع إلى آدم سميث الذى ينتمى إلى نفس مدرسة الاقتصاد الكلاسيكى.

وعلى الرغم من أن نظرية المزايا المطلقة، مثلها مثل المزايا النسبية، تروج



وتدافع عن التجارة الحرة باعتبارها محرك النمو، إلا أنها على ما يبدو لم تكن قادرة على تقديم تبرير ملائم لميول السيطرة والهيمنة مثلما فعلت لاحقتها.

لهذا تبنى منظرو النيوكلاسيك نظرية ريكاردو في المزايا النسبية، وأدخلوا عليها تطويرات في نفس الاتجاه، على حين تجاهلوا نظرية المزايا المطلقة، وتحدثوا عن أن آدم سميث ليس منظرا كبيرا للتجارة الخارجية.

تنطلق نظرية المزايا المطلقة، من افتراض أن نظرية القيمة/ العمل تنطبق على السوق العالمية بمثل ما تنطبق على السوق الداخلية، لهذا فهي ترى أن تقسيم العمل الدولي والتخصص العالمي، ومن ثم التجارة الدولية، تقوم على التفوق المطلق لكل بلد في سلع بعينها على سائر بلدان العالم.

فطالما يتمتع بلد ما بتفوق مطلق في الإنتاجية في سلعة بعينها، فإنه سيكون قادرا على إزاحة البلدان الأدنى إنتاجية من السوق العالمية في ظل سيادة حرية التجارة.

ويؤدي مثل ذلك التخصص العالمي، القائم على تلك الأسس، إلى فائدة متبادلة لكل الأطراف المشتركة في السوق العالمية، حيث إن كل بلد سينفق وقت العمل بفعالية قصوى، وسيوفر الوقت الذي كان يهدر في إنتاج سلع بفعالية متدنية، ومن ثم يوجهها إلى إنتاج المزيد من السلع التي يتفوق فيها، ومن ثم تكون أرخص.

وهكذا متى سادت حرية التجارة فإنه سينشأ تخصص عالمي يتوافق مع تلك المزايا المطلقة لكل بلد، وفي مثل هذه الحالة سينتج كل بلد، ومجموع البلدان بالتالي، سلعا أكثر وأرخص مما كان ينتج قبل التخصص الذي خلقته حرية التجارة.

وتعاني نظرية المزايا المطلقة، مثلها مثل المزايا النسبية، من المنهج السكوني، حيث إنها لم تراع تغير الشروط في المستقبل، وعلى رأسها التطورات التكنولوجية التي من شأنها أن تغير المزايا المطلقة لكل بلد. ومع ذلك، يبدو أن تلك النظرية تفترض أن تقسيم العمل الدولي يقوم بين أنداد في المستوى العام للإنتاجية مادام كل بلد يجد ما يتفوق به على الآخر في هذه السلعة أو تلك.

نظرية المزايا النسبية

أما نظرية المزايا المقارنة (أو النسبية) فهي تنطلق أولا من أن السوق العالمية لا تخضع لتطبيق نظرية القيمة التي ينحصر عملها في السوق الداخلية فقط، وذلك بسبب عدم حركية رأس المال والعمل على الصعيد العالمي.

كما تنطلق أيضا من افتراض مناقض تماما، أي من بلدان غير متساوية في المستوى العام للإنتاجية، بعضها متفوق بشكل مطلق والبعض الآخر يعاني من القصور بشكل مطلق، أي تركز هنا على تقسيم العمل العالمي، أو التخصص العالمي، بين ما أصبح يعرف اليوم البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة.

ويتمثل الجوهر الأساسي لتلك النظرية في أنها ترى أن بالبلدان المتخلفة يمكن أن تملك ميزة تنافسية في بعض السلع، ومن ثم تزيح البلدان المتقدمة من السوق العالمية في مثل تلك السلع، على الرغم من أن البلدان المتقدمة يمكن أن تنتج نفس تلك السلع بإنتاجية أعلى، ومن ثم تكلفة أرخص.

فكيف تجري البرهنة على تلك النتيجة التي تبدو مناقضة لطبيعة الأشياء؟. الحقيقة أن تلك البرهنة هي إلى حد ما معقدة ومتكلفة sophisticated، سنحاول تبسيطها قدر الإمكان:

افترض ريكاردو نموذجا من بلدين (البرتغال وإنجلترا) وسلعتين (الخمر والقماش)، وافترض أيضا أن البرتغال متفوقة (يلاحظ أن تلك افتراضات، ولا يغير من الأمر شيئا أن إنجلترا هي على العكس المتفوقة في الواقع) في كلتا السلعتين بشكل مطلق على إنجلترا (تكلفة الوحدة معبرا عنها بوقت العمل أو تعبيره النقدي، في البرتغال ٨٠ للخمر، ٩٠ للقماش، وفي إنجلترا ١٢٠، ١٠٠ على التوالي).

وتقوم المزايا النسبية على التمايز الداخلي في صناعة كل بلد. حيث يكون كل بلد أكثر تفوقا في سلعة قياسا إلى السلعة الأخرى.

بعبارة أخرى في المزايا المطلقة تكون هناك تمايزات بين البلدان في هذه السلعة أو تلك، أما في المزايا النسبية فتكون التمايزات بين السلع في داخل البلد الواحد.

فإنتاجية البرتغال أفضل في الخمر قياسا إلى إنتاجيتها هي من القماش (تكلفة وحدة الخمر ٨٠ مقابل ٩٠ لوحدة القماش)، على حين أن إنتاجية إنجلترا في القماش أفضل قياسا إلى إنتاجيتها هي من الخمر (١٠٠ مقابل ١٢٠)، وبهذا المعنى يمكن أن نتحدث عن أن البرتغال تملك ميزة نسبية في الخمر، وأن إنجلترا تملك ميزة نسبية في القماش، على الرغم من أنها لا تزال أدنى من البرتغال.

وسوف يكون من النافع للبلدين أن يتخصص كل بلد في السلعة التي ينتجها بشكل أكثر إنتاجية، ومن ثم يستورد السلعة الأخرى، التي يحول الوقت المخصص لها إلى إنتاج كمية أكبر من سلعة التخصص.

وعلى ذلك سوف ينتج البلدان بعد التخصص بنفس التكلفة كمية أكبر مما كانا ينتجانه من السلعتين قبل التخصص، ومن ثم تكون أرخص.

ويوجه النقد لتلك النهاية السعيدة للقصة انطلاقا من أنها تعبر عن منافع الحالة الساكنة، ومن ثم لا تشجع أو تحرم البلد المتخلف من التطور التكنولوجي، أي البحث عن منافع أخرى أكثر اتساعا وشمولا. ومع ذلك فتلك الحالة الساكنة نفسها يحوطها الشك أيضا.

تأثير النقود

التخصص العالمي المرتبط بتلك الحالة الساكنة وما يرتبط به من منافع مزعومة، لن يتحقق مباشرة نتيجة للمحاكمة العقلانية للرأسماليين في البلدين، فلما كان البلد المتخلف، إنجلترا في مثالنا السابق، ينتج القماش بتكلفة أعلى من التكلفة التي ينتج بها في البلد المتقدم، أي البرتغال (١٠٠ مقابل ٩٠).

لهذا لابد أولا أن يعرض بسعر أرخص، أي تحويل القصور في الإنتاجية disadvantage of productivity إلى ميزة في السعر advantage of price. وحتى يتحقق ذلك تخلى ريكاردو عن نظرية القيمة - العمل وقام بتطبيق النظرية الكمية في النقود على التبادل في السوق العالمية. ففي البداية سوف يصدر البلد المتقدم (البرتغال) السلعتين، بحكم تفوقه فيهما الاثنتين، إلى البلد المتخلف (إنجلترا).

ويؤدي ذلك إلى تدفق عكسي للنقود من إنجلترا إلى البرتغال، ونتيجة لذلك يحدث تأثير تضخمي inflationary في البرتغال يرفع المستوى العام للأسعار، على حين يحدث على العكس تأثير انكماشي deflationary في إنجلترا يخفض المستوى العام للأسعار، وذلك حتى الوصول إلى نقطة يصبح فيها القماش أرخص في إنجلترا عن البرتغال.

ومن ثم تصدر إنجلترا القماش إلى البرتغال، ليتحقق التوازن في النهاية من خلال تخصص إنجلترا في القماش والبرتغال في الخمر.

ولكن تلك النظرة الكمية في النقود والآلية السحرية التي تنطلق منها، التي تحول بلدا لا يملك ميزة تنافسية في إنتاجية إحدى السلع إلى بلد يملك ميزة تنافسية سعرية. تعاني من نقطة ضعف أساسية، وهي أنها لا تضع في حسبانها أن النقود التي تتدفق من بلد إلى آخر نتيجة للتجارة الخارجية لا تظل بالضرورة في مجال التداول كوسيلة تبادل، حيث يمكن أن تسحب منه بغرض الاكتناز أو بغرض التحول إلى رأس مال.

ومن ثم لا يحدث بالضرورة التأثيران التضخمي والانكماشي المشار إليهما.

وبطبيعة الحال يمكن لبلد منخفض الإنتاجية أن ينافس بلدا مرتفع الإنتاجية من خلال انخفاض مستوى الأجور، أي أن الأجور المنخفضة يمكن أن تعوض انخفاض الإنتاجية.

ولكن ذلك يحدث بصفة مؤقتة فقط، ذلك أن الإنتاجية لا تتوقف عن النمو نتيجة للتحسينات التكنولوجية المستمرة، التي من شأنها أن تبطل ميزة انخفاض الأجور، اللهم إلا إذا تعرضت الأجور إلى ضغط متواصل لتخفيض جديد في الأجور وبمعدلات تكفي لتعويض التقدم التكنولوجي.

وهو حل شبه مستحيل، بل على العكس هو الصحيح، حيث ستنشأ مع توسع النشاط الصناعي حركة عمالية تطالب بتحسين الأجور.

قد أدخل الاقتصاديون النيوكلاسيك (هيكشر - أولن Heckscher - Ohlin) تعديلات مهمة على نظرية ريكاردو السابقة، ومن المعروف أنهم يستبعدون نظريته في القيمة التي تنظم أسعار السلع في السوق الداخلية، بعد أن استبعد هو نفسه تطبيقها على السوق العالمية.

وعلى حين افترض ريكاردو وجود تباينات في التكنيك، ومن ثم في الإنتاجية بين البلدان، افترضوا أن التباينات في مستوى التكنيك قائمة بين السلع أيا كان البلد الذي تنتج فيه، وافترضوا أيضا وجود فوارق عالية في المواهب الطبيعية في عوامل الإنتاج factor endowments، حيث يكون لكل بلد عند نقطة معينة من الزمن رصيد مختلف من العمل ورأس المال.

ومن خلال ما يسمى بدالة الإنتاج production function يمكن أن تنشأ توليفات مختلفة من كثافة العمل أو رأس المال التي تقوم على أساسها المزايا المقارنة. وعلى ذلك فالبلدان المتقدمة التي تتمتع بوفرة رأس المال وندرة العمل تتخصص في السلع كثيفة رأس المال، أما البلدان المتخلفة التي تتمتع على العكس بوفرة العمل وندرة رأس المال، فإنها تتخصص في السلع كثيفة العمالة.

ويمكن أن تنشأ تدرجات فيما بين هذين الطرفين الأقصيين. ويسمح ذلك بتحديد أسعار السلع بتكلفة عوامل الإنتاج من العمل ورأس المال، ويجري تحقيق «المزايا النسبية» لأي بلد من خلال تكيف مستويات الأجور والأسعار وأسعار الصرف. ويلعب سعر الصرف هنا دورا مشابها لحركة النقود المعاكسة لحركة السلع في التجارة الخارجية عند ريكاردو. أي إحداث تغيير في مستوى الأسعار من أجل استعادة التنافسية دون أي تغيير في مستوى الإنتاجية.

وهذه الصيغة تعاني من نفس المنهج السكوني، على الرغم من الادعاء بعكس ذلك كما سنرى، كما تعاني أيضا من نفس قصور النظرية الكمية في النقود التي تتصدى لتحسين القدرة التنافسية من خلال التأثير في مستوى الأسعار من خلال سعر الصرف.

وأخيرا تقوم دالة الإنتاج نفسها على افتراضات منقولة من دالة الاستهلاك، التي قد تصلح على مجال الاستهلاك لكن لا تصلح للتطبيق على مجال الإنتاج.

ومن ثم تعالج رأس المال المناظر لكل وحدة من العمل مجرد معالجة كمية (تلك التي قد تصلح على الاستهلاك) مع إغفال البعد النوعي في المعدات الرأسمالية العينية التي لا يمكن ببساطة تكوين بدائل لها على أساس كمي (فكما يستحيل تجزئة الآلات كذلك يستحيل تجزئة رأس المال المعبر عنها). وفضلا عن ذلك إغفال عدم إمكانية الفصل بين العمل ورأس المال، حيث لا يدخل أي منهما عملية الإنتاج مستقلا عن الآخر.

على أية حال تسمح الصيغة الجديدة لنظرية «المزايا المقارنة» بمحاولة ما لتفادي النقد الذي يصفها بالسكونية. فقد حاول بعض منظري النيوكلاسيك إدخال عنصر ديناميكي فيها من خلال فكرة «مقاربة المراحل في المزايا النسبية» stages approach to comparative advantages.

وقد أخذت اليابان مثالا على ذلك، حيث تحولت من الصادرات كثيفة العمالة غير الماهرة إلى الصادرات كثيفة العمالة الماهرة وكثيفة رأس المال الفيزيائي، ثم التوسع المتزايد في الصادرات كثيفة التكنولوجيا.

أما ما يحدد التغير من مرحلة إلى أخرى، فهو تلقائية السوق العالمية، أو اليد الخفية لتلك السوق. وقد لاحظ النقاد أن «مقاربة المراحل» تلك تمثل فكرة ديناميكية فقط حينما تأخذ التغير الزمني في عين الاعتبار، لكن تظل أسس النظرية بلا مساس، تلك التي تقوم على منهج سكوني عند قياس «المزايا النسبية» لكل مرحلة، أي عند نقطة معينة من الزمن.

اليابان مثالاً

والحقيقة أن المراحل المذكورة لا تتطابق مع تطور الاقتصاد الياباني إلا من حيث الظاهر فقط، فهي توجه النظر إلى تطور هيكل الصادرات فقط، لا إلى بنية الاقتصاد الياباني، وبالتحديد بنية الصناعة، وكيف تطورت ثم كيف انعكست في النهاية في هيكل الصادرات. فأولا لم تتطور بنية الصناعة اليابانية من خلال الآلية التلقائية ليد السوق الخفية، وإنما من خلال تدخل الدولة المباشر.

وثانيا تطورت بشكل مناقض تماما لمنطق التعاقب الخطي لتلك المراحل. فوفقا لهذا المنطق تتوافق بنية الصناعة مع المزايا النسبية الثابتة في كل مرحلة، ولا تنتقل إلى مرحلة لاحقة إلا بعد أن تكون قد حدث تحول عضوي في تركيبة الوفرة والندرة لعوامل الإنتاج (العمل ورأس المال). ولكن السياسة الصناعية لوزارة التجارة والصناعة اليابانية كانت مخالفة تماما لهذا المنطق.

ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت بنية الصناعة اليابانية، ومن ثم بنية الصادرات، تتكون من النسيج والصناعات الخفيفة. وفي نفس الوقت كانت لا تزال هناك وفرة من العمل الرخيص في ذلك الوقت، ومن ثم فوفقا لمنطق «المزايا النسبية» كان يجب الاستمرار في إطار تلك البنية حتى تتحول عوامل الإنتاج من وفرة العمل إلى وفرة رأس المال.

لكن وزارة التجارة والصناعة اليابانية رأت أن تلك البنية غير قابلة للحياة على المدى الطويل. فقررت، وفقا لشهادة نائب وزير في وزارة التجارة اليابانية، أن تقيم الصناعات التي تتطلب توظيفا كثيفا لرأس المال والتكنولوجيا. في وقت كانت فيه وفرة في العمل. أي أقامت صناعات مناقضة تماما لمنطق «المزايا النسبية»، وذلك مثل صناعات الصلب، وتكرير البترول، والبتروكيماويات، والسيارات، والطائرات والآلات الصناعية من جميع الأنواع، والإلكترونيات شاملة الحاسبات.

وعلى النقيض من المقولة التي ترى أن الصناعات كثيفة العمل هي التي تكون قادرة على خلق الوظائف على نطاق شامل، فإن التجربة أثبتت أنه كان من الصعب توظيف ١٠٠ مليون من السكان ورفع مستوى معيشتهم إلى المستوى الأوروبي والأمريكي من خلال الصناعات الخفيفة وحدها، حيث لعبت الصناعات الاستراتيجية كثيفة رأس المال والتكنولوجيا دورا حاسما في ذلك المجال.

وكما أنه في المجال العسكري يكمن سر الاستراتيجية الصحيحة في تركيز القوة المحاربة على أرض المعركة الرئيسية، فقد ركزت اليابان رأسمالها الضئيل في الصناعات الاستراتيجية. ويمكن أن نضيف هنا أن تلك الصناعات الاستراتيجية بإنتاجيتها العالية كانت وراء رفع معدلات الادخار، ومن ثم الاستثمار، التي تؤدي إلى توسيع نطاق الاقتصاد بما في ذلك الصناعات الخفيفة، ومن ثم القدرة الشاملة للهيكل الصناعي ككل على خلق الوظائف.

وقد اتبعت كوريا الجنوبية نفس المنطق في سياستها الصناعية، أي منطق خرق قانون «المزايا النسبية»، فقررت في السبعينيات، أي في الوقت الذي كانت تتمتع فيه بفائض هائل في العمالة.

ومن ثم تكون الصناعات القائمة (المنسوجات وغيرها من الصناعات الخفيفة هي المرشحة للاستمرار وفقا لنظرية المزايا النسبية) تنفيذ خطة الصناعات الثقيلة والكيماوية (الصلب، المعادن غير الحديدية، البتروكيماويات، السفن، الإلكترونيات، الآلات).

وهذه الخطة التي نفذت بدعم حكومي هائل، أو حتى ملكية الدولة لبعضها هي التي أرست أسس الثورة الصناعية في كوريا، والتي بدونها ما كان من الممكن الحديث عما يسمى «المعجزة الآسيوية» في كوريا.

وفي المقابل، ووجهت تلك الخطة بمقاومة من مؤسسات التمويل الدولية، التي تعمل بذهنية مدرسة الاقتصاد النيوكلاسيكي. فقد رفض البنك الدولي وكونسرتيوم المشروعات الأوروبية تمويل إقامة إحدى

الصناعات الثقيلة، وهي صناعة الصلب التي أسست من أجلها شركة بوسكو POSCO الحكومية. ووصفت بعثة البنك في السبعينيات المشروع بأنه «غير ناضج، ويفتقد للجدوى الاقتصادية».

وقد حققت تلك الصناعات نجاحا باهرا، حتى أن شركة بوسكو على سبيل المثال، أصبحت في بداية التسعينيات ثالث أكبر شركة صلب في العالم والشركة الأولى في معدل الربح.

ولكن على الرغم من ذلك النجاح وصف البنك الدولي في تقرير ١٩٩١ تلك السياسة الصناعية بالفشل، مستغلا المشكلات التي أصابت الاقتصاد الكوري في بداية الثمانينيات في ظل انعكاسات الأزمة العالمية وارتفاع أسعار البترول في ذلك الوقت.

وقد أدت ضغوط البنك والصندوق الدوليين، فضلا عن الضغط الأمريكي، إلى سحب الدعم الحكومي للصناعات الثقيلة والكيماوية. وفي تقريره عن المعجزة الآسيوية، الذي يفترض فيه مواقف أكثر اعتدالا إلى حد ما، لم يعترف البنك الدولي سوى بالنجاح الجزئي لتلك الخطة الصناعية، واستمر في التعبير عن موقفه السلبي منها، فنسب إليها إحداث اختلالات خطيرة (World Bank، East Asian Miracle1993, p129)، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث تحول تاريخي كبير كالذي حدث للصناعة الكورية دون أن يمر باختلالات خطيرة، والشيء الوحيد لتجنبها، هو التخلي أصلا عن الطموح الصناعي.

ويمثل ذلك بالفعل أحد أسس منطق إصلاحات التكيف الهيكلي، الذي يدفع البلدان النامية للتخلص من الاختلالات في ميزانية الدولة، والاختلالات السعرية، والنقدية الخ. ولكن على حساب النمو، وتعميم الركود طويل الأمد، كما هي الحالة في مصر، وفي معظم البلدان النامية منذ أن جرى تعميم روشتة التكيف الهيكلي في الفترة الأخيرة.

ومن وجهة نظر ناقدة لمدرسة الاقتصاد النيوكلاسيكي، وسياسات وممارسات البنك والصندوق الدوليين، أن «المزايا النسبية» (أو بالأصح المزايا المطلقة) ليست معطى، وإنما «تصنع».

ومن ثم فهي تتطلب تدخل الدولة. فمن كان يمكن أن يقرر على أساس عامل المواهب الطبيعية factor endowment مثلا أن اليابان أو كوريا، أو تايوان، أو حتى الصين يمكن أن تملك قدرات تنافسية في صناعة السيارات أو السفن أو الإلكترونيات أو الحاسبات.. إلخ.

خلاصة القول أن روشتة (أو سياسة) البنك والصندوق الدوليين هي وراء الفشل الصناعي الذي تعاني منه الأغلبية الساحقة من البلدان النامية، وأن نظرية «المزايا النسبية» هي نظرية تحافظ وتؤبد وضع التخلف للبلدان النامية ولا تنصح بتغييره، مادامت تعد بأن النقيصة (أي التخلف الصناعي) يمكن أن يتحول إلى ميزة تتحقق منها المكاسب.

ويمكن القول أيضا أن نفس السياسة ونفس أسسها النظرية تهدد بعملية لنزع التصنيع de-industrialization، أي هدم ما هو قائم من صناعات، وليس فقط الحيلولة دون تطور عملية التصنيع. فالشرط الأولى لتصنيع ناجح في البلدان النامية هو اتباع سياسة صناعية نشيطة مناقضة لمنطق التكيف الهيكلي ومزاياه النسبية. ■

مراجع مختارة

David Ricardo _ The Pricipies of Political Economy And Taxation London: Dent & Sons LTD original (1817) 1933

Mehdi Shafaeddin
Free Trade or Fair Trade? An enquiry into the causes of failure in recent trade negotiations UNTAD, discussion papers No. 153 December 2000

- SHAIKH ANWAR Foreign Trade and the Law of Value
Part I (Science & Society, Fall, 1979)
Part II (Science & Society, Spring, 1980)
The Laws of International Exchange, in Growth, Profits and Property in Edward J. Nell (ed.). Cambridge Cambridge 1980

- World Development Indicators (WDI) Various Issues

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

الحدث الجليل

إن الملك (يقصد لويس الرابع عشر الذي توفي أول سبتمبر ١٧١٥) الذي حكم عهداً طويلاً جداً لم يعد له وجود. لقد جعل الناس يتحدثون عنه في حياته، وهاهم أولاء جميعًا قد صمتوا عند موته. لقد كان حازمًا شجاعًا في لحظته الأخيرة، فلم يبد مستسلمًا إلا للقدر. وهكذا مات الشاه عباس العظيم بعد أن ملأ الدنيا باسمه.

ولاتظن أن هذا الحدث الجليل لم يحدث إلا عبرًا خلقية، إذ إن كل شخص فكر في أعماله. وفيما يستفيده من هذا التغيير، فالملك ابن حفيد الملك الراحل لم يتجاوز الخامسة من عمره، وكان مقررًا أن يكون خاله الأمير وصيًا على العرش.

وقد أعد الملك الراحل وصية تحدد سلطة الوصي، ولكن هذا الأمير اللبق عرض على البرلمان حقوقه التي يرثها عن نسبه الملكي، فهدم ما أعده الملك الذي أراد أن يعيش بعد وفاته، وحاول أن يظل حاكمًا بعد موته.

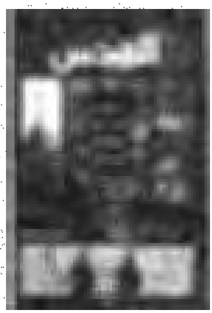
إن المجالس النيابية أشبه بالخرائب التي يطؤها الناس بأقدامهم، لكنها تذكر دائمًا بالفكرة القائمة عن بعض المعابد المشهورة للديانة القديمة للشعوب. إنها لا تهتم قط بأن تحقق العدالة. وسلطتها دائمًا مضمحلة إلا إذا حدثت أمور ليست في الحسبان تمنحها القوة والحياة.

هذه الهيئات الكبيرة تبعت مقادير الأمور الإنسانية: إنها استسلمت للزمن الذي يدمر كل شيء، وللفساد الخلقي الذي يضعف كل شيء، وللسلطة العليا التي تقهر كل شيء.

باريس في ٤ من رجب سنة ١٧١٥.

القدس.. مدينة واحدة.. عقائد ثلاث

كاريـن أرمسترونج




ت: د. فاطمة نصر، د. محمد عنانى

مقدمة كتاب:
القدس: مدينة واحدة.. عقائد ثلاث
كارين أرمسترونج
القاهرة: دار سطور، ١٩٩٨، ٦٨٢ صفحة

Jerusalem: One City.. Three Faiths
Karen Armstrong
Ballantine Books, 2005

** يتجلى التاريخ فى القدس أكثر مما يتجلى فى أى مكان زرته، باعتباره بعداً من أبعاد الحاضر، وقد يكون شأنها فى ذلك شأن كل منطقة مثار نزاع، ولكن ذلك الإحساس دهمنى دهماً عندما ذهبت أول مرة للعمل فى القدس عام ١٩٨٣، إذ دهشت أولاً لقوة وقع تلك المدينة فى نفسى، وكان من الغريب أن أسير فى مكان ظل يشغل بقعة خيالية من حياتى منذ أن كنت طفلة ضئيلة الجرم أصغى إلى قصص الملك داود أو المسيح.

فعندما كنت راهبة صغيرة علمتنى معلماتى أن أفتتح تأملات الصباح بتصور المشهد الذى سوف أتأمله على نحو ما رسمه الكتاب المقدس، فكنت أرسم فى خيالى صوراً لضيعة جثيمانى (مرقس ١٤/٣٢) أو جبل الزيتون أو طريق الأحزان. أما الآن، فقد اكتشفت وأنا أقوم بعملى اليومى بين هذه المواقع نفسها أن المدينة الحقيقية صاخبة مضطربة، تبعث على الخلط والتخبط.

فكان على، على سبيل المثال، أن أستوعب الواقع الماثل أمامى وهو أن المدينة بالغة الأهمية لليهود والمسلمين أيضاً، وعندما رأيت اليهود يرتدون قفاطينهم أو الجنود الإسرائيليين الغلاظ وهم يقبلون أحجار الحائط الغربى، وعندما شاهدت حشود أسرات المسلمين وهى تتدفق فى الطرقات فى أبهى حللها قاصدة الحرم الشريف لأداء صلاة الجمعة، أدركت للمرة الأولى مدى التحديات الكامنة فى التعددية الدينية. إذ ربما تفاوتت نظرات الناس إلى الرمز نفسه تفاوتاً بيناً.

لم يكن ثمة شك فى مدى تعلق أى من هؤلاء الناس بمدينتهم المقدسة، ولكنهم لم يكونوا يشغلون أى مكان فى القدس التى تصورتها أنا.

ومع ذلك فقد ظلت القدس تحتفظ بصورة المدينة التى صورها خيالى أيضاً، إذ كانت صور الكتاب المقدس التى ارتسمت فى ذاكرتى تبرز فى كل آن لتقابل الصور التى أشاهدها مباشرة فى أورشليم القرن العشرين.

كانت المدينة قد ارتبطت ببعض الأحداث ذات الأهمية البالغة فى حياتى، فأصبحت على نحو ما جزءاً لا يتجزأ من هويتى.

لكننى كنت مواطنة بريطانية، ولم تكن لى من ثم مطالب سياسية فى المدينة، على خلاف زملائى وأصدقائى الجدد فى القدس، ومع ذلك، فبينما كنت أستمع للإسرائيليين والفلسطينيين وهم يعرضون ما لديهم من حجج على، راعنى أن أحداث الماضى تبدو لعينى حاضرة نابضة بالحياة.

كان الجميع يستطيعون رواية أحداث الماضى، وبتفاصيلها الدقيقة أحياناً، وهى التى سبقت إنشاء دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ أو حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧.

وكثيراً ما لاحظت أن صور الماضى كانت تتركز على السؤال التالى: من الذى سبق الآخر إلى فعل شىء ما: من الذى لجأ أولاً إلى استعمال العنف: الصهيونيون أم العرب؟ من الذى أدرك أولاً إمكانيات فلسطين فسبق الآخر إلى تنميتها؟ من الذى كان يقيم فى فلسطين أصلاً: اليهود أم الفلسطينيون؟

وعندما كان الإسرائيليون والفلسطينيون يناقشون الأوضاع الراهنة المضطربة، كانوا يتحولون، كأنما بالغريزة، إلى الماضى.

وكانت الحجة التى يقيمونها تجرى بسهولة فى مضمار يبدأ فى العصر البرونزى، ماراً بالعصور الوسطى، حتى يصل إلى القرن العشرين.

وكنت أشعر كذلك أثناء تجوالى فى المدينة، والإسرائيليون والفلسطينيون يشرحون لى معالم مدينتهم، أن الآثار نفسها قد أصبحت جزءاً من النزاع القائم بين الطرفين.

وفى صبيحة أول يوم أقضيه فى القدس، طلب منى زملائى الإسرائيليون أن ألحظ الأحجار التى استعملها الملك هيرود، بأطرافها المائلة التى تميزها عن غيرها، والتى كانت منتشرة فيما يبدو فى كل مكان، كيما تذكر الرائى على الدوام بالتزام اليهود تجاه القدس والذى يرجع تاريخه (فى هذه الحالة) إلى القرن الأول قبل الميلاد، أى قبل ظهور الإسلام بحقبة مديدة.

وكان الزملاء يذكروننى كلما مررنا بعمال البناء فى المدينة القديمة، بأن العثمانيين قد تجاهلوا القدس تماماً أثناء حكمهم لها، وبأنها لم تعد إلى الحياة إلا فى القرن التاسع عشر، وبأن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى الاستثمارات اليهودية، فتلك هى الطاحونة الهوائية التى بناها السير موسى مونتيفيورى، وتلك هى المستشفيات التى مولتها أسرة روتشيلد، وبأن الفضل فى ازدهار المدينة الذى لم يسبق له مثيل يرجع إلى إسرائيل.

وأطلعنى أصدقائى الفلسطينيون

على صورة للقدس تختلف اختلافاً شاسعاً عن تلك الصورة، فكانوا يشيرون إلى روائع الحرم الشريف، والمدارس الإسلامية الباهرة التى بناها المماليك حول حدود المدينة، قائلين إنها أدلة على التزام المسلمين تجاه القدس.

واصطحبونى إلى مزار النبى موسى بالقرب من أريحا، وهو الذى بُنى للدفاع عن القدس ضد المسيحيين، والقصور الفذة التى بناها بنو أمية بالقرب منه.

وعندما مرت السيارة بنا فى مدينة بيت لحم، أمر مضيفنا الفلسطينى السابق بالوقوف عند ضريح راحيل على جانب الطريق، واندفع يقول بحرارة: إن الفلسطينيين لم يكفوا على امتداد قرون طويلة عن رعاية ذلك الضريح اليهودى المقدس، ولم يكن جزاؤهم على هذا الإخلاص والورع سوى الجحود والنكران.

أما الكلمة التى صافحت سمعى مراراً وتكراراً طيلة الرحلة فهى كلمة «مقدسة»، بل إن أشد الآخذين بالعلمانية من الإسرائيليين والفلسطينيين كانوا يقولون: إن أورشليم مدينة مقدسة لشعبيهما، بل إن الفلسطينيين يطلقون اسم «القدس» على المدينة.

وإن كان الإسرائيليون ينكرون ذلك بازدراء قائلين: إن أورشليم هى المدينة المقدسة لليهود أولاً، وأنها لم تكن تمثل للمسلمين الأهمية التى تمثلها مكة أو المدينة المنورة.

ولكن ترى ماذا تعنى كلمة «المقدسة» فى هذا السياق؟ كيف يمكن لمدينة وحسب، حافلة بالبشر الخطائين، وغاصة بالأنشطة الدنيوية بل والدنيئة، أن تكون مقدسة؟ لماذا كان أولئك اليهود الذين يجاهرون فى تحد بإلحادهم يحرصون على المدينة المقدسة ويشعرون شعوراً عميقاً بانتماء الحائط الغربى لهم؟

لماذا هاجمت كوامن ذلك العربى غير المؤمن ففاضت دموعه عندما وقف أول مرة فى المسجد الأقصى؟

كان من السهل على أن أدرك سبب قداسة المدينة فى أعين المسيحيين، إذ شهدت أورشليم موت المسيح وبعثه، كما شهدت ميلاد الدين نفسه، ولكن الأحداث التى أدت إلى نشأة اليهودية والإسلام وقعت بعيداً عن القدس، إذ وقعت الأولى فى شبه جزيرة سيناء، والثانية فى الحجاز فى بلاد العرب، لماذا كان اليهود مثلاً يرون أن جبل صهيون فى القدس مكان مقدس بدلاً من طور سينين، وهو المكان الذى أنزل الله فيه الناموس على موسى وقدم العهد لبنى إسرائيل؟ واتضح لى أننى أخطأت حين افترضت أن قداسة مدينة ما تعتمد على الوثائق التى تربطها بأحداث تاريخ الهداية والخلاص، أو بالروايات المنسوجة حول تدخل الرب فى شئون البشر. ومن ثم اعتزمت أن أبحث عن معنى تعبير المدينة المقدسة، فقررت أن أكتب هذا الكتاب.



واكتشفت أنه على شيوع استعمال صفة «القداسة» وإطلاقها على القدس دون تحرز كأنما كان معناها واضحاً بديهياً، فإن معناها فى الواقع مركب معقد.

فكل دين من أديان التوحيد الثلاثة قد وضع بعض التقاليد الخاصة بتلك المدينة، وهى تتشابه فيما بينها تشابهاً كبيراً، كما اكتشفت أن الإخلاص لمكان مقدس أو لمدينة مقدسة يكاد يمثل ظاهرة عالمية. إذ وضع الناس ما يسمى بالجغرافيا المقدسة، وهى خريطة لا علاقة لها بالخريطة العلمية للعالم، ولكنها ترسم صورة الحياة الباطنة حتى ليصبح ما على الأرض من مدن وغياض وجبال رموزاً للحياة الروحية.

ولا يخلو من ذلك مكان على ظهر البسيطة، ومن ثم فهو، فيما يبدو أنه يستجيب لحاجة إنسانية عميقة، مهما تكن صورة إيماننا بالله أو إيماننا بما وراء الطبيعة. وقد أصبحت أورشليم تشغل مكان القلب فى الجغرافيا المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين، وإن تباينت الأسباب، مما يجعل من العسير عليهم أن ينظروا إلى المدينة نظرة موضوعية، إذ ترتبط بمفهوم كل منهم وتصوره لذاته وللحقيقة القصوى ـ وهى التى يطلق عليها أحياناً لفظ الجلالة «الله» أو القداسة، وهى التى تهب حياتنا الدنيا معناها وقيمتها.

وسوف ترد فى الصفحات التالية ثلاثة مفاهيم مترابطة أولها هو فكرة السنة أو القداسة بصفة عامة. ولقد درجنا فى العالم الغربى على النظر إلى السنة بطريقة تضفى عليه صفات الإنسانية وتجنح إلى تشخيصه، وقد نجم عن ذلك أن أصبحت فكرة القداسة تبدو غير متسقة وتستعصى على التصديق. ولما كانت كلمة الرب قد فقدت مصداقيتها عند الكثيرين بسبب السذاجات والبغائض التى يزعمها الناس ويفعلونها باسمه. فقد يكون من الأيسر استخدام تعبير «القداسة» بدلاً من الرب، فالناس دائماً ما يشعرون عند تأمل الدنيا بوجود قوة متعالية ولغز عميق فى قلب الوجود نفسه.

ودائماً ما يحسون بأن تلك القوة ترتبط ارتباطاً عميقاً بذواتهم وبالعالم الطبيعى، ولو أنها أيضاً تتجاوز ذاتهم والعالم الطبيعى جميعاً.

ومهما يكن التعريف الذى نختاره لها (إذ أطلق عليه اسم الرب أو براهما أو نيرانا) فإن ذلك التعالى يعتبر حقيقة من حقائق حياة البشر. ولقد مررنا جميعاً بأحاسيس مماثلة، مهما تكن آراؤنا اللاهوتية، عند سماعنا قطعة موسيقية رائعة، أو قصيدة بديعة، فأحسسنا بأن شيئاً ما يمس شغاف قلوبنا ويرفعنا ولو للحظة عابرة إلى ما يتجاوز ذواتنا.

ونحن نحاول أن نمر بهذه التجربة، فإذا لم يهيئها لنا مكان معين، مثل الكنيسة أو المعبد اليهودى، نشدناها فى مكان آخر. وتجربة الإحساس بالقداسة ذات ضروب متنوعة، فهى قد توحى بالخوف، أو بالرهبة، أو بالثراء النفسى، أو بالسكينة، أو بالهلع، أو بضرورة القيام بعمل أخلاقى معين، هى تمثل لوناً أكثر اكتمالاً وأرفع شأناً من الوجود، لا بد منه لاستكمال ذات الإنسان

والإنسان لا يشعر بالقداسة باعتبارها قوة قائمة «خارج كيانه» فحسب، بل يشعر بها أيضاً فى أعماقه. ولكن الإحساس بالقداسة، شأنه فى ذلك شأن أى تجربة جمالية، يتطلب الغرس والتنمية، وهو مطلب لا يتمتع دائماً بالأولوية فى مجتمعنا العلمانى الحديث، ولذلك انتهى الأمر بحاسة القداسة إلى الذبول، وهو ما تنتهى إليه كل طاقة معطلة.

أما المجتمعات التقليدية فهى تعتبر القدرة على إدراك القداسة قدرة ذات أهمية أساسية، بل إن الناس كثيراً ما كانوا يشعرون أنه لولا حاسة القداسة لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها.

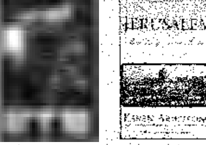
ويرجع ذلك، إلى حد ما، إلى أن البشر دائماً ما أحسوا أن الدنيا دار عذاب وعناء، فنحن نتعرض للكوارث الطبيعية، والفناء، والانقراض، وظلم الإنسان وقسوته، والسعى إلى الدين عادة ما يبدأ عندما يدرك الإنسان حدوث خلل ما، أو كما يقول بوذا «إن الوجود قد انحرف».

فإلى جانب الصدمات التى تصيب البشر جميعاً بحكم ضعفهم البشرى، فإن هناك لوناً من الأسى على المستوى الفردى يستطيع أن يجعل من النكسات الطفيفة فى ظاهرها مصدر هم وغم جارف، فإحساس المرء بأن شيئاً ما قد تخلى عنه يحيل بعض التجارب البشرية أحياناً، مثل وفاة أحد الأقرباء، أو الطلاق، أو فقد أحد الأصدقاء، أو حتى ضياع شىء يعتز به، إلى مظهر من مظاهر شر باطن فى الوجود وسائد فى الكون.

وكثيراً ما يتميز هذا القلق الباطن بإحساس بالفراق والفقد، إذ يبدو أن هناك ما نفتقده فى حياتنا، وأن وجودنا أصبح ممزقاً مشتتاً ناقصاً، وتتشكل فى نفوسنا نطفة الإحساس بأن الحياة ما ينبغى أن تكون على هذه الصورة، وأننا فقدنا ما هو جوهرى لسعادتنا، حتى إن استعصى علينا تفسير ذلك تفسيراً عقلانياً.

وقد تجلى هذا الإحساس بالفقد فى عدة صور، منها الصورة التى رسمها أفلاطون، وهى صورة النفس التوأم التى انفصلنا عنها عند مولدنا، وفى الأسطورة العالمية للفردوس المفقود. وكان الرجال والنساء فى القرون الغابرة يلجأون إلى الدين لتخفيف حدة ذلك الألم، وكانوا يجدون الشفاء فى تجربة الإحساس بالقداسة.

وأحياناً ما يلجأ الناس اليوم فى الغرب إلى التحليل النفسى الذى يفصح بمصطلحاته



العلمية عن ذلك الإحساس بالفراق الأول، إذ يربط بينه وبين ذكريات الحياة في رحم الأم والصدمة النفسية الرهيبة التي يحدثها المولد.

ومهما تكن الزاوية التي نختار أن ننظر منها، فإن فكرة الفراق والشوق إلى لون ما من ألوان المصالحة تقع في صلب التعلق والإخلاص لمكان مقدس.

والمفهوم الثاني الذي علينا أن نناقشه هو مسألة الأسطورة. فعندما حاول البشر الحديث عن القداسة أو عن ألم الوجود الإنساني، لم يتمكنوا من التعبير عن تجربتهم بصورة منطقية عقلانية، بل اضطروا إلى اللجوء إلى الأسطورة، بل إن فرويد ويونج، اللذين كانا أول من رسم صورة البحث العلمي في النفس، قد استعانا بأساطير العالم القديم أو بالدين عندما حاولا وصف الأحداث الباطنة، كما وضعا أساطير جديدة من تأليفهما. وقد تدنى موقع كلمة «الأسطورة» اليوم في ثقافتنا، فهي تستعمل بصفة عامة للدلالة على ما هو غير حقيقي، إذ يقول الناس إن حادثة ما لم تقع، وأنها «أسطورة» فحسب. ويصدق ذلك بالتأكيد على المناظرة الدائرة حول القدس؛ فالفلسطينيون يقولون: إنه لا توجد آثار على الإطلاق تدل على قيام مملكة يهودية على يدي الملك داود، كما لم يعثر أحد على أثر من آثار معبد سليمان، وإن مملكة إسرائيل لم يرد لها ذكر في أي من النصوص المعاصرة، بل في الكتاب المقدس فقط.

ومن الأرجح إذن أنها «أسطورة» فحسب. كما ينكر الإسرائيليون قصة معراج النبي محمد من الحرم الشريف في القدس إلى السماء، قائلين إنها أسطورة تشغل موقع القلب من تعلق المسلمين بالقدس، وأن العقل لا يقبله. ولكنني غدوت أعتقد أن ذلك دليل على عدم إدراك القصور، فلم يكن الهدف من الأسطورة يومًا ما أن تصف أحداثًا تاريخية وقعت فعلاً ويمكن التحقق من صحتها، بل أن تكون محاولة للتعبير عن دلالتها الباطنة أو لفت الأنظار إلى حقائق تستعصي على المناقشة المنطقية المتسقة.

ومن التعريفات الجيدة للأساطير أنها صورة قديمة لعلم النفس، لأنها تصف الأصقاع الباطنة للنفس، وهي التي تكتنفها الألغاز والأسرار ومع ذلك فهي ذات جاذبية وسحر لا يقاوم. وهكذا فإن أساطير «الجغرافيا المقدسة» تعبر عن حقائق الحياة الباطنة، إذ تمس المصادر المبهمة لآلام الإنسان ورغباته، ومن ثم فهي قادرة على إطلاق عواطف جائحة من عقالها. وهكذا فيجب ألا تنبذ القصص التي تروى عن القدس باعتبارها أساطير «وحسب»، بل أن تهتم بها لهذا السبب عينه وهي أنها أساطير.

ومسألة القدس مسألة متفجرة لأن المدينة قد اكتسبت كيانًا أسطوريًا. وكثيراً ما يدعو طرفا الصراع الراهن، بل ويدعو المجتمع الدولي نفسه - وهو مما لا يثير أي دهشة - إلى إجراء مناظرة عقلانية حول الحقوق والسيادة لا تؤثر فيها القصص المثيرة للمشاعر، وليت ذلك كان ممكنًا.

وهيهات لنا أن نزعم أننا قد تجاوزنا حاجتنا إلى الأساطير. ولكم حاول الناس استئصال شأفة الأساطير من الأديان في الماضي، على نحو ما فعله الأنبياء والمصلحون في إسرائيل القديمة مثلاً، الذين كانوا يحرصون حرصًا بالغًا على الفصل بين دينهم وبين أساطير الكنعانيين الأصليين، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك، إذ عادت القصص والأساطير القديمة إلى الظهور بقوة في الطرق الصوفية القبالية، فيما وصف بأنه انتصار للأسطورة على الأشكال العقلانية للدين، وسوف نرى في تاريخ القدس أن الناس كانوا يلجأون كأنما بالغريزة إلى الأسطورة في اللحظات التي تضطرب فيها أحوالهم، بحيث يستحيل عليهم أن يجدوا العزاء والسلوى في النظم الفكرية العقلانية.

وكانت الأحداث الخارجية تعبر أحيانًا تعبيراً محكمًا عن الواقع النفسي لشعب من الشعوب، مما أكسبها على الفور منزلة أسطورية وأطلق لديهم فورة من الحماس الأسطوري. وكان من بين هذه الأحداث حدثان بارزان: الأول هو اكتشاف قبر المسيح في القرن الرابع، والثاني هو الفتح الإسرائيلي للقدس في عام ١٩٦٧.

ففي الحالتين كان من يعنيهم الأمر يتصورون أنهم قد تخلوا وابتعدوا تمامًا عن أسلوب التفكير البدائي، ولكن سير الأحداث كان أقوى منهم، ولقد كانت الكوارث التي نزلت بالشعبين اليهودي والفلسطيني في هذا القرن ذات أبعاد هائلة، ولذلك لم ندهش حين رأينا الأساطير وهي تبرز من جديد لتحتل مكان الصدارة.

ولذلك فمهما تكن النتيجة، لا بد لنا من بحث أساطير القدس، ولو كان الهدف مقصورًا على إلقاء الضوء على رغبات وسلوك الناس الذين أثر فيهم هذا اللون من النزعة الروحانية.

والمصطلح الأخير الذي علينا أن ننظر فيه قبل الشروع في خوض تاريخ القدس هو الرمزية، فنحن نعيش في مجتمع ذي توجه علمي ولم نعد من ثم قادرين على أن نستعمل الصور والرموز بصورة طبيعية في تفكيرنا، بعد أن وضعنا منهجًا للتفكير يتسم بالمزيد من الطابع المنطقي العقلاني.

فنحن ننحي دور الخيال عند النظر إلى الظواهر المادية، ونجرد الشيء من الخصائص العاطفية المرتبطة به، ثم نركز أبصارنا على الشيء في ذاته. وقد أدى ذلك إلى تغيير في التجربة الدينية لدى الكثيرين في الغرب، قد بدأ هذا الاتجاه، كما سوف نرى في القرن السادس عشر. فنحن نقول إن شيئًا لا يزيد على كونه رمزًا فحسب، بمعنى أنه يختلف في جوهره عن الحقيقة الغامضة التي يمثلها، وهو ما لم نكن نقوله في الأيام التي سبقت مقدم عالمنا الحديث. إذ كنا آنذاك نعتبر أن الرمز لا ينفصل عن الحقيقة التي يمثلها، وهكذا كان الرمز الديني يتمتع بالقدرة على إدخال العابدين في عالم القداسة.

ولم يكن أحد على مر التاريخ يستطيع أن يخبر القداسة مباشرة، اللهم إلا عددًا بالغ الضآلة من الأفذاذ، فكان الإنسان دائمًا ما يدرك القداسة من خلال شيء آخر. وكان الناس مثلاً يخبرون القداسة من خلال إنسان ما، رجلاً كان أم امرأة، ويرون أنه تجسيد للقداسة أو أن القداسة قد حلت فيه، أو يرون أن القداسة قد حلت في نص مقدس، أو شرعة قانونية، أو مذهب عقائدي.

وكان المكان من رموز القداسة الأولى وأكثرها انتشارًا، إذ كان الناس يرون القداسة في الجبال والغياض والمدن والمعابد، فكانوا يشعرون عندما يسيرون في تلك الأماكن أنهم قد دخلوا في بعد مختلف من أبعاد العالم المادي الذي يعيشون عادة فيه، فهو منفصل عنه وإن كان يتفق في طابعه معه. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون ولا يزالون يرون في القدس مثل هذا الرمز للقداسة.

وليس ذلك مما يحدث بصورة تلقائية، فعندما يشعر العابدون أن مكانًا ما ذو طابع قدسي، مهما يكن لونه، وأنه قادر على فتح باب القداسة أمام الإنسان، فإنهم يبذلون قدرًا كبيرًا من طاقاتهم الخلاقة لمساعدة الآخرين على تنمية ذلك الإحساس في نفوسهم.

وسوف نرى أن النظام المعماري للمعابد والكنائس والمساجد له أهميته الرمزية، إذ إنه كثيراً ما يرسم خط الرحلة الباطنة التي لا بد للحجاج من القيام بها للوصول إلى الله. وتشترك الطقوس والشعائر كذلك في تعميق الإحساس بقداسة المكان. وكثيرًا ما يبدي الناس في الغرب الذي يدين بالبروتستانتية تشككهم في الشعائر الدينية، وهو التشكك الذي يتوارثونه ويرون أنها ضرب من رطانة الشعوذة.

وقد يكون من الأدق أن ننظر إلى الطقوس باعتبارها لونًا من ألوان المسرح القادر على تمكين الناس من الإحساس بالقداسة ولو كان ذلك في غضون سياق علماني محض. ولقد نشأت الدراما الغربية في كنف الدين: في الاحتفالات الدينية في اليونان القديمة، واحتفالات عيد القيامة في كنائس وكاتدرائيات أوروبا إبان القرون الوسطى. ولقد وضعت كذلك بعض الأساطير للتعبير عن المعاني الباطنة للقدس وما بها من مزارات مقدسة.

ومن هذه الأساطير أسطورة وصفها ميرسيا إلياد، الباحث الروماني الأمريكي الذي توفي منذ عهد قريب، بأنها أسطورة العودة الأبدية، والتي اكتشفت أنها مشتركة بين جميع الثقافات تقريبًا.

ويقول هذا الخط الفكري: إن جميع الأشياء المادية التي نلقاها على الأرض لها نظائرها في عالم القداسة أو عالم الروح، والواضح أن هذه الأسطورة تحاول التعبير عن الإحساس بأن حياتنا في الدنيا هنا تتسم بالنقصان، وبالانفصال عن لون آخر من الوجود،

فى مكان آخر، يتميز بالكمال، ويبعث على الرضا. ومعناها أيضاً أن جميع الأنشطة والقدرات البشرية لها صور أولية فى عالم القداسة. فإذا قام الإنسان بمحاكاة الأرباب استطاع أن يشاركهم حياتهم القدسية.

وما زال الناس يراعون مبدأ محاكاة الأرباب حتى اليوم، فهم لا يزالون يستريحون فى اليوم السابع من الأسبوع، أو يأكلون الخبز ويشربون النبيذ فى الكنيسة. وهى أفعال لا معنى لها فى ذاتها. لأنهم يعتقدون أن الرب قد فعل ذلك يوماً ما.

والطقوس التى يؤديها الناس فى المكان المقدس صورة أخرى من صور محاكاة الأرباب والدخول إلى عالم الوجود الأكمل والأقوى. وهذه الأسطورة نفسها ذات أهمية أساسية لتفهم قداسة أى مدينة مقدسة، إذ يمكن اعتبارها نظيراً لمنزل الأرباب فى السماء، ويعتبر المعبد نظيراً للقصر السماوى الذى ينزل فيه رب من الأرباب.

فإذا قام الإنسان بمحاكاة الصورة السماوية القديمة للمعبد فى السماء، بأكبر قدر من الدقة، فربما استطاع أن يجعل المعبد بيتاً للرب هنا على الأرض.

ولن يسخر من هذه الأساطير إلا من ينظر إليها بعين الحداثة العقلانية الباردة، متجاهلاً أن الناس لم يضعوا هذه الأفكار أولاً ثم طبقوها على مكان «مقدس» بعينه. لكنها كانت تمثل محاولة لتفسير تجربة مروا بها وخبروها، ودائماً ما تسبق التجربة التفسير اللاهوتى لها فى أى دين.

كان الناس يشعرون أولاً أنهم قد أدركوا القداسة فى غيضة معينة أو على قمة جبل بعينه، وأحياناً ما كانت تساعدهم فى هذا الخصائص الجمالية للعمارة والموسيقى والطقوس التى كانت ترفعهم إلى ما يتجاوز ذواتهم وكانوا بعد ذلك يحاولون تفسير هذه التجربة باللغة الشاعرية للأساطير، أو بالرموز الخاصة بالجغرافيا المقدسة.

وكان أن أصبحت القدس من الأماكن التى نجحت فى ذلك سواء بالنسبة لليهود أو المسيحيين أو المسلمين لأنها فيما يبدو فتحت أمامهم باب الإحساس بالقداسة.

ولابد من إبداء ملاحظة أخيرة هنا، وهى أن الممارسات الدينية وثيقة الصلة والقرابة بالممارسات الفنية، فالفن والدين كلاهما يحاول استخلاص معنى أقصى من هذه الدنيا المعيبة الغاصة بالكوارث، وإن كان الدين يختلف عن الفن لأنه لابد أن يتخذ بعداً أخلاقياً. وربما كان من الممكن وصف الدين بأنه شرعة جمالية أخلاقية.

فتجربة الإحساس بالقداسة أو بالكيان المتعالى لا تكفى، بل يجب بعد ذلك تجسيد تلك التجربة فى سلوكنا تجاه الآخرين. فجميع الأديان العظيمة تصر على أن محك قياس الروحانية الحقة هو التراحم الفعلى. وقد قال بوذا ذات يوم: إن الإنسان عليه بعد أن يخبر التنوير أن يترك قمة الجبل ويعود إلى السوق لممارسة التراحم والتعاطف مع جميع الكائنات الحية. وينطبق ذلك أيضاً على روحانية أى مكان مقدس. إذ كان من أهم عناصر قداسة القدس منذ البداية عنصر الإحساس الفعلى والعدالة الاجتماعية. ولا تصبح المدينة مقدسة إلا إذا كانت تتسم أيضاً بالإنصاف والرحمة تجاه الضعفاء والفئات المستضعفة. ولكن الناس كانوا ولا يزالون يتجاهلون ذلك الالتزام الأخلاقى، إذ ارتكبوا أفظع الفظائع عندما قدموا الرغبة فى طهارة القدس والوصول إلى قداستها العظمى على السعى لتحقيق العدالة والإحسان.

لقد كان لكل من هذه التيارات الأساسية دورها فى تاريخ القدس الطويل المضطرب. ولن يحاول هذا الكتاب وضع قانون حول مستقبل القدس، ففى ذلك ما فيه من التطاول واتباع الظن.

ولكن الكتاب لا يعدو أن يكون محاولة لإدراك ما يعنيه اليهود والمسيحيون والمسلمون عندما يقولون إن المدينة «مقدسة» لهم، والإشارة إلى بعض ما يترتب على قداسة القدس فى تقاليد كل دين من هذه الأديان. ويبدو لى أن ذلك لا يقل أهمية عن البت فيمن كان يقيم فى المدينة أولاً وفيمن أصبح من حقه، بناءً على ذلك، أن يملكها، خصوصاً بسبب الغموض الشديد الذى يكتنف الأصول الأولى للقدس. ■

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

الملك والحرب

ندر فى الخلاف بين شعب وشعب أن يُحتاج إلى شعب ثالث ليقضى بينهما، لأن موضوعات النزاع فى أكثر الأحوال تكون دائماً واضحة، ومن السهل أن يفصل فيها، لأن مصالح شعب تتميز عن مصالح شعب آخر، ولا يحتاج من يفصل فيها إلا أن يحب العدالة فيجدها. ولا يمكن قط أن يتوقع الإنسان ما يحدث فى حالته الخاصة به.

وليس الحال كذلك فى الخلاف الذى ينشأ بين الأفراد، فهم إذ يعيشون فى مجتمع، فإن مصالحهم ممتزجة، ومتشابكة أشد اشتباك. وتنشأ لذلك أنواع كثيرة من الخلاف تحتاج إلى طرف ثالث يكشف الحق الذى يحاول طمع طرفى الخصومة أن يطمسه.

ليس بين الحروب ما هو حق إلا حربان: أولاهما تلك التى تكون لصد عدو مغير، وأخراهما تلك التى تكون لمساعدة حليف مهاجم.

وليس من العدالة فى شىء أن تقوم حرب من أجل خصومات خاصة بالملك ما لم يكن قد ارتكب هو أو الشعب ما يستحق من أجله الموت: مثلاً لا ينبغى أن يشن الملك الحرب لأنه لم يكرم التكريم الواجب له، أو لأن تصرفات غير مقبولة حدثت لسفرائه، أو أى شىء يشبه ذلك. ولا ينبغى لشخص أن يقتل من يرفض صدارته فى مجلس، أو أن يتقدم فى محفل، والعقل يوجب أن يكون إعلان الحرب عملاً مشروعاً، ولتكون العقوبة على قدر الخطأ ينبغى أن نرى: هل من نعلن عليه الحرب يستحق الموت؛ لأن إعلان الحرب ضد شخص ما معناه أننا نريد أن نعاقبه بالموت.

من باريس فى ٤ من ذى القعدة سنة ١٧١٦م

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

هويات كثيرة وحيرة واحدة

حسام عتيانى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٧، ٢٤٥صفحة



٨٦ عاماً مضت منذ إعلان لبنان الكبير كانت حافلة ليس بما يقرب حاملى الجنسية بعضهم من بعض ويذيب الفروق فى انتماءاتهم السابقة على الانضمام للوطن الجديد. بل إن الكثير مما فعله اللبنانيون كانت نتائجه تصلب الهويات الفرعية الطائفية. هذه النتيجة هى التى دفعت المؤلف للبحث فى الهوية اللبنانية وأصول المسألة الطائفية بهذا القدر من العمق والرغبة فى اكتشاف أسباب التفرقة والتمزق. والمؤلف فى هذا الصدد يستدعى الكتابات والدراسات المهمة التى دارت حول موضوع الهوية على اختلاف توجهات أصحابها، فينقل عن إدمون رباط قوله إن الانتماء للطائفة هو شرط المواطنة اللبنانية، لابد لكل لبنانى أن يكون منتمياً إلى طائفة معينة، الأمر الذى يجعل الروح الطائفية ملتصقة بشخصه وأسرته، ويجعل كل عمل سياسى كالانتخاب والمنافسة فى اقتناص الوظائف العامة والوزارات مستمراً طبيعياً فى خضوعه لروح طائفته.

وينقل عن كمال الحاج قوله: الأرض والسماء تزولان والطائفية لا تزول من لبنان. وعن جورج قرم: الهوية الطائفية هى أيديولوجيا ذات طبيعة فاشية وكلية وهى لا تعكس فى المجتمع أى تنوع من الانقسام الاثنى الحقيقى القادر على شرعنة سلوك الأجهزة الطائفية، خارج حقيقة واحدة وهى أنها تمثل بنى مخفية للسلطة.

وعن فواز طرابلسى: الطوائف اللبنانية تشبه مجموعة من القنافذ فى ليلة باردة. إذا اقترب بعضها كثيراً من بعض، تبادلت الأجساد وخز الشوك، وإن تباعدت ماتت برداً.

هذه هى الحقائق التى ترسم ملامح الدولة اللبنانية وتفسر أسباب الصراعات بين الطوائف والأجنحة السياسية والقبلية المختلفة، ووسط هذا المناخ، كما يقول المؤلف تظهر عبادة الجماعة التى تستعير الشعائر الدينية وتوظفها فى مهمة مختلفة عن مهمتها الدينية. وتفسر ظاهرة عبادة الجماعة ازدحام دور العبادة والكثافة الاستثنائية فى المشاركة فى الاحتفالات الدينية فى الأعوام التى تكون فيها طائفة مهددة فى مصالحها الحيوية وفى أدواتها السياسية.

المؤلف يعرج بطبيعة الحال على الحرب الأهلية اللبنانية ومخاطر الانزلاق إليها فى ظل الصراع الدائر منذ اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى.

⁂

دفاعًا عن المرأة

جابر عصفور

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ٢٠٦ صفحات



يأتى هذا الكتاب والعالم يحتفل بيوم المرأة العالمى، ومنذ السطور الأولى يشير المؤلف إلى المكانة التى احتلتها المرأة فى الإسلام، فقد كرمها ومنحها حقوقاً لم تحصل عليها من قبل، وأحاطتها الشريعة الإسلامية برعايتها، ومنحتها نصيباً فى الميراث تتصرف فيه كيفما شاءت، وأنصف الإسلام المرأة فى حقوقها المدنية فسمح لها أن تزوج نفسها أو تخلع زوجها، وأعطاها أهلية للبيع والشراء والتملك، بوصفها كائناً إنسانياً كرمه الله بالعقل وليس تابعاً ذليلاً.

بعد ذلك يفند بعضاً مما أورده المتزمتون بشأن المرأة فى كتاباتهم التى لا تستند على نص قرآنى أو حديث صحيح وإنما تهويمات وكلمات مبعثرة تصف جميعها المرأة بالنجاسة والمكر والدهاء والدونية، ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة فى «عيون الأخبار»، ثم يبدأ شوء المؤلف - فى التأصيل لفساد هذه الرؤية تاريخياً، مشيراً من ناحية ثانية إلى نماذج نسائية مضيئة فى التاريخ الإسلامى فى عمومه، وفى التاريخ المصرى والعربى على وجه الخصوص، وما كتبه قاسم أمين فى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، والكيفية التى كان رائد التنوير رفاعة الطهطاوى يعامل بها زوجته والوثيقة التى كتبها على نفسه قبل زواجه منها، يتعهد فيها بألا يتزوج غيرها، وإن فعل فهى حرة، ولم يكن الطهطاوى مضطراً إلى كتابة مثل هذه الوثيقة فى وقت كان الرجال يستمتعون لا بالزوجات فحسب، وإنما بالجوارى أيضاً.

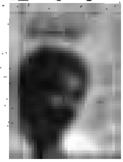
ويشير كذلك إلى مذكرات هدى شعراوى وما تضمنته من حديث عن دور المرأة فى ثورة ١٩١٩، ويستفيض فى المظاهرة النسائية التى قادتها الرائدة النسائية وحشدت حولها مئات من النساء من مختلف الطبقات فى تحد سافر لسلطات الاحتلال الإنجليزى، والدور المهم الذى لعبته رائدات الحركة النسائية من أمثال نبوية موسى وسيزا نبراوى لإعلاء شأن المرأة المصرية فى المحافل الدولية، وبطبيعة الحال فإن سهير القلماوى ولطيفة الزيات وهما أستاذتان تتلمذ عليهما المؤلف بشكل مباشر تحظيان باهتمام خاص إلى جانب ما يسطره عن المرأة العربية المبدعة.

⁂

شىء من هذا القبيل

إبراهيم أصلان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٣٢صفحة



لوحات تشبه المذكرات أو هى «من هذا القبيل»، يرسم بعضها صورة لطفولة المؤلف وبداياته العملية وخياراته الفنية وصداقاته، وبعضها يشتبك مع قضايا معاصرة يعبر عنها صاحب «بحيرة المساء» و«وردية ليل» و«مالك الحزين» و«يوسف والرداء» بطريقته، التى يغلب فيها الفنى على الصحافى، برغم أن هذه المقولات نشرت بجريدة الأهرام فى زاوية الكاتب الأسبوعية.

يحدثنا الكاتب عن الكيت كات وامبابة، وهى المنطقة الشعبية التى نشأ وظل مقيماً بها حتى وقت قريب، قبل أن يقرر النزوح منها للإقامة بمنطقة المقطم.. «أنزع الآن عن إمبابة، كما تنزع قطعة لحاء جافة وإن كانت حية، عن جذعها الطرى، كيما تلتصق بجذع آخر»، لكن أشياء كثيرة تغيرت فى إمبابة لتجعل الترحال ممكناً، بل وضرورياً فى بعض الأحيان، «فلم يعد النهر هو النهر ولا الماء هو الماء»، وفى مرحلة الطفولة تلك وبدايات التعلم والمدرسة الابتدائى، ثمة ذكريات ينقلها إلينا الكاتب بعين ذكية لاقطة كما فى «تعويذة»، «قلم أبنوس»، «قلم كوبيا»، «مدرس»، وغيرها، كما سنرى رأياً ورؤية فى شواغل كبيرة ومهمة مثل مسألة العلاقة بين المسلمين والأقباط لكن بطريقة فنية، كما هو الحال مثلاً فى «الكنيسة نورت»، حيث يروى لنا كيف كان هو والأطفال من سنه ينتظرون مدفع الإفطار على شاطئ النيل بإمبابة ويتأكدون تماماً من قدوم المغرب حين تضاء الكنيسة بالضبط فى هذا التوقيت، فما الذى جرى، يقول أصلان:

فى كل عام لم نكن نخلف موعدنا، ولا النور أخلف ميعاده.

ولكن النهر غاض واعتقل وراء أسوار وأسوان، وغامت العلاقة ما بين الشاطئ والشاطئ، والصديق إدوار الخراط اتصل يقول: كل سنة وانت طيب. وأنا سألته عن اسم تلك الكنيسة التى كان يمكن رؤيتها من إمبابة زمان، وهو قال إن الزمالك حيث يقيم لا يوجد بها إلا كنيسة العذراء بالمرعشلى.

قلت: لم أعد أراها، قال: ربما أن المبانى حجبتها.

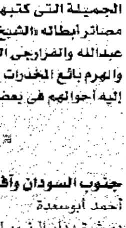
كيف اختار أصلان أن يكون كاتباً للقصة القصيرة، وكيف كتب روايته الأولى «مالك الحزين»، نعرف من إحدى المقالات أن المؤلف اكتشف طريقه لكتابة القصة القصيرة بالذات عبر صديق يكبره سناً وزامله لفترة حين كان أصلان يعمل «موزعاً» للبريد فى بداياته العملية، وقال لصديقه إنه يريد أن يكون كاتباً، فأشار عليه بأن يقرأ ويقرأ، وحين فعل ووقعت عيناه على «تشيكوف»، عرف أن هذا هو عالمه، وأن موهبته هنا لا أكثر ولا أقل، أما كتابه «مالك الحزين» فقد دفع إليه دفعاً حين أوصى نجيب محفوظ عليه فى المجلس الأعلى للفنون والآداب كى يحصل على منحة تفرغ تعينه على الإبداع بعيداً عن شواغل الوظيفة، وحين حصل عليها عرف أنه لن يكون مستحقاً لها ما لم يكتب رواية، وهكذا فكر فى أن يكتب «مالك الحزين» التى صارت فيما بعد فيلماً ناجحاً عنوانه «الكيت كات» أخرجه داود عبدالسيد ولعب بطولته محمود عبدالعزيز ولا تغيب عن اللوحات الفنية الجميلة التى كتبها أصلان أن يتابع مصائر أبطاله «الشيخ حسنى» ورواد قهوة عبدالله والفرارجى الذى اشترى الحارة والهرم بائع المخدرات فيحدثنا عما آلت إليه أحوالهم فى بعض المقالات.

⁂

جنوب السودان وآفاق المستقبل

أحمد أبوسعدة

دمشق: دار النور للثقافة، ٢٠٠٦، ٣٩٨صفحة



يمثل هذا الكتاب الجزء الأول من مجلد فى جزءين عن جنوب السودان الذى انشغل به المؤلف لفترة طويلة، بدأت منذ العام ١٩٦١، ومن يومها صار واحداً من المهتمين بالقارة السمراء وبالشأن السودانى على وجه الخصوص، وهو ما

دفعه إلى زيارة السودان في أعقاب توقف القتال عام ٢٠٠٥، وبداية مرحلة السلام، وهو سلام مازال موضع شك كبير.

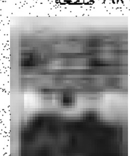
وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يشير إلى أن موضوعه الأساسي هو الجنوب، فإن المؤلف يقدم دراسة كاملة عن السودان جغرافيا وحضاريا وسياسيا في اثني عشر بابا يبدؤها بتعريف السودان الحديث ويناقش فيه جنوب السودان والمسيحية والرق وبدايات فصل الجنوب عن الشمال، ثم يعرض في الباب الثاني لجذور التمرد في الجنوب ويناقش محاولات البريطانيين حكم جنوب السودان في الباب الثالث ودور مجلس الكنائس في هذه المسألة، ثم يعرض لتاريخ الجنوب في الفترة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٤٥، ويكشف في فصل تال عن اليد الصهيونية التي عبثت بالمسألة السودانية ومصالحها في القارة السمراء، مشيراً إلى اقتراح اليهودي واربوت الذي قدمه إلى اللورد كرومر عام ١٩٠٠ لتوطين اليهود في السودان، ويتابع بعد ذلك نشأة الأحزاب السودانية ومواقفها من القضايا المختلفة، ويعرج على الحركات الانفصالية والانقلابات العديدة التي شهدها السودان ومنها انقلاب جعفر نميري وحكومة الرئيس عبود ثم سقوط النظام العسكري، وهي الدورة المعتادة في النظام السياسي السوداني، حيث يحدث انقلاب عسكري يستولي على الحكم ثم يعود الحكم المدني لسنوات قبل أن يحدث انقلاب عسكري آخر وهكذا!.

ويكشف المؤلف في الباب العاشر عن دور اليهود في جنوب السودان والدعم الإسرائيلي للمتمردين ونتائجه، وفي الحادي عشر يكشف عن الدور الأمريكي النشط في المسألة السودانية، خصوصاً مع اكتشاف النفط هناك، محللاً أسباب الغضب الأمريكي على السودان، ويختتم بجهود السلام التي جرت في عدة عواصم أفريقية قبل أن يشير إلى الدور العربي الغائب في أزمة الجنوب، ويلمح إلى وجود سلاح عربي بأيدي المتمردين متسائلاً: من أين جاء هذا السلاح ولمصلحة من يعبث البعض بأمن السودان واستقراره.

التفكير السياسي العربي

صلاح سالم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ٢٩٨ صفحة



الخلاصة التي يقدمها المؤلف لثمانية فصول ستة يدرس فيها الفكر السياسي العربي، وبعد استعراض نقدي لمنطلقاته الأساسية ومآزقه الثقافية، هي أن السجال الدائر حول تغيير المجتمعات العربية منذ احتلال العراق، يتمحور حول القضايا ذاتها التي برزت إلى الواجهة في أعقاب هزيمة يونيو ٦٧ وانتكاسة المشروع الناصري، وهي أيضاً التي أثيرت عقب هزيمة عرابي وخضوع مصر للاحتلال البريطاني.

أكثر من ذلك فإن هذه القضايا وعناوينها الرئيسية هي العقلانية والديمقراطية والقومية والعلاقة مع الآخر وكيفية تحقيق النهضة، كانت هي أيضاً موضع تساؤل الفكر العربي ونزوعه النهضوي منذ حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م.

ماذا يعني هذا؟ يعني أن هذه الإشكالات جميعها لم تلق حلاً، وأنها بقيت تراوح مكانها في وضع دائري، حيث يتم استعادتها بين فترة وأخرى. أو بتعبير المؤلف فإن الفكر يجادل الفكر والواقع منعزل راكد.

ويشير المؤلف إلى أن مازاد من حالة الركود العربية تلك هو توافر ثلاثة أمور: أولها: الشعور بالمرارة إزاء البنيتين التاريخيتين اللتين أحاطتا به وعمقتا من أزمته، وهي البنية العثمانية المنتمية في أغلب ملامحها إلى القرون الوسطى، والبنية الغربية الكولونيالية المنتمية إلى العصر الحديث.

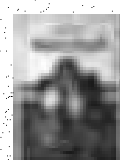
وثانيها: حالة التلفيق التي آل إليها المشروع التوفيقي بين البنيتين، وهو ما أدى إلى إهدار نحو قرن من الزمان دون تحقيق تقدم حقيقي، وهو مازاد من فجوة التخلف وضاعف الجهد المطلوب لردمها أو حتى تضييقها.

وثالثها: ما يسميه المؤلف بالتفاعلية الشديدة بين هذه القضايا التي شكلت أسئلة النهضة الأساسية بما يجعل غياب أحدها مؤثراً على غيره، فالعقلانية والفردانية والديمقراطية والقومية والعلاقة مع الآخر، كلها تتفاعل معاً كما لو كانت حزمة واحدة من المشكلات مطلوب حلها جميعاً في اللحظة ذاتها.

ذاكرة الاستخبارات

غسان شربل

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ٣٤٥ صفحة



لا يكفي وقف إطلاق النار لدفع الحرب إلى التقاعد، ولا يكفي إبرام تسوية سياسية لضمان عدم تكرارها. لا تعاقب الحرب بالنسيان بل بإعادة قراءة أسبابها ومجرياتها واستجلاء غموضها: تعرية الحرب من هالاتها شرط لتجاوزها.

بهذه الكلمات يبرر المؤلف إقدامه على إجراء حوارات مع أربعة من مسئولي الأمن والمخابرات في لبنان في فترات مختلفة من تاريخها المعاصر المليء بالحروب الأهلية والتطاحنات الفئوية والمساومات السياسية والتدخلات الخارجية هم:

جوني عبده الذي رأس مديرية المخابرات في الجيش اللبناني في عهد الرئيس الياس سركيس (١٩٧٦ - ١٩٨٢)، والذي كان ضمن الحلقة السياسية الصغيرة المسماة بمطبخ القرار، وقد انتهت هذه السنوات بالاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢.

وجابي لحود الذي كان رئيساً للمكتب الثاني في عهد الرئيس شارل حلو (١٩٦٤ - ١٩٧٠)، كما كان لاعبا بارزا في المكتب الثاني في عهد الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤).

ومحمود مطر، الضابط بسلاح الجو اللبناني وصاحب القصة الشهيرة التي حاولت فيها المخابرات السوفيتية تجنيده لخطف طائرة ميراج فرنسية تابعة للجيش اللبناني.

وجميل السيد المدير العام للأمن العام في عهد الرئيس إميل لحود، والذي اتهمه المتظاهرون ضمن قادة أمنيين آخرين باغتيال الرئيس رفيق الحريري، وكان جميل السيد هو الرجل القوي في مديرية المخابرات في عهد الرئيس الياس الهراوي (١٩٨٩ - ١٩٩٨)، وهو الذي خطط لوصول إميل لحود إلى الحكم باتفاق وتطابق كاملين مع السوريين.

وقد استقال جميل من منصبه عقب اغتيال الرئيس الحريري في ١٤ فبراير ٢٠٠٥م.

وأهمية هذه الحوارات ليس فقط كونها تفسر كثيراً من الحوادث الغامضة باعتبار أن أصحابها ممن يمكن أن يوصفوا بأنهم عليمون ببواطن الأمور ومطلعون على أدق الأسرار، وإنما أيضاً لأن في روايات أصحابها ما تناقضه روايات أخرى عن الحادثة ذاتها.

كما أن أصحابها الآن هم خارج دوائر صنع القرار وبعيداً عن قيود المنصب، ومن ثم، فإنهم يفتحون خزائن أسرارهم بحرية مطلقة بعد أن ظلت لسنوات طويلة مغلقة.

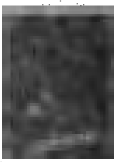
الميزة الأهم لهذه الحوارات أيضاً أنها تكشف عن التدخلات الخارجية في المسألة اللبنانية والعلاقات التي تربط اللاعبين الخارجيين بالشأن الداخلي، وتصحح ضعف البنية الداخلية للدولة اللبنانية وتفسخ صيغتها التوافقية، التي تجعلها عرضة دائمة لاهتزازات متوالية تهددها في الصميم.

أوجو شافيز

نيكولاس كوزلوف

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ٢٧٢ صفحة



منذ انتخابه عام ١٩٩٨، ظل شافيز يتحدى المبادرات التي تقودها أمريكا: الحرب على العراق، حرب المخدرات في أمريكا اللاتينية وغيرها، بل وسعى إلى تطوير علاقاته مع كوبا كاسترو، العدو التقليدي الصامد - حتى الآن - في وجه المخططات الأمريكية في جنوب القارة وأصر على تزويدها بالوقود في مقابل مزايا تقنية وعلمية، وزاد من الضرائب المفروضة على منشآت النفط الأمريكية التي تعمل في فنزويلا في محاولة منه للاستفادة من عائدات النفط لتحسين مستوى معيشة الناس في بلاده، وقد استخدم هذه العائدات بالفعل في عديد من المشروعات الاجتماعية الطموحة في التعليم والإسكان والصحة وبرنامج الإصلاح الزراعي الذي أثار جدلاً واسعاً. ويسعى شافيز إلى قيادة تكتل داخل دول أمريكا الجنوبية يواجه به النفوذ الأمريكي فيها، أما أكثر ما يهدد البيت الأبيض فهو إقامة شركة نفط أمريكا الجنوبية الجديدة لمواجهة الاستغلال الأمريكي لنفط القارة، كما أطلق شافيز قناة فضائية خاصة بنصف الكرة الجنوبي لمواجهة الإعلام الأمريكي الذي يسعى للتغلغل والتأثير على بلاده.

هذا كله جعل من شافيز رمزاً للثورة ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية السياسية والاقتصادية في جميع أنحاء أمريكا الجنوبية.

والمؤلف الذي عمل لفترة في فنزويلا، وكان يعد لرسالة دكتوراة يجمع مادتها الميدانية في كراكاس، انشغل بالزعيم الفنزويلي الثائر الذي يسعى للتماهي مع القائد الملهم سيمون بوليفار، البطل العظيم الذي حرر القارة الجنوبية من الاستعمار الإسباني، وبدأ يتابعه في خطاباته السياسية التلقائية، وفي برنامجه التليفزيوني "ألو رئيس الجمهورية"، وحين جرى الانقلاب عليه، رأى المؤلف بعينيه كيف تحرك طوفان من مئات الألوف من الفقراء والمعدمين لمحاصرة القصر الجمهوري في كراكاس حتى أجبروا حكومة الانقلاب على حل نفسها.

إلى ذلك يشير الكتاب إلى المناخ الاجتماعي الآخذ في الانتشار في أنحاء أمريكا الجنوبية، والذي يعود إلى شافيز الفضل الأساسي فيه.

رشق السكين

محمد المخزنجي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٠٦ صفحات



هذه هي المجموعة الثانية للمؤلف بعد مجموعته الأولى «الآتي» (١٩٨٣)، وقد صدرت هذه المجموعة ضمن مختارات فصول عام ١٩٨٤، وهي تشير بقوة إلى عالم الأديب، تماماً مثل «سفر» مجموعته الرابعة التي صدرت عام ١٩٩٠، أما مجموعته «الموت يضحك» ١٩٨٦، فكانت مغايرة نوعًا ما، إذ كانت القصص فيها أطول نسبيًا بعكس المجموعات الثلاث الأخرى، التي اعتمدت درجة عالية من التكثيف الشعوري واللغوي، مع قدر كبير من الإفصاح والإبانة، وهو ما يدهش في أسلوب المخزنجي شديد الاختزال والتكثيف، والذي يغوص بمهارة في النفس الإنسانية (وهو طبيب نفسي حائز على الدكتوراة في هذا التخصص)، كما ينجح في تشكيل خبراته الذاتية بمهارة فنية واضحة، دون ادعاء باختراق «موضوعات كبيرة»، برغم أن ما يناقشه وإن بدا ذاتيًا فإنه عام وأحيانًا كوني.

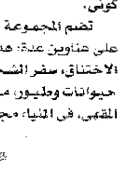
تضم المجموعة ٣٢ أقصوصة موزعة على عناوين عدة: هذه اللحظة، مدينة الاختناق، سفر الشجر، بشر الأقفاص، حيوانات وطيور، ملامح شتوية، في المقهى، في المنيا، مجرد لمس، تفسيات.

⁂

السياسة وسلطة اللغة

عبدالسلام المسدّي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٦٦ صفحة



يرى المؤلف أن السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر، وليس من قول في السياسة إلا خلفه فعل سياسي، وما في فعل سياسي إلا وهو يستتبع بالضرورة خطاباً (...) كان الفعل في السياسة هو الذي يجر اللغة إليه جراً، فهي أبد الدهر محكومة به، ولكن الوضع قد تغير وتوشك الأدوار أن تنقلب، والسبب أن سياسة أمور الناس داخل الأوطان قد كانت هي الأصل وهي المبتدأ، وتأتي بعدها سياسة الروابط بين الوطن وسائر الأوطان في الأرض المعمورة، ثم حصل الانقلاب على مدار العقود، فأصبحت سياسة الوطن محكومة بشبكة العلاقات المعقدة القائمة بينه وبين سائر الأوطان.

بسبب هذا التلازم والتطورات والتحولات التي صاحبته، يتابع المؤلف أقوال الساسة وأهل السياسة، كاشفاً عما وراءها من فعل سياسي أنتج هذا الخطاب بالذات دون غيره، مستشهداً بمئات الأمثلة دوليًا وعربيًا، وفاضحًا المضمر خلفها ودلالتها القريبة والبعيدة، وهو ما يتبدى بوضوح صارخ في الفصل الحادي عشر الذي حمل عنوان «بلاغة السمع وفصاحة الهجاء»، والذي يتضمن مواجهات حادة بين الساسة العرب كان مسرحها مداولات جامعة الدول العربية وتعددت أطرافها بين ليبيا والسعودية والعراق ولبنان ومصر وسوريا، وقد شهدت الأجواء العربية مراحل من السخونة دفعت القذافي إلى تشبيه الحشد الأمريكي في الخليج العربي بالغزو الأمريكي الفاشل لكوبا في الخمسينيات، والذي تمركز في خليج الخنازير، ليرد عليه الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد آنذاك قائلاً: الكذب أمامك والقبر قدامك، أو أن يخاطب أحدهم نظيره بالقول: أنت تتقيأ سمًا، فيرد عليه تعلم كيف تتكلم إلى الكبار، فيرد بدوره: أنا أعلم عشرة من أمثالك، أو أن يصف الرئيس السوري بشار الأسد رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة بأنه عبد مأمور لعبد مأمور.

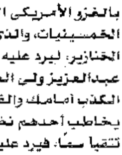
هذه مجرد عينة لاقتران اللغوي بالسياسي وما يمكن أن ينتج عن هذا الاقتران.

⁂

الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن العربية

علي بو عناقة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٢٩٦ صفحة



تحتل قضايا الشباب ومشكلاته حيزاً واسعًا، في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والإعلامية، نظراً إلى أهمية هذه الشريحة في حياة أي مجتمع، ودورها في التغيير والتطوير.

الباحث يتناول في كتابه هذه القضايا الشبابية مركزًا على الجمع المنهجي بين الأطر النظرية والتحقيقات الميدانية، وإذا كان قد اختار الجزائر كحالة للدراسة، فإن ما توصل إليه وما رصده من أفكار وسلوكيات يقدم مساهمة كبيرة يمكن أن يفيد منها باحثون آخرون يهتمون بشئون الشباب في حالات ونماذج أخرى من الوطن العربي.

إن ما يميز منهج هذه الدراسة هو التركيز على تحليل مشكلات الشباب ربطاً بخصائص البيئة التي يعيشون فيها، إذ لا يمكن عزل هذه المشكلات عن الظروف الاجتماعية والمكونات الثقافية، وبالتالي فإنه إذ درس حالة الجزائر، ساهم في الوقت نفسه في تسليط الضوء على مشكلات مشابهة في حياة الشباب العرب.

⁂

الوفاق الوطني والتحول الديمقراطي

وحيد عبدالمجيد

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧، ١٠٦ صفحات



يفترض هذا الكتاب أن المأزق الرئيسي في حياتنا السياسية يعود إلى غياب التوافق العام حول أهم مقومات الدولة، مثل العلاقة بين الدولة والدين، وبين السياسة والدين، وقد كان المؤلف مع آخرين من الرموز الفكرية الوطنية في مصر قد خاضوا تجربة الحوار حول ميثاق للوفاق الوطني امتدت عامي ١٩٩٤ - ١٩٩٥، إلا أنها انتهت بصدام بين الدكتور سعيد النجار (بوصفه علمانيًا) والمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين المستشار مأمون الهضيبي رحمهما الله، وهكذا لم يكتب لهذا الميثاق أن يرى النور برغم الجهود التي بذلها كثيرون من المفكرين المستنيرين الذين شاركوا في الحوار حوله ومنهم المستشار طارق البشري والدكتور محمد سليم العوا والكاتب الصحفي فهمي هويدي، وزعيم حزب التجمع خالد محيي الدين وزعيم حزب الوفد فؤاد سراج الدين والدكتور ميلاد حنا وغيرهم.

المؤلف يؤرخ لهذه التجربة من ناحية، ويشير من ناحية ثانية إلى أن الاتفاق على الإصلاح السياسي مع أهميته القصوى، غير كاف لتحقيق تقدم مطرد في الطريق إلى الديمقراطية ما لم يرافقه تراضٍ عام على أسس النظام الديمقراطي، وهذا التراضي العام هو ما يستلزم توافقاً وطنيًا على عدد من القضايا الكبرى مثل العلاقة بين الدولة والدين وطبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي وآليات تداول السلطة بطريقة ديمقراطية وضمانات الحفاظ على هذه الديمقراطية.

وما يقدمه المؤلف هنا هو مدخل نظري إلى مفهوم التوافق الديمقراطي وتمييزه عن الديمقراطية التوافقية، مشيراً إلى أن هذا التوافق ينقل الحياة السياسية خطوة كبيرة إلى الأمام، ويغير أنماط التفاعلات السياسية ويخلق ديناميكية جديدة، وهذا التوافق لا يمكن تحقيقه دون حوار وطني جامع لا يستثني أحداً.. «بل يضعنا جميعاً أمام مسئوليتنا الوطنية ويمثل اختباراً لمصداقية السلوك الديمقراطي».

⁂

التلصص

صنع الله إبراهيم

القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠٧، ٢٠٢ صفحات



بعد عدة روايات طغى فيها الجانب التوثيقي أو كاد على النص الأدبي (شرف، بيروت بيروت، ذات)، يعود صنع الله إبراهيم إلى كتابة نص أدبي خالص، صحيح أنه يستفيد من التاريخ ووقائعه لكنها تأتي ضمن نسيج النص الذي ينهل من ذاكرة الطفولة ومصر في السنوات الأخيرة من الأربعينيات، فالحكاء هنا طفل في الثامنة أو العاشرة على أقصى تقدير، والأرجح أنه صنع الله إبراهيم نفسه، ينقل لنا الطفل بحياد يشبه عين الكاميرا التي تسجل اللقطات من زوايا رؤية مباشرة دون أن يكون لصاحبها وجهة نظر فيما يراه أو تنقله العدسة، وهي مسألة ينجح فيها المؤلف بدرجة كبيرة جداً، فلا نعثر على مشاهد كثيرة يتخلى فيها الطفل عن طفولته ويترك للراوي «المؤلف» مساحة للرؤية والتقييم وإصدار الأحكام.

يصاحبنا الطفل وأبوه منذ سطور الرواية الأولى إلى نهايتها، وخلال هذه الرحلة نتعرف على الأم التي انتهى بها الحال إلى مستشفى للأمراض العقلية، وقد كانت الزوجة الثانية لأب عمل بالجيش قبل أن يحال إلى التقاعد.

كما نتعرف على أخوات الطفل وجيرانه وأصدقاء أبيه.

والأهم على أحوال مصر السياسية والاجتماعية في السنوات التي سبقت مباشرة قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وكيف كانت الأحوال قد تردت سياسيًا واجتماعيًا وأمنيًا إلى حد أنذر بالفعل بحدوث ثورة لإنقاذ البلد مما يعانيه.

ذاكرة الطفل التي تنقل لنا هذا كله،

لا تتوقف عند هذه الأحداث باعتبارها أحداثا جساما، لكنه يحدثنا عنها بحيادية وكما رآها، وحتى المواقف التى سمح له بمشاهدتها باعتباره طفلاً ولا خوف منه: مثل تنظيف «ماما تحية» والخادمة «فاطمة» لجسدها باستخدام «الحلاوة» وهى عارية تماماً، ينقلها إلينا كما رآها وكما شعر بها فى حينه، وباستثناء مشاعر الطفل الذى يحزن حين يضطر إلى أن يخرج أول أيام العيد وقد ارتدى بيجامة، أو حين يشعر بقدرة رفقائه على ممارسة لهو يعجز هو عنه بسبب اعتلال صحته وفقره، فإن مايراه ويتابعه ويتلصص عليه يحدثنا عنه كما رآه، وحتى أقصى درجات انفعاله وغضبه حين يضبط اباه عارياً يضاجع الخادمة لا تخرج عن لفظة يطلقها سريعاً ويجرى «يلعن أبوكم».

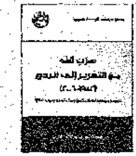
التلصص تجربة فى الحكى وبلاغة الاقتصاد فى اللغة التى تأتى على شكل جمل قصيرة للغاية، تنقل إلينا عالماً نتمنى جميعاً لو نستعيده بمشاعرنا ذاتها لحظة حدوثه.

*

حزب الله من التحرر إلى الردع

عبدالإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١١٠ صفحات



حققت المقاومة اللبنانية وفى القلب منها حزب الله ما عجزت عن تحقيقه المنطقة العربية كلها طوال سنوات اشتباكها مع إسرائيل منذ ما يزيد على نصف قرن، فقد ألحقت هزيمة مذلة بالعدو الصهيونى ودفعته لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى إلى الانسحاب من الأرض بالقوة المسلحة دون مفاوضات.

يقول المؤلف: إذا كان لابد من تفسير لهذه المفارقة، فالأوجب البحث عنه فى عامل آخر غير ميزان القوى وهو المختل اختلالاً كاملاً لصالح العدو، ونزعم أن ما ينبغى الانصراف إلى بحثه والتماس تفسيره، هو العامل الغائب فى الوعى السياسى العربى، والمقولة التى تكاد تكون مجهولة فى أدبياته نعنى: ميزان الإرادات، وهو الميزان الذى صنع انتصار الثورة الجزائرية على الاحتلال الفرنسى، وانتصار الثورة الفيتنامية على الجيش الأمريكى، والذى سوف يصنع بعد الانتصار اللبنانى، انتصارات عربية أخرى على الدولة الصهيونية.

استناداً إلى هذا الإدراك يتتبع المؤلف مسيرة حزب الله وانغماسه فى المقاومة اللبنانية ضد العدو الصهيونى وفقًا لرؤى أيديولوجية محددة تعلى من شأن الشهادة فى سبيل الله والوطن، ويشير إلى تمايزاته عن القوى المقاومة الأخرى طوال تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى خصوصاً فى لبنان، كما يشير إلى ثلاث نتائج حققها انتصار المقاومة اللبنانية على إسرائيل فى حرب الثلاثة وثلاثين يوماً فى الصيف الماضى وهى: أن الانتصار أنعش فكرة الوطن الجامع فى الخيال اللبنانى بعد الذى أصابها من شروخ طوال فترة الحرب الأهلية، وأن وقف الحرب الأهلية أعاد ترتيب أولويات الصراع بين اللبنانيين، فلم تعد الأولوية بالنسبة للكثيرين صراعا على توزيع حصص السلطة على الطوائف بل صراع من أجل استعادة وطن قضمه الاحتلال، وأن المقاومة باتت تستطيع أن تنطلق بثقة بعد أن اطمأنت إلى وقف الحرب الأهلية وقيام السلم المدنى الذى يجعل ظهرها محمياً.

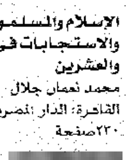
ويؤكد المؤلف فى سياق استعراضه لنشأة حزب الله والمراحل التى يمر بها المنتمون إليه، إلى أن حزب الله فى عز اندفاعاته العقائدية لم يكن مفتقراً أبداً إلى حساسية سياسية واقعية وبرجماتية، يقول: وحدهم الذين يعتقدون ذلك يفتقدون إلى الوعى السياسى.

*

الإسلام والمسلمون.. التحديات والاستجابات فى القرن الحادى والعشرين

محمد نعمان جلال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٣٠صفحة



مفارقات مضحكة، مبكية، لكنها لا تخلو من دلالة جارحة، تلك التى وقف أمامها ورصدها السفير د. محمد نعمان جلال، فى كتابه.

وهى مفارقة توضح حال الأمة الإسلامية الراهن، إنها الفرق بين مطلع القرن العشرين، ومطلع القرن الحادى والعشرين.

ذلك أن القرن العشرين قد بدأ - بالنسبة لتاريخ الإسلام والمسلمين - بشخصيات مثل: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين وآخرين فى شتى المجالات، فى حين بدأ القرن الحادى والعشرون بشخصيات مثل: أسامة بن لادن، وأيمن الظواهرى، والملا عمر، وأبو مصعب الزرقاوى، وشتان الفارق بين النوعين من الشخصيات، ففى الوقت الذى كان فيه الأفغانى ومحمد عبده، يناضلان بالكلمات والدعوة الحسنة لتحرير أوطانهم من الاستعمار والتخلف، ويلجآن إلى الغرب للدفاع عن تلك القضايا العادلة، نجد الآن المسلمين فى الغرب يثيرون المعارك حول ملابس المرأة المسلمة ويشعلون النيران فى السيارات والأملاك الخاصة والعامة.

إن النظر إلى طبيعة القضايا التى يثيرها المسلمون الآن فى علاقتهم بالغرب توضح المدى المتدهور الذى يمثلونه فى سلم الحضارة العالمية، التى تمضى بخطى متسارعة، وفاتنا أن نلحق بها، فنثير الغبار حول معارك وقضايا لا يهتم بها غيرنا.

فهل يرجع تخلفنا هذا إلى ديننا الحنيف الذى يأمرنا بالعمل ويحثنا على العلم والتقدم؟ أم يرجع السبب إلينا نحن أتباع هذا الدين؟

وفى المسافة الفاصلة بين الدين كقيمة حضارية وإنسانية، وبين الاتباع تكمن القضايا التى يدرسها ويناقشها المؤلف، فهو يرى أن المسلمين منذ أمد بعيد يعانون الانفصام رباعى الأبعاد، حيث الدين العظيم فى قيمه ومبادئه من ناحية، والحضارة الإسلامية العريقة التى اتسمت بالانفتاح على حضارات عالمها المعاصر آنذاك، من ناحية ثانية، ثم فترة طويلة من التخلف والجمود الثقافى والفكرى والعلمى، بل والاقتصادى والاجتماعى من ناحية ثالثة، ثم مرحلة ممتدة من الاستبداد الذى يتعارض مع كل المبادئ الإنسانية ويتحدى منطق التطور، وهو ما جعلنا فى نظر العالم تهديداً للحضارة ومصدراً للإرهاب.

عظمة الإسلام.. وتخلف عقل المسلمين، هى - إذن - الحقيقة التى يتأملها بأسى، ساعده فى ذلك خبرته كدبلوماسى، فجاء كتابه هذا دراسة فى السياسة وفى الاجتماع وفى الأخلاق وفى الفكر والثقافة الإسلامية، وفى فلسفة الدين، وسبل تطور الشعوب والأمم، وذلك بالتعايش بين الثقافات والأديان، بديلاً للأفكار الوقتية مثل حوار الأديان وصدام الحضارات.

ومن هنا يصبح الكتاب سياحة فكرية، تعتمد على خبرة واقعية، فى الأحداث العالمية التى كان الإسلام والمسلمون طرفًا فيها.

الكتاب أخيراً محاولة للإجابة عن سؤال غاية فى الأهمية، وهو: لماذا تقدم الآخرون، وتأخر العالم الإسلامى؟ وهو سؤال سبق وطرحه العديد من المفكرين والمهمومين بمصير العالم العربى والإسلامى، وكل منهم طرح رؤيته، ورؤية المؤلف هنا تكمل هذه الأطروحات ولا تتناقض معها.

شخابيط

نبيل خلف

القاهرة: سنابل ٢٠٠٧، ١٤٠ صفحة



ديوان جديد من شعر العامية المصرية يتضمن مجموعة من القصائد التى تعكس عالما من البراءة الكاملة، وتطلعا إلى دنيا تختفى فيها الشعارات الكبيرة والأفكار الثورية لصالح اليقين وتوق الإنسان إلى الحرية بمعناها النقى .. «أنا حلمى مالوش دعوة برأسمال/ ولا استغلال/ وفائض القيمة والعمال/ ولابماركس ولا بسقراط/ أنا بحلم بنوع بشرى بسيط جدا/ بيعرف يعنى إيه يضحك/ بدون ما يدلك العضلات/ عشان ما يفتح الشفتين/ ويتبسم/ بدون شمة من الكوكايين/ أو الهيروين».

وفى قصائد عديدة يتبدى لنا وجه الشاعر الطفولى وخبراته المتراكمة فى الكتابة للطفل، إذ سبق له أن كتب مسرحيات وكتبا عديدة للأطفال حازت جوائز عالمية ومحلية، وهو يستدعى فى هذه القصائد تلك الروح بما تنطوى عليه من تشبث مبهر بعالم الأساطير والحكايات القديمة .. «ياعروسة البحر ياكركوبة/ أنا بحلم ولا فى غيبوبة/ أنا تحت البحر سعيد وقنوع/ عيل مشروع/ يحضنى الجوع/ يقطم تفاحتى المعطوبة».

ونقرأ فى قصيدة أخرى: «يا هلالى ياحدوة لحصانى/ دى حلاوة القلب/ على لسانى/ إنما وطنى فى حجرى/ لما أجرى/ ومانيش راسمالى/ ولاأجرى».

*

الليبرالية والمجتمع المصرى (الأزمة والدليل)

د. رفعت لقوشة

تم طبع هذا الكتاب بدعم من مؤسسة فريدريش ناومان الألمانية بالقاهرة



تمر مصر حاليا بالتحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية التى حاليا تتمثل فى التوجه نحو اندماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد العالمى وثورة من التشريعات المؤثرة على الحرية

السياسية والممارسة الديمقراطية، من هنا وجب مناقشة الفكر الليبرالي بالإضافة إلى تقييم دوره في المرحلة السابقة وتحديد نقاط القوة والضعف فيه والكتاب يدافع عن الفكر الليبرالي وينقده من منطلق تحسين الأداء في هذا الاتجاه. من أهم القضايا والتساؤلات التي يثيرها الكاتب ما يلي:

أولاً: ما الأهمية النسبية للفكر الليبرالي في مصر، وهل نجح الليبراليون المصريون في طرح هذا الفكر بما يخدم قضايا التنمية في مصر؟

ثانياً: ما هي المحاور التي تجعل الليبراليين أكثر قرباً لتحقيق مطامع القاعدة السياسية بما يسهم في تعظيم الاستفادة من الليبراليين في خدمة قضايا التنمية في مصر؟

ثالثاً: هل لدى المواطن المصري الوعي الكافي بالفكر الليبرالي ودوره في التأثير على حياته؟

رابعاً: ما العلاقة بين المجتمع المدني والفكر الليبرالي؟

خامساً: ما أولويات الأجندة الليبرالية في مصر، هل اختيار بديل لدعم المجتمع المدني الليبرالي أم تبني أحزاب ليبرالية؟

سادساً: ما هي طبيعة العلاقة بين الليبرالية والإسلام؟

❊

العقل والبرهان في القرآن

عدنان دياب

بيروت: المؤلف، ٢٠٠٦، ٤١٧ صفحة



منذ بدء الخليقة، كان البحث عن علة الوجود وغايته سؤالاً مؤرقاً، ولهذا كانت الديانات وكان الرسل، وقد اضطلع الدين والفلسفة بدور مهم في الإجابة عن تلك التساؤلات أو محاولة الإجابة عليها كل بطريقته الخاصة.

ومع التقدم العلمي المذهل والتوصل للعديد من الإجابات حول أسرار الجسم البشري والكون في عمومه، دخل العلم طرفاً في المعادلة، وصار ممكناً له أن يقدم جانباً آخر من الصورة استناداً إلى التجريب وإلى التفكير العلمي في صورته التي نقلت العالم من الظلام إلى النور.

ولأن حقائق العلم نسبية وحقائق الدين مطلقة، فقد وضع الدين دائماً في مواجهة العلم، وحمل بعض من رجال الدين الراية لمعاداة العلم وتنبيه الناس له باعتباره رجساً من عمل الشيطان، ويروي لنا التاريخ عن كثير من العلماء الذين أوذوا وسجنوا وقتلوا لأنهم خرجوا بنتائج علمية لم يستوعبها رجال الدين في حينها، واعتبروها هرطقة ومعاداة للدين.

وما يؤكد عليه المؤلف هنا، وهو طبيب أساساً، أن العلم في ذاته دين يعلم الناس كيف يكتشفون الخالق في خلقه، وهو يبحث عن فهم العالم لتفسيره، وهو وسيلة القرآن التي اختارها رب العالمين للبرهان على وجوده، وهو محاولة - كما يقول المؤلف - لفتح باب أغلق منذ زمن طويل، مفاده أن لا حقيقة خارج العلم المادي ونظام العقل في الطبيعة، والدين لا يهاب دخول العقل عليه، بل هو على العكس من ذلك لأن الله أنزله ليحاور به عقول الناس.

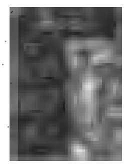
والكتاب عبارة عن اثني عشر باباً، على النحو التالي: الديانات الجاهلية، الإسلام، الثقافة، حقيقة الروح في القرآن، التفسير والتأويل والتشابه، عذاب القبر، السنة، عصمة الأنبياء، الشفاعة، العرش والاستواء والكرسي، آدم، وباب أخير يضم فصولاً شتى: أهل البيت والرجم والقضاء عن الأموات وآمين.

❊

دوريات

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي



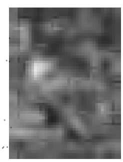
يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية مقالاً للشاعر أدونيس تحت عنوان «أهل البدع.. أهل الإبداع»، وهي رؤية يناقش فيها الشاعر العربي الكبير المشكلات التي ترتبط بالنشاط الفكري وبالآراء السياسية للمبدع، ويشير إلى وقائع محددة جرت في أسبوع اليمامة الثقافي في نوفمبر الماضي.

تقدم هناء إبراهيم أيضا شهادتها عن الحجاب الذي أجبرت عليه حين كانت في بداية المرحلة الثانوية، وكيف انتهى بها الأمر الآن. وكيف دفعها ذلك إلى الاهتمام بأشكال الحجاب ودرجاته وأزياله.

بالعدد أيضاً دراسة نقدية عن رواية نعيم صبري «روبابيكيا» الصادرة عام ٢٠٠٥، ودراسة عن شعر نزار قباني وأخرى عن رواية صنع الله إبراهيم الأخيرة «تلصص» وحوار مع الشاعر محمد آدم. إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية وأبواب المجلة الثابتة.

دبي الثقافية

دبي: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع



بانوراما العدد عن مهرجان مسقط ويركز بالذات على التراث العماني، وأيضاً من تونس تحقيق عن قصر النجمة الزهراء، ومن موسكو تحقيق آخر عن الكرملين.

يتضمن العدد أيضا تحقيقاً عن شاعرات لبنانيات أصدرن مئات القصائد ونشرنها في صحف ومجلات لكنهن يرفضن نشرها في دواوين.

ويكتب رجاء النقاش مقالاً عن القاص عادل كامل الذي بدأ مع نجيب محفوظ وكان موهبة واعدة لكنه توقف تماماً بعد ثلاث تجارب إبداعية مهمة في العام ١٩٤٢ ولم تكن سنه قد تجاوزت بعد السادسة والعشرين.

بالعدد حوارات مع الكاتب الإماراتي عبدالخالق عبدالله والمفكر المالي مامادو دوكورو وثالث مع المخرج السوري نبيل المالح، وفي المسرح موضوع عن المسرح اللبناني، وفي السينما لقاء مع الأب الشرعي للسينما التونسية عمار الخليفي، إضافة إلى مقالات أحمد عبدالمعطي حجازي وأدونيس وعبدالعزيز المقالح وغيرهم.

مدار

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية عدد ٣٧



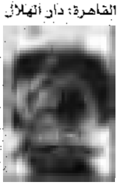
يشتمل هذا العدد من «أوراق إسرائيلية» على وثيقتين أعدهما مركز أدفا - معلومات حول المساواة والعدالة الاجتماعية في إسرائيل: الأولى حول صورة الوضع الاجتماعي في إسرائيل العام ٢٠٠٦، والثانية حول الموازنة الإسرائيلية في العام ٢٠٠٧، التي تضمنت تغطية تكاليف الحرب على لبنان.

والنتيجة التي يتوصل إليها هذا المركز في وثيقته الثانية الوثيقة الصلة بالأولى، هي أن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الحالي بات من شبه المؤكد أن يرتسم بكونه عقداً اجتماعياً مفقوداً من ناحية إسرائيل. فالتقليصات المقررة العام ٢٠٠٧ في الخدمات الاجتماعية وشبكة الضمان الاجتماعي بحجة تغطية تكاليف الحرب، وتلك المتوقعة العام ٢٠٠٨، تضاف إلى تقليصات عميقة في الموازنة تم تنفيذها في الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٤. وإذا ما تم ربط كل هذه التقليصات فإن الخلاصة المطلوبة هي أن العقد الحالي سيكون عقداً كاملاً من الانكفاء الاجتماعي في مجالات التعليم، التعليم العالي، الصحة، السكن و الرفاه والضمان الاجتماعي.

❊

الهلال

القاهرة: دار الهلال



الملف الرئيسي لهذا العدد عن الدين والسياسة، وهي الإشكالية التي مازالت مثارة مع بدايات القرن الحادي والعشرين، كلما كانت كذلك في بدايات القرن الماضي.

يكتب في الملف الدكتور محمود إسماعيل عن تسييس الإسلام، ويكتب د. رمسيس عوض عن محاكم التفتيش وعبدالمعطي بيومي «التفسير بالنص»، ويكتب الأمين العام لحزب التجمع الدكتور رفعت السعيد «جماعة الإخوان.. مرجعية متأسلمة»، ويكتب وائل غالي «خطر على الثقافة المصرية».

إلى ذلك يتضمن العدد موضوعات أخرى بينها دراسة للشاعر محمد إبراهيم أبوسنة عنوانها «رؤية نقدية للشعر العربي»، وأحمد حسين الطماوي عن «مي وعشاقها»، إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية ونقدية.

السياسة والعمارة

خروجاً عن المعتاد يجيء كتاب «الحجر والصولجان.. السياسة والعمارة الإسلامية» ليقدم لنا رؤية للعلاقة البينية بين السياسة والعمارة، لاشك أنها جريئة وتشكل حدثًا يستحق أن نقف عنده كثيرا، المؤلف ذكر في مقدمة كتابه أن جدلاً ثار حول مادة هذا الكتاب حينما قدمها كجزء من أطروحته لمناقشتها كاد يفضي إلى عدم مناقشة الرسالة، حيث أصرت لجنة التحكيم على حذف كافة فصول هذا الكتاب، ينطلق من إثارة تساؤلات حول العمارة الإسلامية والسلطة بمكوناتها المختلفة.. السلطان ورجاله.. المجتمع وقواه الفاعلة والخاملة.. المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الطرفين، تفاعلات متبادلة تعكس روح كل عصر وطبيعته، فجدلية العلاقة فرضت وجود مؤسسة الأوقاف التي من المفترض أنها تؤدي دوراً مهماً، يوازي بعض أدوار الدولة المعاصرة حالياً، وبعض أدوار المجتمع المدني المعاصر، لكن انظر كيف كان وعي أهل الصولجان لكيفية توظيف هذه المؤسسة لتأمين معاش دائم لذريتهم، حيث إن الأوقاف محرم شرعا مصادرتها، ومن ناحية أخرى لتوظيف العلماء ليكونوا موظفين لدى السلطة يأتمرون بأمر الواقف صاحب السلطة، هكذا جاءت العديد من المنشآت الدينية لتعبر في الوقت ذاته عن هيبة الدولة وعظمتها وقوتها، كما نرى في مدرسة السلطان حسن وجامع محمد علي.

كانت الأوقاف هي المحرك الوحيد لحركة العمران داخل المجتمع والواسطة بين السلطة بثرائها، والتجار وثرائهم، وبين الفقراء من خلال تقديمها للخدمات الاجتماعية إلى المجتمع، فلم يكن في القديم للدولة دور في تقديم الخدمات الاجتماعية بل يتوقف دورها عند حفظ الأنفس وإقامة المشاريع الكبرى التي تضمن زيادة ريع الدولة من الضرائب كشق الترع وإقامة الجسور والسدود وتأمين الطرق، ولما كانت الأوقاف تنبع من المجتمع وإليه فقد حقق المجتمع استقلالية نسبية في شئونه.

في هذا الكتاب سيجد القارئ محاولة لاستكشاف معامل القيمة ودوره في العمارة الإسلامية، فهذا المعامل هو أخلاقي رفيع نراه في أحكام طبقت من خلال فقه العمارة، فأنتجت صياغات جمالية من حيث مظهرها، لكن هذه الجمالية الشكلية تحمل في طياتها مضموناً قيمياً غير ظاهر للعيان، لكن الدراسة الدقيقة تكشف عنه، وعلى هذا فالفرد المتلقي للعمارة هو إنسان مرهف الحس يدرك ما تحمله من معان مركبة، وسيجد القارئ تارة نفسه بين طرز معمارية مختلفة من دولة لدولة كل منها يحمل بين جنباته سمة هذه الدولة أو تلك، وتعكس العمارة هيبة الدولة وقدرتها بل تعكس قدرة الدولة الاقتصادية وإرادتها السياسية. هكذا تتحدث العمارة فهي ليست حجراً بل رداء للحياة وذاكرة حية للمجتمعات.

تعددت المناهج التي درست العمارة الإسلامية، ومعظمها درس من منظور بسيط غير مركب، وهو ما أدى إلى أحادية النظرة لهذه العمارة، وبالتالي قصور في إدراك ماهيتها. وكانت معظم الدراسات خلال العقود الماضية تركز على الدراسة الوصفية التي ترسم الشكل المعماري من خلال الكلمات، دون البحث عن البنية التي صاغت هذه العمارة ونحتت زخارفها المبهرة نحتًا يخطف الأبصار أو تأصيل عناصرها المعمارية و الزخرفية إلى أن تصل أحياناً بها إلى عمارة ما قبل الإسلام، دون أن يدرك هذا المنهج التأصيلي أن هناك بوتقة صهرت فيها هذه العناصر، وأعيد إنتاجها مرة أخرى بما يتوافق مع روح الحضارة الإسلامية، بطريقة تحمل في أغلب الأحوال إبداعاً يفوق ابتكار العنصر نفسه، إذن فنحن أمام عدد من مستويات الدراسة ومحدداتها لكي نستطيع أن ندرس العمارة الإسلامية، وأول هذه المحددات هو تحديد بنية العمارة الإسلامية، ونحن نقصد هنا بالبنية العلاقة المتشابكة بين المكونات المادية والفكرية للعمارة، فالبنية هنا تربط بين الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه، لذا فهي تعد القانون الذي يضبط هذه العلاقة.

يجب هنا التمييز بين (البنية السطحية) و(البنية العميقة)، فالبنية السطحية هي كل هيكل الشيء ووحدته المادية الظاهرة، أما البنية العميقة فهي كامنة في صميم الشيء، وهي التي تمنح الظاهرة هويتها وتضفي عليها خصوصيتها. وعادة ما يعي المرء إدراك البنية السطحية المادية المباشرة، فإدراكها أمر متيسر، أما إدراك البنية الكامنة فهو أمر أكثر صعوبة يتطلب استخدام الحواس وإعمال العقل والخيال والحدس، لذا عادة ما يعيش البشر داخل بنى اجتماعية وتاريخية واقتصادية يستبطونها فتؤثر في سلوكهم وتشكيل رؤيتهم للكون وتحدد خطابهم الحضاري دون وعي منهم.



لذا لكي نصل إلى بنية العمارة الإسلامية، يجب أن نفك هذه العمارة، ونعيد تركيبها مرة أخرى، وعبارة فك الشيء تعني فصله وفرق أجزائه بعضها عن بعض، وعكسها (ركب الشيء) أي جعل الشيء بعضه فوق بعض وضمه إلى غيره- وهذه العملية تهدف إلى فصل مكونات العمارة، ثم إعادة ضمها إلى بعضها من خلال نموذج تفسيري يوضح هذه العملية، وبذلك يمكن الوصول إلى ماهية العمارة الإسلامية.

وتعتمد هذه الدراسة في بناء النموذج التفسيري على دراسة العلاقة بين التحول السياسي، والذي يعني انتقال السلطة من جماعة سياسية إلى أخرى، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون العصبية السياسية التي تقوم عليها الدول، على نحو ما حدث من انتقال للسلطة من الأيوبيين إلى المماليك في مصر، ومن المماليك إلى العثمانيين ثم إلى محمد على وأسرته.

وهذا الانتقال عادة ما يصاحبه تغير في نمط أو طرز العمارة وفي تخطيط المدن، ولا يكون مثل هذا التغير سريع الحدوث، بل يأخذ وقتًا من الزمن، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها). ونستطيع أن نترجم هذه العبارة معماريا بأن الطراز المعماري المميز لأي عصر لابد له من وقت لكي تتضح معالمه، وهذا التميز المصاحب لأي طراز لابد أن ينشأ في ظل استقرار سياسي يتيح للمعماري الإبداع.

وهناك مستويات من البنى تحدد العلاقة بين العمارة والسياسة:

المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسي، وهو يمثل البنية السطحية، وفي هذا المستوى تكون العمارة سجلاً للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها، أو حدثت في المنشأ المعماري، أو تركت أثرها عليها، ومن أمثلة ذلك باب زويلة الذي شيد في العصر الفاطمي ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين بالعاصمة المصرية، وكان ذا وظيفة حربية، إذ إنه كان يغلق على الحصن الذي كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

المستوى الثاني: الرمزية السياسية للعمارة، وهو يمثل أحد جانبي البنية العميقة، في هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع في العمارة الإسلامية، تتمثل هذه الرمزية في عدد من المدلولات المعمارية، يحمل بعضها مضمونا حضاريا وبعضها الآخر مضمونا سلطويا سياسيا، ويجمع بينهما أحيانا بعض العمائر ذات الدلالات المتعددة، تعد قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف حولها أبرز العمائر التي تحمل مضامين حضارية. يعود تشييد القبة إلى العصر الأموي، الذي شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم، اتخذ هذا النزاع صورا متعددة، منها تعريب طراز أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر، وتعريب للنقود في إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الديني والسياسي للمسلمين، ورغبته في إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة في شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والثائرين فكان الإصلاح النقدي سببا مهما في القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسي. فضلا عن أن النقد العربي الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادي البيزنطي، لذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادي بتعريب النقود، فضلا عما يتيحه هذا من توحيد النظام النقدي في دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضي.

اتجه عبد الملك بن مروان في إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التي ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكري، ففي القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسي ديني حضاري، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسي الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين، وما قد تحدثه عمارة الكنائس في نفوس بعض المسلمين، ورغبة عبد الملك في إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

الحجر والصولجان.. السياسة والعمارة الإسلامية
خالد عزب - دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٩٠ صفحة.

Step on a Crack

(أخطو فوق الشرخ)

James Patterson & Michael Ledivdge

Little, Brown and Company: 400pp, $27.99, 2007



اشترك كاتبان في كتابة هذه الرواية البوليسية التي تدور حول احتجاز مجموعة من المسلحين لجميع الحاضرين في جنازة زوجة رئيس سابق للولايات المتحدة. يتولى مسئولية القضية أحد ضباط الشرطة المختصين بقضايا القتل مهمة المفاوضة مع المختطفين الذين يطلقون سراح الجميع ما عدا بعض المشاهير ويطلبون بضعة ملايين من الدولارات من كل شخص من المحتجزين. يفاوضهم رجل الشرطة مايكل بين زياراته لزوجته التي تحتضر في المستشفى وبين زياراته لأولاده العشرة الذين تبناهم هو وزوجته والذين ينتمون للعديد من الأعراق والجنسيات. رواية بوليسية ودرامية في نفس الوقت. يستحوذ جيمس بيترسون وحده على كل الإطراء والنقد فيما يخص هذه الرواية مع انه اشترك في كتابتها مع مايكل لودويج إلا أن شهرة بيترسون كانت هي الطاغية.

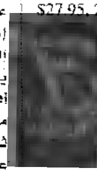
*

Hannibal Rising

(هانيبال يصعد)

Thomas Harris

Delacorte Press: 336pp, $27.95, 2006



هانيبال لكتر من أكثر الشخصيات الروائية إثارة للخيال ومن أشرسها وأكثرها شرا على الإطلاق. كتب عنه كتابان في السابق تحولا إلى أفلام شهيرة. هذا الكتاب هو الثالث في السلسلة ولكنه الأول زمنيا، حيث يصف نشأة هانيبال ليكتر والعوامل النفسية والحياتية التي أدت إلى تحوله إلى آكل لحوم البشر الشهير. تصف الرواية الجديدة مقتل شقيقة هانيبال لكتر الصغيرة والتي كان يحبها جدا، خلال الحرب العالمية الثانية بقدر كبير من التفاصيل المزعجة كما يصف حب لكتر لزوجة عمه اليابانية. تتابع الرواية مسيرة لكتر في الانتقام من يرى أنهم مسئولون عن مقتل شقيقته وتعتمد في سرد الأحداث على ذاكرته التي أسقط منها الكثير، كما تعتمد على سجلات الشرطة والحرب والشهادات الشخصية وتقارير الطب الشرعي. لا يحمل هذا الجزء الكثير من تشويق الأجزاء السابقة كالعادة في السلاسل الناجحة. ودائما ما تبدو أجزاء السلسلة، خاصة بداية من الجزء الثالث وكأنها مجرد استثمار للنجاح السابق.

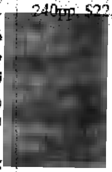
*

Long Way Gone: Memoirs A of a Boy Soldier

(طريق طويل تم قطعه: مذكرات جندي طفل)

Ishmael Beah

Farrar, Straus & Giroux: 240pp, $22, 2007



يكتب إسماعيل بيا عن تجربته كأحد الجنود الأطفال في سيراليون. وهو ليس حالة نادرة أو استثنائية فظاهرة خطف الأطفال وتحويلهم إلى جنود في حروب أهلية اتسمت بشدة القسوة هي ظاهرة انتشرت بكثرة مخيفة في عدة دول أفريقية. ويشكل كتاب بيا شهادة نادرة يحكي فيها كيفية تحوله من طفل عادي مغرم بموسيقى الهيب هوب الأمريكية إلى لاجئ فقد عائلته ويتنقل بشكل عشوائي من قرية إلى أخرى. تختطف إحدى الميليشيات بيا وتجبره على التحول إلى أحد الأطفال المقاتلين الذين يعيشون تحت تأثير المخدرات ويرتكبون أفظع جرائم الحرب ولكنه يصل بشكل ما إلى مركز من مراكز إعادة التأهيل بعد ثلاث سنوات وهو في الخامسة عشرة من عمره ثم يجد عائلته ويرحل معهم إلى العاصمة حيث يعيشون جميعا مع أحد أقاربهم. في عمر السابعة عشرة تنتقل الحرب الأهلية إلى العاصمة فيصبح على بيا الهرب مرة أخرى حيث ينتهي به الحال كلاجئ في الولايات المتحدة الأمريكية. ولا تكمن أهمية الكتاب في التجربة التي يرصدها فقط وإنما في الأسلوب الأدبي الواضح الذي نجح بيا في استخدامه وفي رؤيته للحياة التي تتسم بالتفاؤل برغم التجربة شديدة القسوة التي مر بها

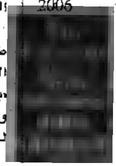
*

The Innocent Man: Murder and Injustice in a Small Town

(الرجل البريء، القتل والظلم في بلدة صغيرة)

John Grisham

Doubleday: 3368pp, $28.95, 2006



يكتب جون جريشام، كاتب الروايات البوليسية الشهير، كتابه الأول خارج مجال الأعمال الأدبية ولكنه لا يبتعد عن مجاله فالكتاب تحقيق صحفي مطول عن اتهام لاعب البيسبول رون وليمسون بجريمة اغتصاب وقتل قضى بسببها عشرين عاما في السجن بانتظار تنفيذ حكم بإعدامه قبل أن تظهر براءته. ولقد زاد من معاناة وليمسون إصابته باضطراب عقلي مما جعل الكتاب رغم أسلوبه التقريري لا يقل تشويقا عن روايات جريشام التي تتصدر قوائم أكثر الكتب مبيعا بشكل دوري. ويستغل جريشام دراسته للقانون وعمله السابق كمحام في القضايا الجنائية لإعادة ترتيب أوراق القضية ومحاولة استخلاص معلومات جديدة. كما أنه زار البلدة التي عاش بها وليمسون أغلب حياته والتي وقعت فيها الجريمة وأجرى العديد من المقابلات مع أطراف كانت لهم علاقة بالجريمة ومازالوا على قيد الحياة. ويقول جريشام إن العمل على هذا الكتاب لفت نظره إلى حجم الكارثة في الأحكام الخاطئة ولأهمية التأهيل النفسي لمن تصدر ضدهم أحكام ظالمة وهو ما لم ينتبه له بنفس الدرجة عندما كان يعمل بالمحاماة

*

Nineteen Minutes: A novel

(تسع عشرة دقيقة)

Jodi Picoult

Atria, $26.95, 464PP., 2007



الكاتبة الروائية «جودي بيكولت»، صاحبة الأعمال الرائجة (مراقب أختي والدائرة العاشرة)، تأتي برواية جديدة ترتبط في بعض الشخصيات مع رواياتها القديمة. بلدة صغيرة بأستراليا، تعيش حياة هادئة، لا تعرف الجريمة ولا تعتاد العنف في تسع عشرة دقيقة فقط، كان هناك عشرة قتلى، وتسعة عشر جريحا، نتيجة لإطلاق نار عشوائي على مدرسة ثانوية بها، لتهتز البلدة الصغيرة نتيجة لهذا العمل الوحشي.

الجاني «بيتر» هو مجرد طالب من طلاب المدرسة، يقبض عليه المحقق القادم من روايات «بيكولت» السابقة «باتريك دوشارد» ليقدمه للمحاكمة، وليتقدم المحامي «جوردون مكافي» للدفاع عنه.

«اليكس كورنير» القاضية، تحاول المحافظة على موضوعيتها، في مواجهة شهادة ابنتها صديقة «بيتر» منذ الطفولة، والتي تعمد عدم إيذائها بينما كانت وسط الحشد، وإن كان قد قتل صديقها.

*

The Fiber35 Diet

(حمية الألياف)

Brenda Watson , Leonard Smith

Free Press, $26.00, 320PP, 2007



شهدت الحميات الغذائية تحولا كبيرا في العقود الأخيرة، وأصبح أساس الحمية هو الأطعمة المنزوعة الدسم وذات السكريات المصفاة، وبعد الناس عن الأطعمة الطبيعية المليئة بالألياف من فاكهة وخضروات وبقوليات وحبوب.

في هذا الكتاب تدعو الكاتبة «براندا واتسون» إلى حمية غذائية تبنى على الألياف فقط، فهي: بالإضافة إلى مساعدتها في الوقاية من معظم أمراض العصر مثل السكر والسرطان وأمراض القلب، تساعد على الشبع وتقليل الإحساس بالجوع، كما تقلل أيضا من مستوى السعرات الحرارية.

حمية «واتسون» الغذائية تضمن تقليل الوزن بأقل مجهود، إذا ما واظب المرء على أكل ما يحتوي على خمسة وثلاثين جراما من الألياف يوميا، فقد ثبت طبيا أن تلك الجرامات ستساعد على تقليل الوزن في وقت قياسي، كما ستساعد على الحفاظ عليه مثاليا.

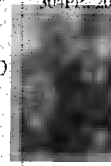
الكتاب يحتوي على وصفات متعددة لوجبات اليوم المختلفة، مع وصفات أخرى تعتمد على قدر الوزن المراد تقليله.

*

In an Instant

(فى لحظة)

Lee Woodruff, Bob Woodruff
Random House, $25.95,
304PP., 2007



فى يناير من عام ٢٠٠٦ كان الزوجان «بوب» و«لى» يعتبران نفسيهما من أسعد الأزواج فى العالم، «بوب» عين كمراسل لشبكة «ايه بى سى» فى العراق، مما كان يعتبر ترقية له، ورقيت أيضا زوجته «لى» فى عملها فى العلاقات العامة، ولكن، ومع أول أيام بوب فى العراق، فُجرت قنبلة بجانب العربة التى كان يستقلها هو والمصور المصاحب له، كادت أن تتسبب فى قتلهما، ولكنها أصابته إصابة غائرة فى المخ.

لم تكن عودة «بوب» إلى بيته نهاية مأساتهما، بل كانت البداية الحقيقية لها، ففى لحظة تحولت حياتهما تماما، فبوب يحتاج إلى فترة طويلة كى يتعافى من إصابته، وهو بالقطع يحتاج إلى مساندة زوجته، التى تواجه فى الوقت نفسه تحديات فى العمل وتحدى أمومتها لأربعة أطفال.

الكتاب مليء بالمشاعر العميقة، وقصة كفاح قوية، اعتمدت على محاولة الصمود أمام كل الضغوط.

The Last Link

(الرابطة الأخيرة)

Gregg Crawford
Greenleaf Book Group Press,
$21.95, 224PP., 2007,



يحجب اسم الكتاب المبهم حقيقة ما يدور حوله، فهو يدور حول كيف يستطيع رجال المبيعات ومديروهم دعم استراتيجيات شركاتهم عن طريق زيادة المبيعات.

طور «كراوفورد» نموذجا جديدا ثلاثى الأبعاد لمحاولة جعل المبيعات تتفق مع الاستراتيجيات العامة للشركة وتحقق أهدافها المحورية، ويتكون هذا النموذج من المعلومات والحوار والتدريب على إتمام الاتفاقات.

الكتاب ينتهى بمجموعة من أكثر الأخطاء انتشارا بين رجال المبيعات وطرق تفاديها.

How Doctors Think

(كيف يفكر الأطباء)

Jerome Groopman
Houghton Mifflin Company,
$26.00, 320PP, 2007



لماذا يخطئ بعض الأطباء أحيانا، ولماذا يصيب البعض، وكيف تتدخل أحيانا شخصية الطبيب الخاصة بشكل لا يدركه فى تشخيص الأمراض، فى هذا الكتاب طبيب مخضرم يكتب عن طريقة الأطباء فى تشخيص الأمراض وإعطاء العلاج والإرشادات.

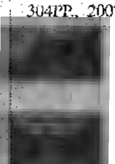
هل للمريض دور فى صحة تشخيص الطبيب لمرضه، وكيف يمكن للمريض أن يصف أعراض مرضه بأدق طريقة ممكنة.

العديد من القصص الحقيقية، والتجارب الغنية ومحاولة لتحليل شخصية الطبيب كتاب مفيد لكل من الأطباء والمرضى على حد سواء.

Religious Literacy

(محو الأمية الدينية)

Stephen Prothero
HarperSanFrancisco, $24.95,
304PP., 2007



الولايات المتحدة من أكثر الدول تدينا، ولكنها أمة جاهلة دينيا، فعلى سبيل المثال: لا يستطيع تسعون بالمائة من المراهقين تسمية الأديان الخمسة الرئيسية فى العالم، بل ويصل الأمر إلى أن خمسة عشر بالمائة لا يستطيع ذكر دين واحد من الخمسة.

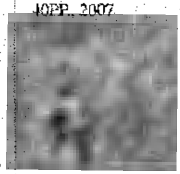
أيضا يعتقد ثلثا الشعب الأمريكى بأن الإنجيل يحمل كل أجوبة أسئلة الحياة اليومية، على الرغم من أن نصف الشعب الأمريكى لا يستطيع ذكر اسم واحد من الأناجيل الأربعة، ونتيجة لتلك الثقافة الدينية الضحلة، تفقد معظم العبارات الدينية الشحنة فى خطابات السياسيين معانيها، ويساء فهمها.

عالم الدين «ستيفن بروثيرو» يقول فى كتابه «أمامنا مشكلة مدنية رئيسية» وينادى لحلها عن طريق إعادة تدريس الدين فى المدارس العامة الأمريكية.

Someday

(يوما ما)

Alison McGhee (Author),
Peter H. Reynolds (Illustrator)
Baby-Preschool, $14.99,
40PP., 2007



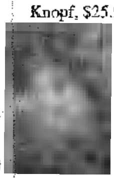
كتاب جديد للأطفال مفعم بالمشاعر المرهفة، يصور قصة حب أم لابنتها فى سرد مصور للحظات يومية تعيشها الأم مع طفلتها.

حلم الأم، وكل أم، لابنتها أن تعيش وتحس متعة الحياة، سبيل تحقيقه الوحيد هو الحب.

Whitethorn Woods

(غابة وايتثورن)

Maeve Binchy
Knopf, $25.95, 352PP., 2007



«روزمور» قرية أيرلندية هادئة صغيرة تتاخم حدود غابة وايتثورن، وتكتسب شهرتها القليلة بسبب قربها من بئر القديس آن وضريحه الذى يقصده العديد من الأهليين والمؤمنين بالمكان وقدرته على تحقيق المعجزات.

ولكن هدوء القرية يختفى نتيجة انقسامهم بين مؤيد ومعارض لفكرة إنشاء طريق سريع يمر عبر الغابة، مما سيؤدى إلى تدمير الضريح؛ لذا تندلع الصراعات بين المؤمنين بالضريح وبين المشككين فيه.

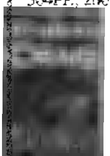
الضريح يوجد فى أبرشية الأب «بريان فلين»، راعى أبرشية القديس «أوغسطين»، الذى لا يعرف إلى أى الجانبين يجب أن ينضم، مما يدفع به إلى الذهاب إلى الضريح ليصلى علّه يسمع صوتا يوجهه.

الروائية «مايف بنشى» تجسد الصراع الدينى العلمانى فى روايتها، كما تأخذنا فى رحلة مليئة بالمشاعر الصادقة، وعالم من المعجزات.

The Watchman

(الحــــارس)

Robert Crais
Simon & Schuster, $25.95,
304PP., 2007



«لاركين باركيفى» سيدة أمريكية من عائلة غنية تعيش بلوس أنجلوس، تجد نفسها تحت الحماية الفيدرالية، بعد نجاتها من محاولة قتلها فى حادث سيارة خطير تعرضت له نتيجة مشاهدتها لشىء كادت مشاهدته أن تكلفها حياتها.

ورغم الحماية إلا أنها تتعرض لمحاولة أخرى للقتل، نتيجة تعاون أحد الرجال المكلفين بحمايتها مع العصابة التى تحاول قتلها، مما يدفع المباحث الفيدرالية إلى استئجار «جوى بايك» الجندى السابق بالبحرية الأمريكية ليقوم بحمايتها، فيهرب بها ويخفيها بعد محاولة أخرى لقتلها خلفت ثلاثة قتلى من المهاجمين.

«الفيس كول» المحقق الخاص وصديق «جوى»، يبدأ فى التنقيب عن أى خيط يقوده للقتلة، ويكتشف العديد من المفاجآت المثيرة فى العالم السفلى لتجارة المخدرات.

Dog Years

(سنوات كلب)

Mark Doty
HarperCollins, $23.95,
224PP, 2007



قصة حقيقية وعمل رائع، يعكس الشاعر نحو الحيوانات والدروس التى تُعلمنا إياها حول الحياة والحب، ويتأمل فى الطاقة والبهجة التى تجلبها لحياة المرء.

Egypt as a Woman

(مصر كامرأة)

Beth Baron
University of California
Press, $24.95, 302PP., 2007



هذا العمل التاريخى، يوضح تأثير الفروق الجنسية فى التاريخ المصرى من القرن التاسع عشر مرورا بثورة ١٩١٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

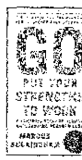
الكاتبة بيث بارون، تقسم كتابها إلى قسمين: الأول يحلل صورة الأمة والفروق الجنسية فيها، والثانى يوضح النشاطات السياسية القومية للمرأة المصرية، ومن خلال القسمين توضح كيف أنه على الرغم من استبعاد النساء من الحكومات المختلفة التى حكمت مصر فى ذلك الوقت، إلا أن الساحة كانت مليئة بالعديد من الرموز النسائية اللاتى كافحن من أجل استقلال وطنهن.

※

Go Put Your Strengths to Work

(ضع قواك فى العمل)

Marcus Buckingham
Free Press, $30.00, 320PP.,
2007



أثبتت الإحصاءات أن فقط سبعة عشر بالمائة من القوة العاملة يعتقدون أنهم يبذلون كل قواهم فى العمل بينما لا يبذل الباقون كل قواهم بالعمل لأنهم لا يستطيعون توظيفها لتخدم سير العمل.

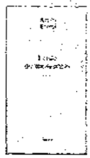
فى هذا الكتاب يحاول ماركوس بيكنجهام دفعك لبذل قواك كلها فى العمل من خلال ست خطوات تستطيع تنفيذها فى ستة أسابيع. من خلال هذا الكتاب تستطيع أن تعرف لماذا قواك ليست ما أنت ماهر فيه ولماذا نقاط ضعفك ليست ما أنت سيئ فيه، وكيف تستطيع تحديد قوتك، وما هى الخطوات التى يمكن أن تتخذها كل أسبوع لتدفع وقتك تجاه النشاطات التى تقويك فيه. كما يعلمك كيف تتكلم عن نقاط قوتك أمام مديرك وزملائك بدون أن تبدو أنك تتفاخر.

※

Festin de Mensonges

(وليمة كذب)

Amin Zaoui
Fayard



أفضل ممارسة الغرام مع النساء الناضجات، ولعل ذلك نتيجة علاقتى بخالتى التوأم التى قضت بكارتى. فى الشونة التى كنا نلتقى فيها. كانت تكبر بصوت مرتفع عند بلوغ الذروة. التقيت الكثير من النساء وكانت كل واحدة تعلمنى شيئا جديدا. الكحول، السجائر، كتب جلال الدين الرومى. بالإضافة للجنس، كنت أحبهن حبا كبيرا. إلا أن ذلك لم يكن يروق للآخرين. كانت الجزائر مازالت فى بداية استقلالها عندما أخذ نفوذ الإخوان المسلمين القادمين من مصر أو من فلسطين يزداد قوة.

وليمة الكذب سرد من نوع جديد غامض ومحير حيث إن التمزق والذكريات تأخذ حيزا أكبر من الحقيقة يحكى المراهنة على نضج المراهق الجزائرى الذى يقرأ ويهوى الألم خفية ولكنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، والذى يحب النساء بورع وخشوع لا يوازيه إلا حب الله.

※

Une brève histoire de l'avenir

مختصر تاريخ المستقبل

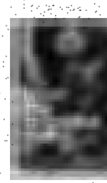
Jacques Attali
Fayard



يكشف الستار عن الطريقة التى تتطور من خلالها العلاقات بين الأمم وكيف سيؤثر الانفجار الديموغرافى وتنقل الشعوب والتغير المناخى والإرهاب والعنف والتطرف الدينى على حياتنا اليومية ويستقرئ كيف ستؤثر التكنولوجيا على كل النواحى الحياتية: العمل والتعليم والصحة والثقافة والأنظمة السياسية. كما يبين أنه بإمكاننا الحصول على كل الأشياء وبالتالى إلغاء الفقر وتقسيم الثروات بفضل التكنولوجيا والمحافظة على البيئة للأجيال المقبلة.

أسطورة من هوليوود!





Great Big Beautiful Doll: The Anna Nicole Smith Story

(دمية كبيرة عظيمة وجميلة، قصة انا نيكول سميث)

Eric Redding
Barricade Books: 256pp,
$16.95, 2007

Train Wreck: The Life and Death of Anna Nicole Smith

(حطام: حياة وموت أنا نيكول سميث)

Donna Hogan & Henrietta Tiefenthater
Phoenix Books:240pp, $25.95, 2007

من الصعب فهم كيف تتحول بعض الشخصيات إلى ظواهر دون أن يكون لهم أى إسهام مهم فى أى من مجالات الحياة. ومهما حاولنا الادعاء أن نيكول سميث مجرد ظاهرة هوليوودية تافهة إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن تفاصيل حياتها قد استحوذت على الكثير من الاهتمام على المستوى الشعبى من بداية ظهورها كفتاة بلاى بوى للعام سنة ١٩٩٢ وحتى وفاتها المفاجئة والغامضة يوم ٨ فبراير ٢٠٠٧.

ولدت فيكى لين مارشال فى نوفمبر ١٩٦٧ فى ولاية تكساس وغيرت اسمها إلى ان نيكول سميث عام ١٩٩٣، انفصل والداها بعد ولادتها مباشرة وعاشت لفترة مع أمها وزوجة خالها قبل ان تنتقل إلى منزل خالة لها فى مدينة أخرى من ولاية تكساس حيث بدأت دراستها الثانوية والتى توقفت عنها بعد سنة. تزوجت فيكى من بيلى واين سميث الذى كان يعمل طاهيا فى المطعم الذى عملت هى فيه كنادلة. عندما ولد ابنها الوحيد دانيل كانت فيكى فى الثامنة عشرة من عمرها وكان والد الطفل فى السابعة عشرة، وسرعان ما انفصلا لتحاول العمل كنادلة و بائعة فى متجر كبير لتنفق على ابنها ولكنها لم تنجح فى كسب ما يرفعها هى وابنها فوق خط الفقر إلى أن بدأت عملها كموديل. عام ١٩٩٢ اختارها هيو هيفنر مؤسس مجلة بلاى بوى لتظهر على غلاف المجلة لتقلب موازين الجمال حيث إنها كانت ممتلئة القوام فى وقت كانت الموديل المثالية فيه شديدة النحافة. عام ١٩٩٣ استقرت على اسم آن نيكول سميث وأصبحت وجه ماركة جس للجينز بدلا من السوبر موديل كلوديا شيفر. واستغلت شركة جس الشبه بين آن نيكول وبين نجمة الإغراء القديمة جين مانسفيلد فى الإعلانات التى قامت ببطولتها ولكن آن نيكول نفسها طالما صرحت بأنها تتشبه بمارلين مونرو.

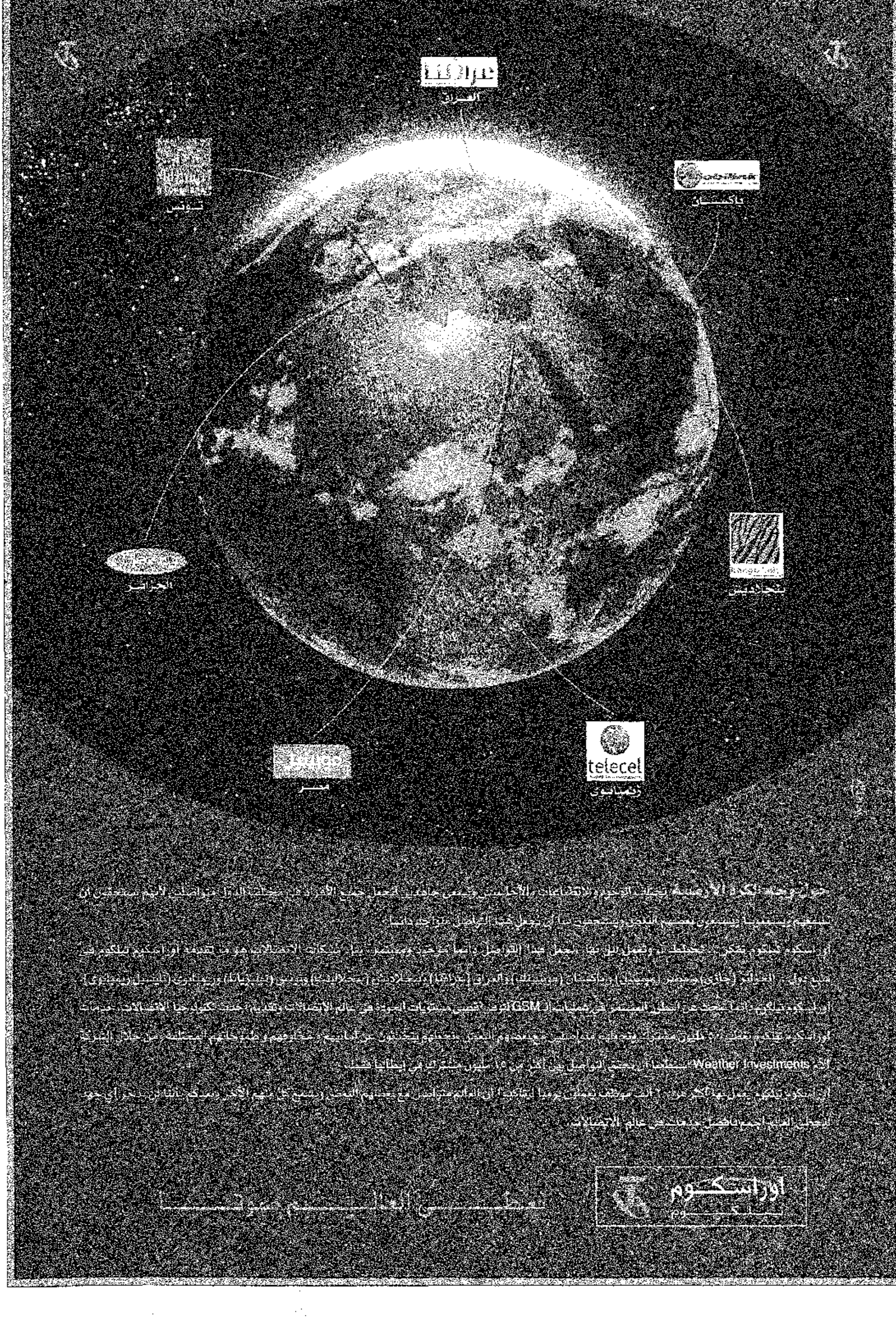
وبينما كانت آن نيكول تعمل كراقصة فى ملهى ليلى عام ١٩٩١ قابلت الملياردير جى هاورد مارشال ورافقته لمدة سنتين قبل أن تطلق رسميا من زوجها وتتزوجه عام ١٩٩٣. توفى مارشال بعد زواجهما بثلاثة عشر شهراً وبدأت معركة قوية بين آن نيكول وبين أبناء مارشال حول ارثه مستمرة حتى الآن بعد وفاتها ووصلت القضايا إلى المحكمة الدستورية التى حكمت بأحقية آن نيكول سميث فى المطالبة بنصيب ما فى الثروة التى تركها زوجها.

مثلت آن نيكول فى بضعة أفلام وأنتجت فيلماً واحداً ولكنها لم تلق أى نجاح نقدى بل كانت مادة مستمرة للسخرية بالذات فى البرامج الكوميدية الليلية وفى عام ٢٠٠٢ قامت ببطولة أحد برامج الواقع حيث كانت تتصرف بفجاجة مثيرة للدهشة والذى حازت حلقته الأولى على أعلى نسبة مشاهدة فى تاريخ القناة المنتجة.

فى يوم ١ يونيو ٢٠٠٦ وضعت آن نيكول سميث ابنتها دانى لين التى تقول شهادة ميلادها الصادرة من جزر البهاماز إنها ابنة محامى آن نيكول وصديقها الأخير هاورد سترن بينما رفع صديقها السابق لارى بيركهيد قضية يطالب فيها بإثبات أبوته لدانى لين. يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠٦ توفى دانيل ابن آن نيكول بينما كان يزورها فى المستشفى ودفن فى جزر الباهاماز وفى فبراير من العام التالى وجدت آن نيكول ميتة فى غرفتها بأحد الفنادق.

وتستمر آن نيكول فى تصدر الأخبار الفنية بعد وفاتها. لم يتم إلى الآن حسم سبب الوفاة ولا نسب ابنتها ولا سبب موت ابنها تحديدا. قد يتم نسيان آن نيكول بعد عشر سنوات من الآن وقد تستمر فى إثارة التساؤلات وتتحول لأسطورة فيبدو أن لا مقياس ثابتا فى هذه الأمور.


أحدث الإصدارات
دار الشروق


عراقنا
العراق
تونس
باكستان
الجزائر
بنجلاديش
telecel
زيمبابوي
مصر
سبع دول: الجزائر (جازي) ومصر (موبينيل) وباكستان (موبيلنك) والعراق (عراقنا) وبنجلاديش (بنجلالينك) وتونس (تونيزيانا) وزيمبابوي (تيليسل زيمبابوي).
GSM
Weather Investments
أوراسكوم
تيليكوم

